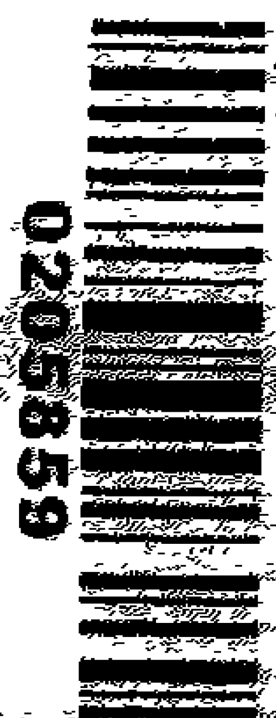
فرانسيس هودغسن بيرنت



# الحديقة السرية

ترجمة
نعمت توفيق صناديقي

قصص عالمية



الإشراف الفني زهير الحمو

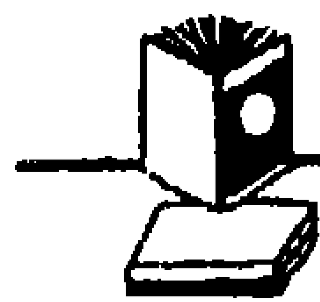
فرانسيس هودغسن بيرنت

# الحديقة السرية

## قصص عالمية

ترجمة

**نعمت توفيق صناديقي**



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

العنوان الأصلي للكتاب :

# THE SECRET GARDEN

FRANCES HODGSON BURNETT

الحديقـة السـريـة : قصـص عالميـة = The Secret garden /
فرانسيس هودغسـن بيرنـت ؛ ترجمة نعمت توفيـق صناديقـي . ـ
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٩ . ـ ٣٠٤ ص ؛ ٢٤ سم . ـ (قصص عالمية).

١ ـ ٨٢٣ ب ي ر ح ٢ ـ العنوان ٣ ـ العنوان الموازي
٤ ـ بيرنت ٥ ـ صناديقي ٦ ـ السلسلة
مكتبـة الأسـد

الايداع القانوني : ع ـ ٥٧٩ /٤/١٩٩٩

# ١ ــ لــم يبق أحــد

عندما أرسلت ماري لينوكس إلى مسيلثويت مانور لتعيش مع خالها ، أجمع سكان البيت على أنها أبشع طفلة رأوها . كان ذلك حقيقة فعلاً . فهي ذات وجه نحيل وجسم صغير رقيق وشعر فاتح خفيف وتعابير نكدة . كان شعرها أشقر اللون ووجهها أصفر ، فقد ولدت في الهند وكانت مريضة على الدوام بطريقة أو أخرى . كان والدها يحتل مركزاً لدى الحكومة الانكليزية هناك ومشغولاً دوماً ، وهو نفسه مريض، اما أمها فقد كانت ذات جمال لا يوصف واهتمامها الوحيد أن تذهب الى الحفلات وتمتع نفسها مع اشخاص مرحين . ولم تكن ترغب في أن يكون لها طفلة صغيرة . عندما ولدت ماري سلمتها إلى مربية هندية لتعتني بها . وقد أدركت هذه المربية أنها ــ لكي ترضي سيدتها ــ يجب أن تبقى الطفلة بعيدة عن نظرها قدر الامكان . وهكذا ، بمــا أن الطفلــة كانــت مريضة ومشاكسة وبشعة فقد ظلت جانباً ، حتى عندما كبرت وهــي مريضة وبدأت تنقل خطواتها بقيت بعيدة عن النظر ايضاً . ولا تذكر ماري أنها رأت اي شيء مألوف بالنسبة لها سوى وجد مربيتها الداكن وبعض الخدم المحليين الذين كانوا يطيعونها على الدوام ، ويدعونها تفعل ماتشاء لأن سيدتهم ستغضب إذا سمعت صوت بكائها .

عندما بلغت السادسة اصبحت كخنزير صغير أناني ومستبد . أما المربية الانكليزية الشابة التي جاءت لكي تعلمها القراءة والكتابة لم تحب الصغيرة على الاطلاق ، حتى أنها تخلت عن وظيفتها خلال ثلاثة أشهر ، وعندما جاءت مربيات أخريات في محاولات أخرى ، كن يغادرن في مدة أقصر من المدة التي استمرت بها المربية الأولى . وهكذا ولولا أن ماري

قد اختارت في الواقع تعلم قراءة الكتب لم يكن بالامكان أن تتعلم الأحرف ابداً .

وفي احد الأيام الحارة جداً ، عندما كانت في حوالي التاسعة من عمرها ، استيقظت وهي تشعر بنزق كبير ، وازداد هذا الشعور عندما رأت ان الخادمة التي تقف إلى جانب سريرها ليست خادمتها سألت المرأة الغريبة : لماذا أتيت إلى هنا ؟ لن ادعك تبقين هنا . ارسلي خادمتي إلي . نظرت المرأة في خوف ولكنها قالت بكلام ملعثم أن خادمتها لا تستطيع أن تأتي . وعندما ثارت ثورة ماري وقامت بضرب المرأة ورفسها فقد بدت الأخرى اكثر خوفاً وكررت بأنه من المستحيل ان تأتي خادمتها إلى بيت سيدتها .

في ذلك الصباح كان هناك شيء غامض في الجو . لم تكن الامور تسير بنظامها المعتاد ، والعديد من الخدم المحليين لم يكونوا متواجدين بينما هؤلاء الذين رآتهم ماري كانوا ينسحبون أو يركضون ووجوهم شاحبة وخائفة . ولكن لم يخبرها احد بشيء ولم تأت مربيتها . وقد بقيت فعلياً وحيدة ذلك الصباح ، واخيراً خرجت إلى الحديقة تتجول فيها وبدأت تلعب وحدها تحت الشجرة قرب الشرفة . وتظاهرت بأنها تصنع حوضاً للزهر فغرست براعم خبيزة قرمزية اللون داخل كومة تراب صغيرة ، ولكن غضبها كان يزداد أكثر فأكثر وهي تدمدم بالعبارات والشتائم التي ستكيلها إلى مربيتها عندما تعود .

كانت تقول : خنزيرة ! خنزيرة ! إبنة الخنازير ، لأن كلمة خنزير تعتبر أكبر إهانة للسكان المحليين .

كانت تكرر هذه الكلمات مرات ومرات وهي تضغط على أسنانها عندما سمعت أمها تخرج إلى الشرفة مع أحدهم . لقد كانت بصحبة شاب وسيم ، وقفا معاً وما يتحدثان بصوت غريب منخفض . كانت ماري تعرف ذلك الشاب الذي يبدو كالفتى . وسمعت بأنه ضابط صغير

جاء للتو من انكلترا . كانت الطفلة ماري تحدق به ولكنها كانت تحدق بأمها اكثر ، وكانت تفعل ذلك دوماً عندما تسنح لها فرصة رؤيتها ، لأن سيدة البيت ــ كما كانت ماري تدعوها في أكثر الأحيان ــ كانت إمــرأة طويلة ، نحيلة وجميلة وترتدي ثياباً انيقة . كان شعرها مثل الحرير المعقوص . وانفها صغير ناعم وكأنه يزدري الأشياء أمامه ولها عينان كبيرتان ضاحكتان . وجميع ملابسها رقيقة وفضفاضة ، فقد كانت ماري تقول انها مليئة بالزركشه . وفي هذا الصباح كانت ملابسها أكثر زركشة ، ولكن عينيها لم تكونا تضحكان أبداً ، كانتا واسعتين وخائفتين وتنظران بتوسل إلى وجه الشاب الضابط الوسيم . وقد سمعتها ماري تقول : « هل الأمر سيء الى هذه الدرجة ؟ هل هو سيء ؟ » .

اجاب الشاب بصوت مرتجف : إنه مرعب ، مرعب أيتها السيدة لينوكس . كان عليك أن تذهبي إلى التلال منذ أسبوعين .

اخذت السيدة لينوكس تفرك بيديها .

ثم صاحت : « نعم أعلم أنه كان يجب أن أغادر ! لقد بقيت حتى اذهب إلى حفلة العشاء السخيفة تلك . كم كنت مجنونة » !

في تلك اللحظة انفجر صوت نحيب مرتفع من مركز الخدم حتى أن السيدة لينوكس تمسكت بيد الشاب بينما وقفت ماري ترتجف من رأسها حتى اخمص قدمها . وأخذ النحيب يرتفع أكثر فأكثر .

واخذت السيدة لينوكس تلهث : « ما هذا ؟ ما هذا ؟ »

أجاب الشاب : لقد توفي أحدهم . لم تقولي أن الأمر قد وصل الى خدمك .

صــاحت السيدة لينوكس : « لم أعلم بذلك ! تعــال معي ، » واستدارت وركضت نحو البيت . وبعد ذلك حدثت أشياء مروعة ،

فقد توضحت الامور الغامضة التي حدثت صباحا بالنسبة إلىماري . لقد انتشر وباء الكوليرا بأقصى صوره القاتلة ، وكان الناس يموتون مثل الذباب . لقد اخذوا مربية ماري ليلا وهي مريضة . وعندما سمع الخدم خبر وفاتها اخذوا ينتحبون في اكواخهم . وقبل حلول اليوم التالي توفي ثلاثة خدم آخرون والباقي فروا في حالة هلع . كان هناك ذعر في كل مكان واشخاص يموتون في كل منزل .

وفي هذه الحالة من الفوضى والحيرة ، اختبأت ماري في اليوم التالي في غرفتها فنسيها الجميع .

لم يفكر احد بها ، ولا أحد يريدها ، وكانت هناك أحداث غريبة لم تعرف ماري عنها شيئاً . بل كانت تبكي وتنام بصورة متناوبة والساعات تمضي . كل ما عرفته هو أن الناس كانوا مرضى بالإضافة لسماع أصوات غامضة ومخيفة . وفي احدى المرات زحفت الى غرفة الطعام فوجدتها فارغة ، رغم وجود طعام على الطاولة لم يؤكل إلا جزء منه ؛ وكانت الكراسي والصحون تبدو وكأنها دفعت الى الخلف على عجل عندما نهض الجالسون فجأة ولسبب ما .

أكلت الطفلة بعضا من الفاكهة والبسكويت ؛ وبما أنها كانت عطشى فقد شربت كأساً من النبيذ كان ممتلئاً تقريباً ، وبما أنه حلو المذاق لم تدرك تأثيره القوي . وبعد فترة قصيرة جداً شعرت بنعاس كبير فعادت الى غرفتها وأغلقت على نفسها ثانية وهي خائفة من الأصوات التي سمعتها من الأكواخ المجاورة ومن صوت الأقدام السريعة . أما الخمر فقد جعلها تشعر بنعاس شديد لم يمكنها من فتح عينيها ، فاستلقت على سريرها دون أن تعلم بأية أشياء أخرى ولفترة طويلة .

لقد حدثت اشياء كثيرة خلال الفترة التي نامت فيها بعمق ، ولم يزعجها النحيب وأصوات الأشياء التي كانت تدخل وتخرج من المنزل .

وعندما استيقظت بقيت مستلقية وهي تحدق بالحائط . كان البيت في سكون تام لم تعهده ماري من قبل . لم تسمع أصواتاً أو خطى وكانت تتساءل فيما إذا نجا سكان البيت من الكوليرا وانتهت المشاكل ، وتساءلت أيضاً من سيعتني بها بعد أن توفيت مربيتها . ستأتي مربية جديدة . وربما تعرف بعض القصص الجديدة فقد سئمت من القصص القديمة . لم تبكِ لوفاة ممرضتها ، فهي لم تكن طفلة حنونة ولا تكترث كثيراً لأحد . لقد اخافتها الأصوات والحركة السريعة بسبب الكوليرا . وكانت غاضبة لأن أحداً لم يتذكر أنها لا تزال على قيد الحياة . لقد كان الجميع في حالة ذعر . لا تسمح لهم بالتفكير بطفلة صغيرة لا يحبها أحد . عندما أصابت الكوليرا الناس لم يعد أحد يتذكر سوى نفسه . ولكن إذا تحسنت أوضاع الناس فلا بد أن يتذكرها أحد ويبحث عنها .

لم يأتِ أحد . ويبدو أن المنزل ازداد هدوءاً أكثر فأكثر . ثم سمعت خشخشة على الحصيرة وعندما نظرت نحو الأسفل رأت حية صغيرة تتسلل وتنظر الى ماري بعينيها اللتين تشبهان الجواهر . لم تخف ماري منها لأنها صغيرة وغير مؤذية ، ويبدو أنها في عجلة من أمرها وتود الخروج من الغرفة ، فانسلت الى باب الغرفة بينما ماري تنظر اليها .

قالت ماري : كم هي غريبة وهادئة . ويبدو أنه لا يوجد أحد في المنزل سوى أنا والحية ؟

وبعد دقيقة واحدة سمعت خطوات في المجمع السكني ، ثم أصبح الصوت في الشرفة . كانت خطوات رجال دخلوا المنزل وهم يتحدثون بأصوات منخفضة . لم يقابلهم أو يتحدث إليهم أحد ، ويبدو أنهم كانوا يفتحون الأبواب ويبحثون في الغرف .

فسمعت صوتاً يقول : « ما هذا المكان المهجور . تلك المرأة الجميلة ، الجميلة ! اعتقد الطفلة أيضا . لقد سمعت أن هناك طفلة ، رغم أن أحداً لم يرها . »

كانت ماري تقف وسط غرفتها عنـدما فتحوا الباب بعد بضـع دقائق . كانت تبدو بشعة ـ غاضبة ومقطبة لأنها بدات تشعر بالجوع وانها مهملة بصورة شائنة . وكان أول من دخل الغرفة ضابط سبق ان راته مرة يتحدث الى ابيها . كان يبدو متعباً ومضطرباً ، ولكنه ذهل حين رآها فقفز الى الخلف .

ثم صاح : « بارني توجد طفلة هنا ! طفلة وحيدة ! في مكان كهذا ! يا إلهي ـ من هذه الطفلة ؟ »

أجابت الطفلة الصغيرة وهي تجر نفســها بصعوبــة : « انا ماري لينوكس » . لقــد ظنت أن الرجل كان فظاً جــداً عندما دخل المنزل ، فتابعت القول « في مكان كهذا ! لقد نمت عندما أصابت الكوليرا الجميع ، واستيقظت للنو . لماذا لم يأت أحد ؟ »

استدار الرجل نحو رفيقه متعجبا : « إنها الطفلة التي لم يرهــا أحد ! لقد نسوها فعلا ! »

قالت ماري وهي تضرب بقدمهــا : « لماذا نسيتموني ؟ لمــاذا لم يأت أحد ؟ »

نظر الشاب بارني إليها بحزن شديد . حتى أن ماري راته يمسح عينيه وكأنه يمسح دموعاً . وقال : « مسكينة هذه الطفلة الصغيرة . لم يبق أحد حتى يأتي . »

وبهذه الطريقة الغريبة والمفاجئة وجــدت ماري نفسها دون اب ولا أم ، لقد توفيا وتم نقلهما ليلاً ، أما الخدم القلائل الباقون والذين لم يموتوا فقد غادروا المنزل بأقصى سرعة دون أن يتذكر واحد منهم إبنة أصحاب البيت . والواقــع أن البيت كان خالياً عدا ماري والحيــة المنســلة .

## ٢ ـ الآنسة ماري مشاكسة حقاً

كانت ماري تحب أن تنظر الى امها عن بعد ، وكانت ترى أنها جميلة جداً ، ولكنها لم تكن تعرف عنها إلا القليل ، ولم يكن متوقعاً أن تحبها أو أن تفتقدها كثيراً عندما رحلت . وفي الواقع في لم تفتقدها اطلاقاً لكونها طفلة ولا تهتم إلا بنفسها . كان تفكيرها الكلي محصوراً بذاتها ، كما كانت تفعل دوماً . ولو كانت أكبر سناً لشعرت بالقلق الكبير لكوها بقيت وحدها في هذا العالم ، ولكنها صغيرة جداً ، وهناك من يعتني بها على الدوام مما جعلها تعتقد أنها ستستمر بهذ الطريقة . كل ما فكرت به هو أنها تريد معرفة فيما إذا كانت ستذهب الى أناس ظرفاء ومهذبين كي يدعوها تتصرف على هواها مثلما فعلت مربيتها وبقية الخدم .

كانت تعلم أنها لن تستمر بالعيش في منزل الكاهن الانكليزي الذي اخذوها إليه بادىء الأمر . لم تكن ترغب بالبقاء عنده . فقد كان رجلا فقيراً وله خمسة أطفال جميعهم في عمر متقارب ويرتدون ملابس بالية ، ويتشاجرون باستمرار وينتزعون الألعاب من بعضهم البعض. كانت ماري تكره منزلهم غير المرتب ، وهي غير مقبولة بالنسبة لهم ، فبعد يوم أو يومين لم يعد يلعب معها أحد وفي اليوم التالي أطلقوا عليهــا لقب تهكم جعلها تغضــب .

أما باسيل فهو الذي فكر بالاسم أولا ، انه ولد صغير ، ذو عينين زرقاوين وقحتين وأنف مرفوع ، ولم تكن ماري تحبه . وبينما كانت تلعب وحدها تحت الشجرة ، مثلما لعبت يوم انتشرت الكوليرا ، وهي تضع أكواماً من التراب وممرات للحديقة ، جاء باسيل ووقف الى جانبها يراقبها . وعلى الفور أبدى أهتماماً وقدم اقتراحاً قائلا :

ولماذا لا تضعين كومه من الأحجار هناك لتكون كالبيت ، هناك في الوسط » . وانحنى فوقها ليشير إليها .

فصاحت ماري : اذهب بعيداً ! لا أريد صبية . اذهب بعبداً !

غضب باسيل للحظة واحدة ، ثم بدأ يغيظها . لقد كان يغيظ أخواته دوماً . وبدأ يرقص ويدور حولها ويكشر ويغني ويضحك :

الآنسة ماري مشاكسة حقاً
كيف تنمو حديقتك ؟
فيها الأجراس البيضاء واصداف الكوكل
والأذريون ، كلها في صف واحد

وظل يغني تلك الأغنية حتى سمعها بقية الأطفال واخذوا يضحكون أيضاً ، وكلما ازداد غضب ماري كلما ردد الأطفال الأغنية ، وبعد ذلك وخلال كل المدة التي بقيت فيها ماري معهم كانوا ينادونها الآنسة ماري مشاكسة حقاً ، عندما كانوا يتحدثون إليها أو فيما بينهم ، وغالباً عندما كانوا يتحدثون إليها .

قال لها باسيل : سيرسلونك الى بيتك في نهاية الاسبوع ونحن سعداء بذلك .

اجابت ماري : « وأنا سعيدة أيضاً . أين بيتي » .

قال باسيل : « عمرها سبع سنوات ولا تعرف بيتها ، إنها إنكلترا بالطبع . جدتنا تعيش هناك وقد ذهبت اختنا ميبل اليها في العام الماضي اما أنت فلن تذهبي إلى جدتك لأنه ليس ليس لديك جدة. ستذهبين لعند خالك ، واسمه آرشيبالد كريفن .

قالت ماري بحدة : لا أعرف شيئاً عنه .

أجاب باسيل : « أعلم ذلك . فأنت لا تعرفين شيئاً والبنات لا يعرفن شيئاً . لقد سمعت أمي وأبي يتحدثان عنه انه يعيش في بيت عظيم وكبير ومنعزل وقديم في الريف ولا احد يقترب منه . فهو عصبي جداً . بحيث لا يسمح لأحد أن يأتي ، وحتى لو سمح فهو لا يرغب أن يأتي احـد إنه احدب وبشع .

قالت ماري : « إنني لا أصدقك » وأدارت ظهرها ووضعت إصبعيها في اذنيا لأنها لا تريد أن تستمع إليه اكثر من ذلك .

ولكنها فكرت بالأمر كثيراً فيما بعـد ، وعندما أخبرتهـا السيدة كروفورد في تلك الليلة بأنها ستبحر خلال عدة ايام باتجاه إنكلترا وأنها ذاهبة الى بيت خالها السيد آرشيبالد كريفن الذي يعيش في ميسلثويت مانور ، فقد بدا وجهها دون أي تعبير ودون اكتراث . فلم يستطيعوا فهمها . حاولت السيدة كروفورد وزوجها أن يكونا لطيفين معها ، ولكنها كانت تشيح بوجهها كلما حاولت السيدة كراوفورد أن تقبلها وتشد نفسها كلما ربت السيد كروفورد على كتفها . وهذا ما جعل السيدة كروفورد تقول مشفقة : إنها طفلة بسيطة . لقد كانت أمها امرأة جميلة ، وذات تصرفات لبقـة أيضاً ، ولكن تصرفات ماري هي أسوأ ما رأيتـه لدى الأطفال ، فالأولاد ينادونها ، الآنسة ماري مشاكسة حقـاً ؛ وبالرغم من هذا التصرف السيء من الأطفال إلا أنه له مبرراته . ولو قامت امها ذات الوجه والأخلاق الحسنة ، برعايتها فلربما تعلمت مـاري بعض التصرفات الحسنة أيضاً . ولكن من المؤسف أنها رحلت ، ولا بد أن نذكر بأن كثيراً من الناس لا يدرون أن لهـا طفلة إطلاقـاً . ثم تنهدت السيدة كروفورد وتابعت أعتقد أنها نادراً ما كانت تنظر الى الطفلة ، عندما توفيت مربيتها لم يفكر أحد بهذه الصغيرة . تصور كيف هرب الخدم وتركوا الطفلة وحدها في ذلك البيت المهجور . لقد كاد الكولونيل يخرج من جلده عندما فتح الباب فوجد الطفلة تقف وحدها في وسط الغرفـة .

سافرت ماري في رحلتها الطويلة الى انكلترا ، وكانت في رعاية زوجة احد الضباط التي اخذت أطفالها الى مدرسة داخلية في انكلترا . ولكنها كانت مشغولة مع ابنها وابنتها الصغيرتين ، لهذا كانت سعيدة عندما سلمت الصغيرة الى المراة التي ارسلها السيد أرشيبالدكريفن لاستقبالها في لندن . كانت تلك المراة مدبرة المنزل في ميسلثويت مانور وتدعى السيدة ميدلوك . وهي امرأة بدينة لها وجنتان حمراوان وعينان سوداوان . كانت ترتدي ثوباً أرجوانياً ومعطفاً أسود وعليه حاشيتان بارزتان وعلى راسها قلنسوة مزينة بأزهار بنفسجية . لم تحبها ماري ابداً ، ولكن بما انها لا تحب احداً على الاطلاق فلم يكن هناك ما يثير الاهتمام ، اضافة الى ذلك كان من الواضح أن السيدة ميدلوك لم تعرها اهتماماً كبيراً .

واردفت قائلة : يا إلهي ! تبدو وكأنها شيء صغير قبيح ! لقد سمعنا عن جمال امها . ولكنها لم تأخذ الكثير من أمها أليس كذلك ؟

أجابت زوجة الضابط وهي تبتسم : ربما تصبح أفضل عندما تكبر . ولولا وجهها الشاحب لكانت تعابيرهـــا أفضل فإن ملامحها جميلة ، والأطفال يتغيرون كثيراً .

اجابت الســيدة ميدلوك : يجب أن تتغير كثــيراً ، ولا يوجد في ميسلثويت أشخاص كثيرون ليغيروها . لقد ظنت السيدتان أن ماري لم تكن تسمع حديثهما باعتبار أنها كانت تقف بعيدة عنهما قليلا عند نافذة الفندق الخاص الذي نزلوا به . كانت ماري تراقب الباصات وسيارات الأجرة والناس ، ولكنها سمعت كل شيء فقد كان لديها حب الاستطلاع بخصوص خالها والمكان الذي يعيش فيه . أي مكان هذا ؟ وماذا يشبه ؟ وماذا يعني أحدب ؟ فهي لم تر انساناً أحدب من قبل . وربما لا يوجد اي أحدب في الهند .

وبما أنها أصبحت تعيش في بيوت أناس آخرين ولم يعد لديها مربية فقد بدأت تشعر بالوحدة وتفكر أفكاراً غريبة كانت جديدة بالنسبة لها ،

فقد بدأت تتساءل لماذا لم يكن لها انتماء الى أحد . حتى عندما كان أبوها وأمها على قيد الحياة ، ويبدو أن الاطفال الآخرين ينتمون الى آبائهم وأمهاتهم ، أما هي فمن الواضح أنها فعلياً ليست طفلة لأحد . كان لديها الخدم والطعام والملابس ، ولكن أحداً لم يهتم بها . لم تكن تعلم أن السبب هو كونها طفلة كريهة ، كانت تفكر على الدوام أن الناس الآخرين هم الكريهون ، ولم تدر أنها هي نفسها كانت هكذا .

لقد ظنت أن السيدة ميدلوك هي أكره شخص راته بوجهها الملون وقلنسوتها الجميلة . وعندما انطلقتا في اليوم التالي في رحلتهما الى يوركشاير ، كانت تمشي في المحطة في طريقها الى عربة القطار مرفوعة الرأس محاولة الابتعاد عن السيدة ميدلوك قدر ما تستطيع . لأنها لم ترغب بالظهور بالظهور أن لها علاقة بها . لقد كانت فكرة تخيل الناس أنها ابنتها تزعجها كثيراً .

ولكن السيدة ميدلوك لم تكن لتهتم بها ولا بأفكارها . فهي ليست من النوع الذي يكترث لسفاسف الصغار . على الأقل هذا ما ستقوله فيما لو سئلت . فهي لم تكن ترغب بالذهاب الى لندن في الوقت الذي كانت فيه ابنة اختها ماريا ستتزوج ، والكن بما أن عملها مريح وبراتب جيد كمدبرة للمنزل في ميسلثويت مانور ، فإن الطريقة الوحيدة للاحتفاظ به هي أن تنفذ ما يطلبه السيد أرشيبالد كريفن على الفور . ولم تكن تجرؤ حتى أن تسأل مجرد سؤال .

قال لها السيد كريفن لقد مات المقدم لينوكس وزوجته بسبب الكوليرا . والمقدم لينوكس هو زوج أختي ، وأنا الوصي على ابنتهما . ويجب أن تأتي الطفلة الى هنا . وعليك الذهاب الى لندن لاحضارها بنفسك .

وهكذا فقد حزمت حقيبتها ومضت في رحلتها .

جلست ماري في زاوية عربة القطار فبدت بشعة ومضطربة . ولم يكن لديها ما تقرأه او تنظر إليه . ثنت يـديها ، وهي تلبس قفازها الأسود ، ووضعتهما في حضنها ، أما شعرها المنسدل الخفيف فقد كان ينتشر من تحت قبعتها الحريرية .

كانت السيدة ميدلوك تحدث نفسها : لم أرَ في حياتي طفلة صغيرة مدللة نكدة أكثر منها . فهي لم تر طفلة تجلس دون حراك ودون أن تفعل شيئاً ، واخيراً تعبت من النظر إليها وبدات تتكلم بصوت حاد وقاسي وبدات قائـلة :

« اظن انني أستطيع أن أخبرك شيئاً عن المكان الذي ستذهبين إليه هل تعرفين شيئاً عن خالك » ؟

اجابت ماري : « لا » .

« ألم تسمعي أمك وأباك يتحدثان عنه » ؟

« لا » ، أجابت ماري وهي مقطبة . لقد قطبت لأنها تذكرت أن والديها لم يتحدثا معها عن أي شيء بصورة خاصة ولم يخبراها بشيء حتمـاً .

اخذت السيدة ميدلوك تغمغم وهي تنظر الى وجهها الصغير الغريب الخالي من أي تعبير . ولم تقل شيئاً لبضع دقائق ثم بدأت ثانية :

أعتقد انك يجب أن تعلمي بعض الأشياء التي تهيئك. فأنت ستذهبين الى مكان غريب .

ولم ترد ماري بأي شيء ، ويبدو أن السيدة ميدلوك قد شعرت بالاحباط نتيجة اللامبالاة الواضحة عند ماري ، ولكنها تابعت بعد أن التقطت انفاسها :

« إنه مكان ضخم واسع ولكنه كئيب ، والسيد كريفن فخور به بطريقته الخاصة — وهذا الأمر بحد ذاته كئيب أيضاً . فالبيت عمره ستمائة سنة . ويقع على حافة السبخة ، وفيه ما يقارب المائة غرفة رغم أن معظمها مقفل ، فيه صور ومفروشات جميلة وقديمة واشياء منذ عصور ، وهناك حديقة كبيرة حوله وحدائق صغيرة واشجار تصل أغصان بعضها الى الأرض » . توقفت السيدة ميدلوك والتقطت انفاسها ثم تابعت : « ولا يوجد شيء آخر » وقد أنهت حديثها فجأة .

بدأت ماري تستمع لها رغماً عنها ، لقد بدا من حديثها ان كل شيء يختلف عن الهند ، وكل جديد يكون ملفتاً للنظر . ولكنها لم تكن تنوي إبداء اي اهتمام . وهذه إحدى عاداتها التعيسة الكريهة .. ولهذا جلست صامتة .

قالت السيدة ميدلوك « حسناً ، ما رأيك بهذا » ؟

أجابت : « لا شيء ، فأنا لا أعرف شيئاً عن هذه الأماكن » .

فضحكت السيدة ميدلوك ضحكة قصيرة لهذا الجواب وقالت :

« حسناً ، ولكنك تبدين كامرأة عجوز . ألا تهتمين » ؟

أجابت ماري : « ليس مهماً أن أهتم أو لا أهتم » .

قالت السيدة ميدلوك : « أنت على حق تماماً ، فالأمر ليس مهماً . وحتى أنا لا أعلم ماذا ستفعلين في ميسلثويت مانور . وهو لن يربك نفسه بالنسبة لك بالتأكيد . لأنــه لا يزعج نفسه بالنسبة لأي كان مطلقــاً » .

توقفت السيدة ميدلوك وكأنها قد تذكرت شيئاً في تلك اللحظة . ثم تابعت :

« ظهره منحن ، وهذا الأمر يجعله غير طبيعي . لقد كان شاباً فظاً ؛ ولم يستفد من كل أمواله وبيته الكبير الى أن تزوج » .

ادارت ماري عينيها نحوها رغم اصرارها على عدم الاكتراث . فلم يخطر لها ابداً أن الأحدب يمكن أن يتزوج ، ولهـذا دهشت قليلاً . ولاحظت السيدة ميدلوك ذلك ، وبما أنها امرأة ثرثارة فقد تابعت باهتمام اكبر . وفي كل الأحوال فقد كانت تلك طريقة ليمضي بعض الوقت :

« لقد كانت زوجته لطيفة وجميلة ، وكان على استعداد ليطوف العالم لو طلبت منه ورقة نبات . ولم يصدق أحد أنها كانت ستتزوجه ، ولكنها فعلت . وصار الناس يقولون أنها تزوجته لماله . ولكنها لم تتزوجه لماله ــ لا ، لأنها توفيت ــ » .

قفزت ماري قليلاً وبصورة لا شعورية وقالت متعجبة :

« آه ! هل ماتت ؟ » ولكن دون أن تقصد شيئاً . فقد تذكرت قصة فرنسية خرافية كانت قد قرأتها بعنوان « ريكيه في علبة البودرة » . وهي قصة عن رجل أحدب فقير وأميرة جميلة ، وهذا الأمر جعلها تحزن فجأة من أجل السيد أرشيبالد كريفين .

أجابت السيدة ميدلوك « نعم لقد ماتت وهذا ما جعله فظا أكثر مما كان عليه . فهو لا يهتم بأحد . ولا يرى الناس . ومعظم أوقاته يكون مسافراً بعيدا ، وعندما يكون في ميسلثويت يغلق على نفسه الجناح الغربي ولا يراه أحد سوى بيتشر ، فهو صديق قديم له كان يهتم به عندما كان طفلا ويعرف عاداته .

بدا الأمر وكأنه قصة في كتاب وهذا ما جعل ماري تبدو غير مشرقة . بيت يضم مائة غرفة معظمها مغلـق والأبواب مقفلة ، ويقع على حافة السبخة ــ مهما تكن السبخة ــ فإن الأمر يبدو موحشاً . ورجل أحدب الظهر ومنغلق على نفسه أيضاً . نظرت ماري من النافذة وهي تضغط

على شفتيها ، وكان من الطبيعي أن المطر قد بدأ يهطل بخطوط رمادية مائلة وينسكب على زجاج النوافذ . ولو كانت تلك السيدة الجميلة على قيد الحياة لجعلت اشياء أكثر إشراقاً لأن وضعها سيكون الى حد ما يشبه وضع امها بدخولها وخروجها وذهابها الى الحفلات كما كانت تفعل وهي ترتدي ثيابها الحريرية ، ولكنها لم تعد موجودة .

تابعت السيدة ميدلوك : « لا تتوقعي أن تشاهدي السيد كريفن ، وعلى الأغلب لن تريه ، كذلك يجب أن تتوقعي عدم وجود أشخاص يتحدثون إليك . كل ما عليك أن تفعليه هو أن تلعبي وتعتني بنفسك . ستعلمين أي الغرف يمكنك أن تدخليها والغرف التي يجب أن تبتعدي عنها ، وهناك حدائق كثيرة . ولكن عندما تكونين في المنزل لا تتجولي وتحشي بفضول ، لأن السيد كريفن لا يحب ذلك » .

اجابت ماري بحدة « لن اتجول في البيت » ، وبعد أن كانت قد بدأت فجأة تشعر بالأسى للسيد أرشيبالد كريفن ، توقفت عن ذلك معتقدة انه شخص كريه ويستحق كل ما حدث له .

أدارت وجهها نحو زجاج نافذة العربة وهي تحدق في عاصفة المطر وكأنها ستستمر الى الأبد ونظرت طويلاً وبصورة ثابتة حتى صار اللون الرمادي داكناً أكثر فأكثر أمام عينيها ثم استغرقت في النوم .

## ٣ ـ عبر السبخة

نامت ماري مدة طويلة ، وعندما استيقظت كانت السيدة ميدلوك قد اشترت سلة طعام الغداء من إحدى المحطات ، وفيها بعض من الفروج ولحم البقر البارد وخبز وزبدة وشاي ساخن . ويبدو أن المطر صار ينهمر بصورة اغزر فأغزر ، وجميع الناس في المحطة كانوا يرتدون معاطف مطرية شفافة . اضاء الحارس مصابيح عربة القطار ، فابتهجت السيدة ميدلوك كثيراً لدى تناولنا الشاي والفروج ولحم البقر ، اكلت الكثير ، وبعد ذلك استغرقت في النوم فجلست ماري وأخذت تحدق بها وتراقب قلنسوتها الجميلة وهي تنزلق جانباً حتى استغرقت هي أيضاً في النوم ثانية في زاوية العربة ، كان صوت المطر المنسكب على النوافذ يهدهد لها . وعندما استيقظت ثانية كان الظلام دامساً . توقف القطار في محطة وراحت السيدة ميدلوك تهزها .

قالت لها : لقد نمت ! وحان الوقت لتفتحي عينيك ! فنحن الآن في محطة ثوايت ، ولا يزال امامنا مرحلة طويلة بالعربة .

وقفت ماري وهي تحاول أن تبقي عينيها مفتوحتين ، وبينما كانت السيدة ميدلوك تحزم الحقائب ، لم تعرض الطفلة الصغيرة مساعدتها باعتبار أن الخدم المحليين في الهند هم الذين كانوا يحزمون ويحملون الأشياء دوماً ، ومن الطبيعي ان ينتظر الباقون حتى يتم إنجاز العمل .

كانت المحطة صغيرة جداً ، ويبدو أنهما كانتا الوحيدتين اللتين ستغادران القطار . تحدث ناظر المحطة الى السيدة ميدلوك بطريقة

خشنة وكان مسروراً وهو يلفظ كلماته بطريقة غريبة تماماً ، حيث علمت ماري فيما بعد انها لهجة يوركشاير .

قال لها : لقد عدت ومعك تلك الصغيرة .

اجابت السيدة ميدلوك بلهجة يوركشاير : « نعم ها هي » وكانت تتحدث ايضاً بلهجة يوركشاير وقد ادارت رأسها من فوق كتفها نحو ماري . ثم سألته : كيف حال زوجتك ؟

اجابها : إنها جيدة ، العربة بانتظارك في الخارج .

وكانت العربة تقف في الطريق أمام الرصيف الخارجي . رأت ماري العربة الأنيقة والخادم الأنيق الذي ساعدها في الدخول إليها ، كان معطفه المطري الطويل وقبعته المطرية يلمعان والمطر يقطر منهما مثل كل شيء بما في ذلك رئيس المحطة الضخم .

وعندما اغلق الباب الباب ووضع الصندوق عند الحوذي وبدأوا مسيرتهم ، وجدت الطفلة الصغيرة نفسها تجلس في زاوية ذات وسائد مريحة ، ولكن لم تكن لديها الرغبة في النوم ثانية . فجلست وأخذت تنظر من النافذة تريد رؤية الطريق الذي يقودها الى المكان الغريب الذي حدثتها عنه لسيدة ميدلوك .

لم تكن ماري طفلة تخاف إطلاقاً ، ولم تكن خائفة تماماً ، ولكنها كانت تجهل ما سيحدث في بيت فيه مائة غرفة معظمها مغلق ـ بيت يقع على حافة السبخة .

وفجأة سألت السيدة ميدلوك : « ماذا تعني السبخة » ؟

أجابت السيدة ميدلوك : « بعد حوالي عشر دقائق انظري من النافذة وسترين يجب أن نسير خمسة أميال عبر سبخة ميسيل وقبل

ان نصل إلى مانور . ولكن لن تستطيعي رؤية الكثير بسبب ظلام الليل ولكنك سترين شيئاً ما .

لم تسأل ماري اسئلة اخرى : ولكنها انتظرت في ظلام الزاوية التي كانت تجلس فيها وعيناها على النافذة . كانت مصابيح العربة تعكس اشعتها لمسافة قصيرة امامهم واستطاعت ان تلقي نظرة خاطفة على الأشياء التي كانوا يمرون بها . فبعد ان غادروا المحطة مروا بقرية صغيرة حيث رأت أكواخاً بيضاء واضواء فندق . ثم مروا امام كنيسة ومنزل القس وواجهة مخزن في كوخ فيها ألعاب وحلويات واشياء غريبة وضعت للبيع . ثم وصلوا إلى الطريق الرئيسي فرأت شجيرات واشجاراً وبعد ذلك لم تر اشياء مختلفة لفترة طويلة ، أو أن الوقت بدا لها طويلاً على الأقل .

واخيراً بدات الخيل تبطىء في سيرها وكأنا تصعد نحو تلة ، وعلى الفور اختفت الشجيرات والاشجار . وفي الواقع لم تستطع رؤية شيء عدا الظلام الدامس على الجانبين . انحنت الى الأمام ووضعت وجهها على النافذة تماماً في اللحظة التي بدأت فيها العربة تهتز بصورة مفاجئة .

قالت السيدة ميدلوك: حسناً! نحن الآن بالتأكيد في منطقة السبخة.

كانت مصابيح العربة تعكس ضوءاً أصفر اللون على الطريق الوعر الذي جرى شقه بين الشجيرات والنباتات الصغيرة المنخفضة والذي ينتهي برقعة فسيحة مظلمة تنتشر من حولها. فبدأت الريح تشتد محدثة صوتاً غريباً ، جامحاً ومنخفضاً .

قالت ماري وهي تنظر حولها نحو مرافقتها : « هذا ــ هذا ليس بحراً ، أليس كذلك » ؟

أجابت السيدة ميدلوك : « لا ، ليس بحراً ، ولا حقولاً ولا جبالاً ، إنها اميال واميال من الأرض البور لا ينمو فيها سوى الخلنج والوزال والرتم ولا يعيش فيها سوى الفرس البري والغنم » .

قالت ماري : « اشعر وكانه بحــر ، وفيــه ماء ، وكأن الصوت صوت بحر » .

اجابت السيدة ميدلوك : « هذا هو صوت الريح يعصف بالشجيرات إنه مكان موحش وكئيب على ما اعتقد ، رغم ان الكثيرين يحبونه وخاصة عندما يزهر الخلنج » .

استمروا بالسير في الظلام ، وكان الهواء يندفع ويصفر ويحـدث اصواتاً غريبة ، ورغم توقف المطر فقد كان الطريق يصعد ويهبط ، ثم مرت العربة عدة مرات فوق جسور صغيرة حيث كان الماء يندفع تحتها بسرعة كبيرة محدثاً صوتاً كبيراً . شعرت ماري وكأن الرحلة لن تصل الى النهاية ، والسبخة الموحشة الكئيبة كانت كالمحيط الواسع الأسود تعبره على شريط من الأرض الجافة .

قالت لنفسها : « لم أحبها ، لم أحبها » . ثم شدت على شفتيها الرقيقتين معاً بشدة .

كانت الخيل تتسلق جزءاً منحدراً من الطريق عندما لمحت اول ضوء . وفي نفس الوقت رات السيدة ميدلوك الضوء أيضـاً فتنهدت طويلا معبرة عن ارتياحها .

قالت متعجبة « حسناً ، إنني سعيدة لرؤية ذلك الضوء وهو يشع ، إنه ضوء نافذة بيتنا . وفي تل الأحوال سنتناول فنجاناً لذيذاً من الشاي بعد قليل » .

وبعـد قليل ، كما قالت السـيدة ميدلوك ، عبرت العربـة بوابة الحديقـة . كان هنـاك ممر طوله ميلان والأشجار ( التي تكاد تمس الرؤوس ) تجعله يبدو وكأنه سرداب طويل مظلم تمر من خلاله .

عندما خرجوا من الممر كانت امامهم فسحة مضيئة . فتوقفوا امام بيت طويل جداً . ولكنه غير مرتفع ويبدو انه محيط بقصر صنع من الحجر . وفي بادىء الأمر ظنت ماري أن لا توجد أنوار في النوافذ على الاطلاق ولكن عندما خرجت من العربة لاحظت ان غرفة واحدة في الزاوية العليا يوجد فيها ضوء خافت .

كان باب المدخل ضخماً ومصنوعاً من خشب السنديان بطريقة غريبة وقد سمر بمسامير حديدية كبيرة وتحيط به قضبان حديدية ضخمة . ويؤدي هذا الباب الى قاعة كبيرة مضاءة بصورة خافتة حيث الوجوه الموجودة في اللوحات على الجدران وهي ترتدي الدروع ، مما جعل ماري تشعر بعدم الرغبة في النظر إليها . وبينما هي تقف على الأرض الحجرية ، كانت تبدو صغيرة جداً ذات جسم صغير أسود ، ثم شعرت بنفسها انها صغيرة وضائعة تماماً كما كانت تبدو .

وبالقرب من البواب الذي فتح لهم الباب وقف رجل عجوز نحيل وانيق .

قال للسيدة ميدلوك بصوت اجش : « خذيها الى غرفتها ، فهو لا يريد رؤيتها لأنه ذاهب الى لندن في الصباح » .

أجابت السيدة ميدلوك : « حسناً يا سيد بيتشر ، أعتقد أنني اعرف ما هو المطلوب مني وأستطيع تدبر الأمر . »

قال السيد بيتشر : « إن ما يتوقعه منك ايتها السيدة ميدلوك . هو أن تتأكدي من عدم ازعاجه وأن لا يرى ما لا يرغب في رؤيته » . بعد ذلك قادت السيدة ميدلوك ماري عبر درج عريض ثم الى ممر طويل يليه صعود عدة درجات قصيرة ثم عبر ممر وآخر ، ثم فتحت باباً فوجدت ماري نفسها في غرفة فيها مدفأة والعشاء موجود على الطاولة .

قالت السيدة ميدلوك دون مجاملة : « حسناً ها انت هنا ! هذه الغرفة والغرفة المجاورة هما المكان الذي ستعيشين فيه وعليك الالتزام بهما . لا تنسي ذلك . »

وبهذه الطريقة وصلت الآنسة ماري الى ميسلثويت مانور ، وربما لم تشعر في حياتها بشعور متناقض مثلما كانت تشعر فيه ذلك الوقت .

## ٤ ـ مارثا

في صباح اليوم التالي فتحت ماري عينيها عندما دخلت خادمة شابة غرفتها لتشعل النار ، كانت جاثية على ركبتيها فوق سجادة الموقد تجمع الرماد وتحدث ضجة . استلقت ماري وراحت تراقبها لمدة دقائق ثم اخذت تنظر الى الغرفة . لم تر غرفة مثلها على الاطلاق ، لقد كانت غريبة ومظلمة . كانت الجدران مغطاة بسجادة مطرزة بمنظر غابة ، وتحت الأشجار أشخاص يرتدون ملابس غريبة ، وعن بعد يمكن رؤية ابراج القصر . وهناك ايضاً صيادون وخيل وكلاب وسيدات . لقد شعرت ماري وكأنها معهم في الغابة . واستطاعت ان ترى من خلال نافذة عميقة أرضاً ممتدة مرتفعة كبيرة ، ليس فيها أشجار ، تبدو وكأنها بحر ارجواني باهت لا نهاية له .

« ما هذا ؟ » قالت ماري وهي تشير الى النافذة .

نظرت مارثا ، الخادمة الشابة ، بعد أن وقفت على قدميها مشيرة هي أيضاً ثم قالت : هذا الذي هناك ؟

« نعم » أجابت ماري .

قالت مارثا بصوت بهيج : « هذه هي السبخة ، هل اعجبتك ؟ »
اجابت ماري : « لا ، إنني أكرهها . »

قالت مارثا وقد عادت الى الموقد : « لأنك لم تألفيها ، إنك تظنين انها كبيرة جداً وجرداء ، ولكنك ستحبينها . »

سألت ماري : « هل تحبينها ؟ »

أجابت مارثا مشرقة تريد التخلص من الموقد : « نعم احبها . لقد أحببنها . فهي ليست جرداء بل مغطاة بنباتات ذات رائحة طيبة . إنها جميلة جداً في الربيع والصيف عندما تنبت الوزال والرتم ويزهر الخلنج . . إن رائحتها كالعسل ، وهواؤها دائماً منعش للغاية ، والسماء تبدو عالية والنحل والقبرات تطن وتغني بصوت جميل" . فأنا لا أستطيع العيش بعيداً عن السبخة أيا كان السبب » .

استمعت ماري لها وعلى وجهها تعابير رزينة ومرتبكة . فالخدم الهنود الذين اعتادت عليهم في الهند ليسوا كذلك على الإطلاق . لقد كانو خنوعين ومستسلمين للعبودية ، ومن غير المألوف أن يتحدثوا الى سادتهم وكأنهم مساوون لهم . إنهم يقدمون التحية لسادتهم بعبارة « حماة الفقراء » . أو أسماء تشبه ذلك . والمطلوب منهم تنفيذ أعمال دون أن يطلب منهم ذلك ولم تجر العادة أن تقول لهم « من فضلك » أو « شكراً لك » ، لقد كانت ماري تصفع مربيتها على وجهها عند تغضب . أما الآن فقد أخذت تفكر ماذا يمكن ان تفعل هذه الفتاة إذا ضربها أحد على وجهها .

كانت مارثا ذات وجه مستدير وردي ، ذات نظرات ودودة ولكنها تبدو قوية ، مما جعل الآنسة ماري تفكر هل سترد هذه الخادمة الصفعة إذا كان الشخص الذي يضربها فتاة صغيرة .

قالت ماري بكبرياء وهي تضع راسها على وسادتها : أنت خادمة غريبة !

وقفت مارثا على كعبيها وفي يدها فرشاة الموقد وأخذت تضحك ، دون أن تخرج عن طورها .

وقالت : « حسناً ! أعلم ذلك . ولو كانت هناك سيدة في ميسلثويت فسأكون حتى اقل من خادمة . ولربما كنت خادمة في حجرة غسل الأطباق ، ولن يسمح لي بالصعود الى الغرف . إنني لست مهذبة واتكلم بلهجة يوركشاير . ولكن هذا البيت عجيب رغم حجمه الكبير . ويبدو وكأنه لا يوجد سيد او سيدة فيه عدا السيد بيتشر والسيدة ميدلوك . اما السيد كريفن فهو لا يزعج نفسه بشيء عندما يكون في البيت ، وهو مسافر على الأغلب . لقد منحتني السيدة ميدلوك هذا المكان لطفاً منها ، وقالت لي إنها لم يكن بإمكانها فعل ذلك لو كان ميسلثويت مثل غيره من البيوت الكبيرة » .

سألتها ماري بطريقتها المتعالية الهندية :« هل ستكونين خادمتي»؟

بدات مارثا تفرك حاملة النار ثانية .

قالت مارثا بجراة : « انا خادمة السيدة ميدلوك ، وهي خادمة السيد كريفن ــ ولكنني أقوم بالأعمال الخاصة بهذا المكان وسأهتم بك قليلاً ، ولكنك لست بحاجة لكثير من الاهتمام » .

سألت ماري : ( ومن سيقوم بمساعدتي لارتداء ملابسي ؟ )

وقفت مارثا ثانية على كعبيها وهي تحدق ، واخذت تتحدث بلهجة يوركشاير العريضة وهي مذهولة ، قائلة : « أليس بإمكانك أن ترتدي ملابسك وحدك ؟ »

قالت ماري : « ماذا تقصدين ؟ لم أفهم لغتك » .

قالت مارثا ( بعد أن عدلت لهجتها ) : « حسناً لقد نسيت ،في حين قالت لي السيدة ميدلوك بأنني يجب أن أكون حذرة وإلا فلن تفهمي ما أقول . أقصد أليس بإمكانك ارتداء ملابسك » ؟

اجابت ماري بسخط : ( لم افعل ذلك في حياتي . فقد كانت مربيتي هي التي تفعل ذلك ) .

قالت مارثا غير مدركة لوقاحتها ابداً : ( حسناً . لقد حان الوقت كي تتعلمي . كان يجب أن تبدئي بصورة مبكرة اكثر . وسيكون من المفيد لك الاعتماد على نفسك . كانت أمي تقول دوماً بأنها لا ترى ما يمنع من ان يصبح ابناء الطبقة الارستقراطية حمقى – بسبب ملازمتهم للمربيات اللواتي يقمن بالعناية بالأطفال وإلباسهم واصطحابهم في نزهة وكأنهم دمى ! ) .

قالت ماري بازدراء : ( الأمر مختلف في الهند ) ولم تعد تتحمل الوضع .

ولكن مارثا لم تكترث على الإطلاق . بل اجابت بنظرة ودية : ( حسنا ! من الواضح انه مختلف ، واستطيع قول ذلك نظراً لوجود عدد كبير من السود هناك ، بدلاً من البيض المحترمين . وعندما سمعت بأنك قادمة من الهند ظننت انك سوداء أيضاً ) .

جلست ماري في السرير وهي غاضبة ، وقالت : «ماذا ! هل ظننت انني من السكان المحليين . انت ابنة الخنزير ! » .

حدقت مارثا بها وبدا عليها الغضب . ثم قالت : « ومن انتِ حتى تشتميني، يجب أن لا تثوري لهذه الدرجة . فهذه ليست طريقة للحديث بالنسبة لسيدة صغيرة . وأنا لست ضد السود . وعندما تقرئين عنهم سترين انهم أناس أتقياء دوماً . وتقرئين دوماً أن الرجل الأسود كالأخ. لم أرَ في حياتي أسود ، ولهذا كنت مسرورةً بأنني سأرى واحداً عن قرب . وعندما أتيت لأشعل النار في موقدك هذا الصباح زحفت نحو سريرك ووسحبت الغطاء بعناية حتى أراك . وها أنت ، لسوء الحظ ، لست سوداء ، بل شقراء » .

لم تستطع ماري ضبط هياجها وخزيها : « ظننت انني من السكان المحليين ! وتجرات على ذلك ! انت لا تعلمين شيئاً عنهم ! إنهم ليسوا اناساً ــ بل خدماً وعليهم تقديم الطاعة لك ، فانت لا تعرفين شيئاً عن الهند ولا عن اي شيء آخر ! »

لقد كانت في حال هياج وكانت تشعر باليأس امام نظرة مارثا الساذجة ، وفجأة شعرت بالوحدة الفظيعة ، وانها بعيدة عن اي شيء تفهمه ويفهمها . مما جعلها تضع وجهها على الوسادة وتنفجر في نوبة بكاء انفعالية . . وظلت تبكي دون توقف مما جعل فتاة يوركشاير الطيبة تخاف قليلاً وتشعر بالأسى عليها . فذهبت الى سريرها وانحنت فوقها .

ثم اخذت ترجوها ، « يجب أن لا تبكي هكذا بالتأكيد ! لم اكن أعلم ان هذا يزعجك . فأنا كما قلت لا أعلم اي شيء عن أي شيء . تماماً كما قلت عذراً أيتها الآنسة . توقفي عن البكاء » .

كان حديث مارثا بلهجة يوركشاير وطريقتها الثابتة مريحاً وودياً مما كان له تأثير جيد بالنسبة الى ماري . فتوقفت تدريجياً عن البكاء وهدأت . ويبدو أن مارثا قد ارتاحت فقالت لها :

« حان الوقت أن تنهضي من السرير الآن . لقد قالت لي السيدة ميدلوك أن احضر لك فطورك والشاي والعشاء الى الغرفة المجاورة . فهي قد خصصت الغرفة لك . وسأساعدك في لبس ثيابك إذا كانت أزرارك من الخلف فلن تستطيعي إقفالها بنفسك » .

وعندما قررت ماري أن تنهض من سريرها أخيراً ، وجدت أن الثياب التي أخرجتها مارثا من الخزانة لم تكن هي نفس الثياب التي كانت ترتديها عندما وصلت في الليلة الماضية بصحبة السيدة ميدلوك.

قالت ماري : « هذه ليست ثيابي ، ثيابي كانت سوداء » .

ونظرت الى المعطف الصوفي الأبيض السميك والثوب واضافت بقبول فاتر : « هذه اجمل من ثيابي ! »

اجابت مارثا : « يجب أن ترتدي هذه . لقد طلب السيد كريفن من السيدة ميدلوك ان تحضرها لك من لندن . فقد قال السيد كريفن : « إنني لن أدع طفلة تتجول كالروح الضائعة بملابس سوداء . لأن ذلك سيجعل هذا المكان اكثر حزناً مما هو عليه. يجب أن تلبس ثياباً ملونة». وكما قالت أمي فإنها تعلم ماذا يعني السيد كريفن ، فهي تفهم دوماً ما يقال . وهي نفسها لم تستمر في لباسها الأسود » .

قالت ماري : ( إنني أكره الأشياء السوداء ) .

اما عملية ارتداء الملابس فقد أعطت درساً لكليهما . لقد سبق أن قامت مارثا بإقفال ازرار اخواتها وإخوتها الصغار ، ولكنها لم ترَ أبداً طفلة تقف دون حراك وهي تنتظر شخصاً آخر ليضعِ لها أشيائها ، وكأن ليس لها يدين أو قدمين .

عندما مدت ماري قدمها بهدوء قالت مارثا : « لماذا لا تلبسين حذاءك بنفسك » ؟

اجابت ماري وهي تحدق : « مربيتي كانت تفعل ذلك . وهذه هي العادة » .

كانت ماري تكرر عبارة « هذه هي العادة » دوماً — لأن الخدم المحليون كانوا يقولون ذلك دوماً . فإذا طلب الى احد منهم عمل شيء ما حتى ولو لم يكن يفعله الأجداد منذ الف سنة ، فإنهم ينظرون بلطف ويقولون هذه هي العادة ، وكان الواحد منهم يعلم بأن الأمر قد قضي .

وليس من المعتاد أن تفعل الآنسة ماري أي شيء سوى أن تقف حتى يقوم الآخرون بإلباسها مثل الدمية ، ولكن قبل أن تذهب لتناول

طعام الإفطار بدات تساورها الشكوك بأن حياتها في ميسلثويت مانور ستنتهي بتعلمها اشياء كثيرة جديدة عليها تماماً : كأن ترتدي حذاءها وجواربها وأن تتناول الأشياء التي تسقط منها . ولو كانت مارثا خادمة شابة مدربة تدريباً حسناً لكانت اكثر إذعاناً واحتراماً ، ولعرفت بأن واجبها ان تمشط الشعر وتقفل الازار وتلتقط الأشياء . وعلى اي حال لم تكن مارثا إلا فتاة ريفية من بوركشاير غير مؤهلة ، فقد نشأت في كوخ قرب السبخة مع حشد من الإخوة والأخوات لم يحلموا قط بأن يفعلوا شيئاً سوى أن يهتم كل فرد منهم بنفسه وبمن هو اصغر منه سواء كان رضعياً يحمل او كان قد بدأ يحبو ويتعثر فوق الاشياء . ولو كانت ماري لينوكس طفلة على استعداد للتسلية . فلربما ضحكت لاستعداد مارثا للحديث ، ولكن ماري كانت تستمع لها ببرود وتستغرب طريقتها المفتوحة . في بادىء الأمر لم تهتم على الاطلاق ولكنها بدات تدريجياً تهتم بما تقوله مارثا التي استمرت بالثرثرة بطريقتها اللطيفة المألوفة . قالت مارثا : لا بد أن تشاهديهم جميعاً ، فنحن إثنا عشر فرداً إضافة الى والدي الذي يتقاضى ستة عشر سلناً في الاسبوع . واستطيع أن أقول لك بأن أمي قادرة على صنع الثريد لكل أفراد العائلة . وهم يتشقلبون ويلعبون طوال النهار في السبخة ، وتقول أمي بأن الهواء هناك يعطيهم الصحة ، وتعتقد بأنهم يأكلون الحشائش كالخيول البرية . اما أخي ديكون الذي له من العمر أثنا عشر عاماً فعنده فرس بري صغير ويدعي أنه له .

سألت ماري : « من أين حصل عليه » .

أجابت مارثا « وجده في السبخة مع أمه عندما كان صغيراً ، وبدا يعقد صداقة معه ويطعمه كسرات من الخبز وينتزع بعضاً من العشب له . وقد أحبه الفرس وصار يسمح له بالركوب على ظهره . فالأطفال والحيوانات تحب ديكون .

لم تحصل ماري في حياتها على حيوان اليف خاص بها ، وكانت تفكر دوماً بانه يجب ان يكون لديها حيوان اليف ولهذا فقد بدأت تشعر ببعض الاهتمام بالنسبة الى ديكون . وبما أنها لم تكن تهتم مطلقاً بأحد سوى نفسها ، فإن شعورها الجديد يعتبر بداية شعور سليم . وعندما دخلت الغرفة المخصصة لها لقضاء وقتها وجدتها اشبه بالغرفة التي نامت فيها . لم تكن غرفة أطفال وإنما غرفة شخص راشد ، وعلى جدرانها صور قديمة قاتمة وكراس من خشب السنديان العتيق الثقيل . وفي وسط الغرفة طاولة عليها طعام إفطار جيد عامر . ولكن شهيتها للطعام كانت قليلة على الدوام ، وقد نظرت دون مبالاة على الاطلاق لاول صحن وضعته أمامها مارثا .

قالت « لا أريده » .

تساءلت مارثا بسذاجة انت لا تريدين الثريد .

كلا .

« انت لا تعرفين كم هو مفيد . ضعي قليلا من القطر أو السكر فوقه »

قالت ماري ثانية « أنا لا اريده »

حسناً قالت مارثا « لا أستطيع تحمل رؤية طعام جيد يرمى مع النفايات . ولو كان أطفالنا على هذه الطاولة لتركوها خالية خلال خمس دقائق » .

سألت ماري ببرود لماذا .

صرخت مارثا لماذا ! لأنه نادراً ما امتلأت معدتهم خلال حياتهم . إنهم جياع مثل صغار الصقور والثعالب .

اجابت ماري بشيء من اللامبالاة والجهل . لا اعلم كيف يكـون الجـوع .

بدا على مارثا السخط . « حسناً ، من المفيد لك أن تجربيه . انني اری ذلك بوضوح » ، وتابعت كلامها بصراحة « انني لا احتمـل الناس الذين يجلسون ويحدقون بالخبز واللحم الجيد . يا إلهي ! كم أتمنى لو أن ديكون وفيل وجين والآخرين حتى يحملوا الطعام الموجود ويختبئونه تحت مرابيلهم .

اقترحت ماري « لماذا لا تأخذين الطعام لهم » .

اجابت مارثا بجرأة ، إنه ليس لي ، واليوم ليس يوم اجازتي . لدي إجازة يوم واحد في الشهر مثل البقية .

تناولت ماري بعض الشاي واكلت قطعة صغيرة من الخبز المحمص وبعض المربى .

قالت مارثا : « ارتدي ملابس دافئة واسرعي لتلعبي في الخارج ، فهذا مفيد لك ويفتح نفسك كي تتناولي بعض اللحم » .

ذهبت ماري الى النافذة . كانت هناك حدائق وممرات وأشجار كبيرة . ولكن كل شيء كان يبدو فيه ملامح الشتاء .

في الخارج ؟ ولماذا يجب ان اخرج في يوم كهذا .

حسناً ، إذا لم تخرجي فإنك ستبقين هنا ، وماذا ستفعلين ؟ .

نظرت ماري حولها . لم يكن هناك شيء يمكن أن تفعله فعندما هيأت السيدة ميدلوك الغرفة لم تفكر بموضوع التسلية . وربما كان مـن الأفضل أن تخرج وترى الحدائق .

سألت ماري « ومن سيذهب معي » .

أجابت مارثا وهي تحدق « يجب ان تتعلمي اللعب كما يفعل بقية الأطفال الذين ليس لديهم اخوة واخوات . إن ديكون يذهب الى السبخة وحده ويلعب لساعات . وبهذه الطريقة كوّن صداقته مع الفرس . وعنده خروف في السبخة يعرفه ، والطيور تأتي وتأكل من يده . وفي كل الأحوال لا يوجد الكثير ليأكلوا ، فهو يقوم دوماً بتوفير قطعة من خبزه ليلاطف حيواناته الأليفة بها .

إن ذكر اسم ديكون هو في الحقيقة الذي جعل ماري تقرر الخروج رغم أنها لم تكن مدركة لذلك . فسيكون هناك عصافير في الخارج ، وإن لم يكن هناك خيول أو أغنـام . وستكون الطيور مختلفة عن الطيور الموجودة في الهند ، وسيسرها النظر إليها .

قامت مارثا بالبحث عن معطفها وقبعتها وجزمة صغيرة وأرشدتها الى الطريق للطابق الأسفل . وقالت لها مشيرة الى بوابة في حائط مغطى بالشجيرات « إذا ذهبت في هذا الاتجاه فستصلين الى الحدائق وفي الصيف سيكون هناك الكثير من الأزهار ، أما الآن فلا يوجد شيء مزهر » . ترددت مارثا لمدة ثانية ثم تابعت « إحدى الحدائق مقفلة . ولم يدخلها أحد منذ عشر سنوات » .

سألت ماري رغماً عنها « ولماذا ؟ . فهذا باب آخر مقفل بالاضافه للغرف المائة في هذا البيت الغريب » .

أجابت مارثا « لقد أغلقه السيد كريفن عندما توفيت زوجته فجأة . ولم يدع أحداً يدخل الحديقة لأنها كانت حديقتها . أقفل الباب ودفن المفتاح داخل حفرة . هذا هو جرس السيدة ميدلوك ـ يجب أن أذهب» .

وبعبد أن ذهبت استدارت ماري باتجاه الممر الذي يؤدي الى الباب الموجود بين الشجيرات . وسيطر على تفكيرها موضوع الحديقة التي لم يدخلها أحد منذ عشر سنوات .

كانت تفكر كيف يمكن أن تكون تلك الحديقة ، وفيما إذا كان فيها ازهار لاتزال حية أم لا . وعندما عبرت البوابة وجدت نفسها في حديقة كبيرة ذات مروج واسعة وممرات ملتوية وأسوار بأشكال غريبة ، وبحره كبيرة في وسطها نافورة قديمة رمادية .

والكن أحواض الأزهار كانت عارية بسبب الشتاء ، ولم تكن النافورة تعمل . ولم تكن هذه بالطبع الحديقة المغلقة . كيف يمكن إغلاق حديقة ؟ يمكن السير دوماً في الحديقة . هذا ما كانت ماري تفكر به عندما رأت في نهاية الممر الذي كانت تسير به حائطاً طويلاً تسلق عليه نبات اللبلاب.

لم تكن ماري تعرف انكلترا بصورة جيدة لهذا لم تعرف أنها كانت تسير باتجاه حديقة المطبخ حيث تزرع الخضار والفاكهة . اتجهت نحو الجدار فوجدت أن هناك باباً أخضر مفتوحاً داخل اللبلاب ولم نكن هذا هو الباب المغلق ، ومن الواضح أنها تستطيع دخوله .

دخلت الباب فوجدت أنها حديقة ذات جدران ، وهي ليست إلا واحدة من عدة حدائق مسورة بجدران وكل واحدة تؤالى الاخرى ، ثم رأت باباً آخر أخضر مفتوحاً استطاعت أن ترى من خلاله شجيرات وممرات بين الأحواض مليئة بالخضار الشتوية . كانت أشجار الفاكهة تنتشر على طول الحائط ، وفوق بعض الأحواض توجد قواعد زجاجية.. كان المكان عارياً وقبيحاً جداً ، وبينما وقفت ماري تحدق بالمكان أخذت تفكر كم سيكون أجمل في الصيف عندما يكون كل شيء أخضر ، أما الآن فلا يوجد في الحديقة منظر جميل .

في تلك اللحظة دخل من الباب ــ قادماً من الحديقة الثانية ــ رجل عجوز يحمل مجرفته على كتفه . دهش الرجل عندما رأى ماري ثم وضع يده على قبعته . كان وجهه بالتأكيد وجه رجل مسن ولم يكن مسروراً لرؤيتها ــ وبالتالي لم تكن ماري مسرورة في حديقته . وكانت تعابيرها تدل على ذلك .

سألت ماري : « ما هذا المكان » ؟

اجاب الرجل : « إنها حديقة المطبخ » .

أشارت ماري الى الباب الأخضر وسألت « ما هذا » ؟

اجاب باقتضاب : « باب آخر ، وهناك أيضاً باب في الجانب الآخر من الحائط ، وفي ذلك الجانب توجد حديقة الفاكهة » .

سألت ماري : « هل أستطيع الدخول اليها » ؟

أجابها : « بإمكانك الدخول إذا رغبت بذلك ، ولكن لا يوجد شيء يستحق المشاهدة » .

لم تستجب ماري بل سارت عبر الممر ثم الى الباب الأخضر الثاني فوجدت جدراناً وخضاراً شتوية وبيوتاً زجاجية ، ولكن في الحائط الثاني كان هناك باب أخضر آخر مغلق . وربما كان هذا الباب هو الذي يؤدي الى الحديقة التي لم يرها أحد منذ عشر سنوات . وبما أنها كانت طفلة لا تخاف أبداً ، وكانت دوماً تفعل ما تريده ، فقد ذهبت الى الباب الأخضر وأدارت قبضته ، وكانت تتمنى أن لا يفتح ، لأنها كانت تريد التأكد من أنها قد وجدت الحديقة الغامضة ولكن الباب فتح بسهولة ودخلت منه لتجد نفسها في حديقة للفاكهة كانت الجدران تحيط بها والأشجار تميل على الجدران ، وأشجار الفاكهة عارية تماماً بسبب

الشتاء ـ ولم تر باباً أخضر في أي مكان ـ بحثت ماري عن الباب . فذهبت الى الجانب البعيد من الحديقة ورات ان الحائط لا ينتهي بحديقة الفاكهة ، بل يمتد أبعد من ذلك وكأنه يحيط بمكان من الجانب الآخر . واستطاعت أن ترى رؤوس الأشجار التي تعلو الحائط وعندما وقفت ساكنة رات طائراً ذا صدر احمر متألق يقف على أعلى غصن لإحدى الاشجار ، وفجأة علا صوت الطائر بأغنيته الشتوية ـ وكأنه قد رآها ويريد أن يناديها .

وقفت ماري وراحت تستمع له ، لقد أعطاها صوته المشرق الودود احساساً بالسرور الى حد ما . وحتى الطفلة السيئة الطبع يمكن أن تشعر بالوحدة ، فقد جعلها البيت الكبير المغلق والسبخة الجرداء الواسعة والحدائق الكبيرة العارية ، كل هذا جعلها تشعر بأنه لم يبق في العالم سواها ، ولو كانت طفلة عاطفية اعتادت ان يحبها الآخرون لتحطم قلبها ، ورغم أن الآنسة ماري كانت مشاكسة حقاً ، فقد كانت تشعر بالكآبة ، إلا أن الطائر الصغير ذا الصدر المتألق قد رسم على وجهها النكد الصغير نظرة تشبه الابتسامة . وراحت تستمع إليه حتى طار بعيداً . لم يكن ابو الحناء مثل الطيور الهندية ، لقد احبته وتساءلت فيما إذا كانت ستراه ثانية . وربما كان يعيش في الحديقة الغامضة ويعرف كل شيء عنها .

أما السبب في تركيز تفكيرها على الحديقة المهجورة فلربما كان هو عدم انشغالها بأي شيء على الاطلاق . كانت الحديقة تثير فضولها وتريد أن ترى ماشكلها ولماذا دفن السيد أرشيبالد كريفن المفتاح ؟ إذا كان يحب زوجته كثيراً فلماذا يكره حديقتها ؟ تساءلت ماري فيما إذا كانت سترى السيد كريفن ، ولكنها كانت تعلم أنها إذا رأته فلن تحبه ولن يحبها هو أيضاً وكل ما يجب أن تفعله هو أن تحدق به دون أن تنبس ببنت شفة بالرغم من رغبتها الجامحة في سؤاله عن السبب الذي جعله يقوم بهذا العمل الغريب .

اخذت ماري تفكر : « الناس لا يحبوني وانا لم احب احداً على ولا أستطيع التحدث مثل اطفـال كراوفورد . لقد كانوا يتحـدثون ويضحكون ويثيرون الضجة .

ظلت ماري تفكر بطائر ابي الحناء والطريقة التي غنى لها بهـا ، وتذكرت أعلى الشجرة التي حط عليها فتوقفت في الممر فجأة .

قالت ماري : « اعتقد أن تلك الشجرة كانت في الحديقة السرية — وانا متأكدة من ذلك . فهناك جدار حول المكان ولا يوجد باب » .

عادت ماري إلى حديقة المطبخ الاولى التي دخلتها فوجدت الرجل العجوز يحفر هناك . سارت ووقفت الى جانبه تراقبه لعدة دقائـق بطريقتها الباردة الصغيرة . لم يعرها أي اهتمام ، ولذلـك بادرتـه اخيراً قائلة :

« لقد دخلت إلى الحدائق الأخرى » .

أجابها بصورة فظة : « ليس هناك ما يمنعك من ذلك » .

« دخلت حديقة الفاكهة » .

أجابها : « لا يوجد كلب أمام الباب ليعضك » .

قالت ماري : « لايوجد باب للحديقة الأخرى » .

« اية حديقة » : قال الرجل بصوت خشن ، وقد توقف عن الحفر لمـدة دقيقـة .

أجابت ماري : « تلك التي في الطرف الآخر من الجدار ، حيـث يوجد أشجار ، تمكنت من رؤية رؤوسها . وكان على إحدى الشجرات طائر ذو صدر أحمر . وقد غنى » .

دهشت ماري عندما تغيرت تعابير وجه الرجل العجوز الهرم فبدت بصورة مختلفة . مما جعلها تفكر كم هو ملفت للنظر فالإنسان يبدو بصورة أجمل عندما يبتسم ، ولم تكن تفكر بذلك من قبل .

استدار باتجاه مكان الفاكهة من الحديقة وأخذ يصفر ـ بصوت منخفض وناعم . ولم تفهم كيف أن مثل هذا الرجل الواثق من نفسه يستطيع أن يصنع مثل هذا الصوت الطيف .

وبعد دقيقة تقريبا حدث شيء رائع ، لقد سمعت طيراناً ناعماً يندفع عبر الهواء ـ إنه الطائر ذو الصدر الأحمر قادم إليهم ، لقد حط فعلاً على كومة من التراب قرب قدم البستاني .

ضحك الرجل لعجوز قائلاً : « ها هو » ثم بدأ يحدث الطائر وكأنه يتحدث الى طفل صغير : « اين كنت أيها المتسول الصغير الممتلىء الخدين ؟ لم أرك اليوم . هل بدأت غزلك مبكراً في هذا الفصل ؟ لقد بدأت بصورة مبكرة جداً .

أدار الطائر رأسه الصغير جانبا ونظر إليه بعينه اللامعة اللطيفة التي تشبه قطرة الندى السوداء . كان ودوداً للغاية وغير خائف على الإطلاق . فقفز وأخذ يلتقط بعض البذور من التربة برشاقة وهو يبحث عن بعضها الآخر . هذا المنظر جعل ماري تحس بشعور غريب في قلبها لقد كان جميلاً ومشرقاً للغاية وكأنه إنسان . كان جسمه صغيراً وممتلئاً وله منقار رقيق وساقان نحيلتيان ورقيقتان .

سألت ماري بهمس : « هل يأتي دوماً عندما تناديه » ؟

أجاب البستاني : « نعم يأتي ، لقد عرفته منذ أن كان فرخاً لقد خرج من عشه في الحديقة الثانية ، وعندما طار لأول مرة عبر الحائط كان ضعيفاً لدرجة إنه لم يتمكن من العودة ثانية لعدة أيام ، وهكذا أصبحنا أصدقاء . وعندما عاد من فوق الحائط ثانية كانت بقية الفراخ الموجودة في العش قد غادرت ، فصار وحيداً وعاد إلي » .

سألت ماري : « مانوع هذا الطائر » .

أجابها : « الا تعرفين ؟ إنه ابو الحناء ذو الصدر الأحمر ، وهـذا النوع هو اكثر الطيور وداً وفضولاً . إنها ودودة مثل الكلاب ـ إذا عرفت كيف تتعاملين معهم . انظري اليه وهو يلتقط الطعام من حوله وينظر إلينا بين الحين والآخر . إنه يعلم أننا نتحدث عنه .

كانت رؤية هذا الرجل العجوز من أغرب الأشياء في العالم ؛ وهو ينظر إلى الطائر الممتلىء الصغير ذي الصدر الأرجواني ، بفخر وإعجاب .

ضحك الرجل بصوت منخفض قائلاً : « إنه طائر مغرور ، ويحب أن يرى الناس وهم يتحدثون عنه . أما بالنسبة لفضوله فلا يوجد أحد مثله ، فهو يأتي دوماً ليرى ماذا ازرع . ويعرف كل الأشياء بحيث ان السيد كريفن لايتعب نفسه في البحث عنها . وإنه فعلاً رئيس العاملين في الحديقة .

أخذ أبو الحناء يقفز من مكان الى آخر ويلتقط من التربة مابحلوله ، ويقف بين الحين والآخر وهو ينظر إليهما قليلاً . ظنت ماري أن عينيه السوداوين كحبات الندى ترمقها بفضول كبير . وفي الواقع يبدو وكأنه قد فهم كل شيء عنها . فازداد الشعور الغريب في داخلها .

سألت ماري إلى اين طارت باقي الفراخ ؟

أجابها الرجل العجوز : « لا أحد يدري . لقد أخرج الأبوان الفراخ من العش حتى تتعلم الطيران ، وتفرقت تلك الفراخ دون أن نعلم . أما هذا الطائر فقد تعرف إلي وأيقن أنه اصبح وحيداً .

اقتربت ماري من ابي الحناء خطوة ونظرت إليه بحدة قائلة : « إنني وحيدة » لم تكن ماري تعلم أن وحدتها هي أحد الأسباب التي جعلتها تشعر بالنكد والغضب . ويبدو أنها اكتشفت ذلك عندما نظر اليها الطائر ونظرت إليه .

انتزع البستاني العجوز قلنسوته عن راسه الاصلع وحدق بها لمدة دقيقـة :

« هل انت الطفلة الصغيرة القادمة من الهند » .

أومأت ماري برأسها .

فأجابها « لا غرابة في كونك وحيدة ، ستشعرين بالوحـدة اكثر فيمـا بعـد » .

وأخذ يحفر ثانية ويغرس مجرفته عميقاً داخل تربة الحديقةالسوداء الغنية ، بيتما كان أبو الحناء يقفز من مكان الى آخر وهو منشغل في التقاط طعامه .

سألت ماري « ما اسمك » ؟

نهض البستاني واقفاً ليجيبها ، ثم ابتسم قائلاً :

« بن ويذرستاف ، وانا كذلك أشعر بالوحدة ، عدا الوقت الذي يكون فيه هذا معي » ورفع إصبعه مشيراً الى أبي الحناء « انه الصديق الوحيد لدي » .

قـالت ماري « ليس لدي أصـدقاء على الاطلاق ، ولم يكن لدي اصدقاء . لم تكن مربيتي تحبني ولم ألعب مع أحد أبداً » .

إن من عادة أهل يوركشاير أن يقولوا ما يفكرون به وبصراحة بليدة ، وبن ديذرستاف هو رجل من سبخة يوركشاير .

اضاف قائلا : « نحن الاثنان نشبه بعضنا كثيراً ، فطبيعتنا واحدة وكلانا قبيح ونكد . ولدينا نفس الطباع الكريهة . وأنا متأكد من ذلك .

كان حديثه صريحاً . فهي لم تسمع ماري من قبل حقيقة ذاتها في حياتها . كان الخدم المحليون يلقون السلام عليها وهم خاضعون ، مهما فعلت . لم تفكر أبداً بنظراتها ، ولكنها تساءلت فيما إذا كانت على هذا القدر من القباحة مثل بن ويذرستاف ، وكذلك فيما إذا كانت نكدة كما بدا لها قبل أن يأتي أبو الحناء . وقد بدأت بالفعل تتساءل فيما إذا كانت طباعها كريهة . وهذا الأمر جعلها تشعر بعدم الارتياح .

وفجأة صدر صوت تموج صغير واضح بالقرب منها فالتفتت حولها . كانت ماري تقف على بعد عدة أقدام من شجرة تفاح صغيرة ، لقد طار أبو الحناء الى أحد أغصانها وراح يغني مقطعاً من أغنيته . ضحك ابن ويذرستاف على الفور .

سألت ماري : « لماذا فعل ذلك » ؟

أجاب بن « لقد قرر أن يعقد صداقة معك . اظن انه قد أولع بك » .

قالت ماري « أولع بي » ؟ وتحركت بهدوء نحو الشجرة الصغيرة ونظرت الى أعلى .

وقالت للطائر : « ألا تصادقني ؟ » . وكانت تتحدث إليه وكأنه انسان . ولم تقل هذه الكلمات بصوت قاس ولا بصوتها الهندي المتعجرف ، ولكن بنفحة ناعمة متشوقة واللطيفة وبصورة أدهشت بن ويذرستاف كما أدهشتها عندما صار يصفر .

صاح بن « وكيف هذا ، لقد تحدثت بصورة لطيفة وكأنك طفلة فعلاً بدلاً من أن تقوليها كامرأة عجوز قاسية . قلت كلماتك مثلما يتحدث ديكون تقريباً الى حيواناته البرية في السبخة » .

فاستدارت ماري بسرعة وسألته : « وهل تعرف ديكون » ؟

اجابها : « الجميع يعرفون ديكون . فهو يتجول في كل مكان . إن توت العليق وأزهار الخلنج يعرفانه . وأنا متأكد أن الثعالب مستعدة أن تدله على صغارها ، وكذلك القبرات لن تخبىء أعشاشها عنه » .

كانت ماري ترغب في طرح أسئلة أكثر . لقد كانت فضولية بالنسبة الى ديكون كما كانت بالنسبة للحديقة المهجورة . ولكن في تلك اللحظة أنهى أبو الحناء أغنيته وصفق بجناحيه ثم نشرهما وطار بعيداً . لقد أنهى زيارته ولديه أشياء أخرى يجب أن يقوم بها .

صاحت ماري وهي تراقبه : « لقد طار فوق الجدار ! طار الى حديقة الفاكهة ــ وها هو قد طار فوق الجدار الآخر ــ الى الحديقة التي ليس لها باب » !

قال بن العجوز : « إنه يعيش هناك ، لقد خرج من البيضة هناك . وإذا كان يغازل فهو يبحث عن زوجة شابة تعيش معه على أشجار الورد هنــاك » .

سألت ماري : « أشجار الورد ، هل يوجد أشجار ورد » ؟

تناول بن ديدرستاف مجرفته ثانيــة وبدأ يحفر ، ثم راح يغمغم « توجد أشجار ورد منذ مائة سنة » .

قالت ماري : « أريد رؤيتها . أين الباب الأخضر ؟ لابد من وجود باب في مكان ما » .

دفع بن بمجرفته داخل الأرض وبدا غليظ المعشر كما رأته عندما شاهدته لأول مرة .

فأجاب « كانت هناك أشجار ورد منذ عشر سنوات ، ولكن لا يوجد الآن » .

صاحت ماري : « الا يوجد باب ؛ يجب أن يكون هناك باب » .

أجابها « لا يوجد باب يستطيع إنسان أن يجده . وهذا ليس من اختصاص أحد . لا تكوني فتاة فضولية وتحشرين انفك حيث يجب أن لا تفعلي . حسناً يجب أن أتابع عملي. اذهبي والعبي فليس لدي وقت» .

وتوقف بن فعلاً عن الحفر ورمى مجرفته فوق كتفه ومشى دون أن ينظر إليها وحتى دون أن يودعها .

# ٥ ـ البكاء في الممر

في باديء الأمر كان كل يوم يمر هو تماماً كسابقه بالنسبة الى ماري لينوكس . كانت تستيقظ كل صباح في غرفتها المفروشة فتجد مارثا جاثية أمام الموقد ، وفي كل يوم كانت تتناول طعام إفطارها في الغرفة المخصصة لها والخالية من كل ما هو ممتع ، ثم تقف بعد الافطار امام النافذة وهي تحدق عبر السبخة الواسعة ، والتي يبدو وكأنها تمتد الى كل الجوانب حتى وكأنها قد وصلت الى السماء ، وبعد أن تنظر فترة من الزمن تدرك انها اذا لم تخرج فستبقى في البيت دون أن تعمل شيئاً . ولذلك تقرر الخروج . ولم تكن تعلم بأن هذا هو افضل شيء يمكن أن تعمله دون أن تدري ، وعندما كانت تسير بسرعة أو تركض في الممرات وعبر المدخل كانت تحرك دمها البارد وهذا يجعلها أقوى حين تواجه الهواء الآتي من السبخة ، كانت تركض ليصبح جسمها دافئا وكانت تكره الهواء الذي يضرب وجهها ويزأر ويدفعها الى الخلف وكأنه عملاق لا تستطع رؤيته . ولكن النسمات الكبيرة من الهواء النقي الذي يهب فوق الخلنج كان يملأ رئتيها بشيء مفيد لكل جسمها النحيل ويضفي بعضاً من اللون الأحمر على وجنتيها ويجعل عينيها الغائرتين تلمعان دون أن تدري .

ولكن بعد أيام قليلة قضت معظمها خارج البيت ، استيقظت صباحاً وهي تعرف ما الشعور بالجوع وعندما جلست لتناول افطارها لم تنظر الى الثريد بازدراء ولم تدفعه جانباً ، بل تناولت الملعقة وبدأت تأكل منه فالتهمته حتى أتت على كل ما في الصحن .

قالت مارتا : « لقد تحسنت كثيراً لأنك اكلت الثريد هذا الصباح أليس كـذلك ؟ »

قالت ماري وهي مندهشة لهذا السؤال ! طعمه لذيذ اليوم .

اجابت مارثا إنه هواء السبخة الذي فتح شهيتك للطعام . أنت محظوظة لأن لديك الطعام وكذلك الشهية . أما في كوخنا فهناك اثنا عشر فرداً شهيتهم مفتوحة وليس لديهم شيء يأكلونه . وإذا استمريت في اللعب خارج البيت كل يوم فسيمتلىء جسمك ببعض اللحم ، ولن يكون لونك أصفر بعد ذلك .

قالت ماري : « إنني لا العب وليس لدي شيء ألعب به . »

ساءلت مارثا : « لاشيء لديك تلعبين به ! اطفالنا يلعبون بالقضبان والأحجار . إنهم يركضون ويصيحون وينظرون الى الأشياء .

لم تكن ماري تصرخ ولكنها كانت تنظر الى الأشياء ، ولا تفعل اكثر من ذلك . كانت تسير وتسير حول الحدائق وتتجول في ممرات الحديقة الكبيرة ، وتبحث أحياناً عن بن ويذرستاف ، ومع أنها رأته عدة مرات وهو يعمل ولكنه كان منهكماً بعمله لدرجة أنه لم ينظر اليها بل كان فظاً معها . وعندما مشت مرة نحوه ، حمل مجرفته واستدار وكأنه فعل ذلك عمـداً .

كان هناك مكان واحد تذهب إليه أكثر من غيره . وهو الممر الطويل خارج الحدائق والذي تحيط به الجدران ، حيث توجد أحواض أزهار عارية على الجانبين وعلى الجدار يتسلق اللبلاب بكثافة ، وفي مكان واحد من الجدار كانت الأوراق الخضراء الداكنة الزحفة أكثر من أماكن أخرى ويبدو ان هذا الجزء قـد أهمـل لفتـرة طويلة . أمـا باقي الأجزاء فقد قلمت وبدا منظرها انيقاً ، ولكن في هذا الجزء من الممر لـم تقلـم الأغصان ابداً وبعد عدة أيام من حديثها مع ويذرستاف ، توقفت ماري

لترى هذا المكان ، فاستغربت الوضع . وقفت برهة وهي تنظر الى الأعلى لترى غصنا طويلا من اللبلاب يهتز في الهواء . عندئذ رأت وميضاً قرمزياً وسمعت سقسقة طائر ، وهناك على أعلى الجدار وقف طائر بن ويذرستاف أبو الحناء ، ذو الصدر الأحمر وهو يمد رأسه الى الأمام من جهة واحدة حتى يراها .

صاحت ماري : آه ! هذا أنت ، هذا أنت ؟ ولم يكن امراً غريباً أن تتحدث معه على الاطلاق وكأنها على ثقة أنه سيفهم ويرد عليها . وقد أحابهـا فعلا .

أخذ يغرد ويسسق ويقفز على طوال الجدار ، وكأنه يقول لها أشياء وأشـياء .

ويبدو أن ماري فهمت عليه أيضاً رغم أن حديثه لم يكن كلمات . وكأنه يقـول :

صباح الخير ! أليس الجو لطيفاً ؟ أليست الشمس حلوة ؟ البس كل شيء جميلا ؟ فلنغرد ولنقفز ولنسسق معاً . تعالي ! تعالي !

بدأت ماري تضحك ، وبينما كان أبو الحناء يقفز ويطير قليلا على طول الجدار كانت ماري تركض خلفه . مسكينة ماري الصغيرة النحيلة الشاحبة البشعة ـ لقد بدت جميلة للحظة فعلا .

صاحت ماري « إنني أحبك ! اني أحبك ! وهد تدمدم وتقفز وتحاول أن تصفر لكنها لم تكن تعرف ابداً .ويبدو أن أبا الحناء كان مسروراً للغاية فرد عليها بالسقسقة والصفير . وأخيراً نشر جناحيه وطار الى أعلى الشجرة حيث حط وراح يغني بصوت مرتفع .

لقد تذكرت ماري أول مرة رأته فيها ، حين كان يتأرجح على رأس الشجرة ، وهي تقف في حديقة الفاكهة . والآن هي في الطرف الآحر من

الحديقة تقف في الممر خارج الحائط ــ وهو اخفض بكثير ــ والشـــجرة نفسها في الداخل .

قالت لنفسها : « إنها الحديقة التي لا يدخلها أحد ، والتي ليس لها باب . إنه يعيش فيها . كم أتمنى أن أعرف ماذا يوجد بداخلها ! »

ركضت مارى عبر الممر الى البـــاب الأخضر الذي دخلت منـــه في صباح أول يوم . ثم ركضت عبـــر الممر الى الباب الآخر ومـــن ثم الـــى حديقة الفاكهة . وعندما وقفت ونظرت الى الأعلـــى رأت تلك الشجرة في الجانب الآخر من الجدار . وكان أبو الحناء ينهي أغنيته ثم بدأ يسوي ريشه بمنقاره فقالت ماري :« إنها تلك الحديقة، وأنا متأكدة من ذلك ».

طافت حولها وراحت تمعن النظر. ولكنها لم تجد أكثر مما وجدته من قبل ــ لم يكن هناك باب ــ ثم ركضت عبر حديقة المطبخ ثانية ومنها الى الممر خارج الجدار المغطى باللبلاب . ثم سارت الى نهايته وأخذت تنظر إليه ، ولكنها لم تجد باباً ، ثم سارت الى النهاية الأخرى وهي تنظر دون أن تجد شيئاً .

قالت ماري : « من الغريب أن بن ديزرستاف قال بأنه يكـــن هناك باب ولا يوجد باب . ولكن قبل عشر سنوات لا بد أن كان هنـــاك باب لأن السيد كريفن دفن المفتاح في التراب » .

سيطر هذا الموضوع على تفكيرها مما جعلها تهتم وتشعر أنها غـــير نادمة على مجيئها الى ميسلثويت مانور . فعندما كانت في الهنـــد كانت تشعر بالحر والوهن وهذا يجعلها لا تكترث لشيء . والواقع أن الهـــواء المنعش من السبخة قد بدأ يفتح نسيج دماغها ويجعلها مستيقظة قليلاً .

كانت تبقى خارج البيت كل اليوم تقريبـــاً ، وعندما كانت تجلس لتناول عشائها مساءً كانت تشعر بالجوع والنعاس والارتياح . لم تعـــد

تغضب عندما كانت مارثا تثرثر بل صارت تشعر بأنهـا تحب سماعها ، وأخيراً بدأت تفكر في ان تسألها بعض الأسئلة ، وبعد ان انتهت من تناول طعام العشاء ، جلست على البساط أمام الموقد وأخذت تسألها :

« لماذا يكره السيد كريفن الحديقة ؟ »

وطلبت من مارثا أن تجلس معها وبالتالي لم تعارض هـي الأخرى مطلقاً . لقد كانت شابة واعتادت الكـوخ المزدحم بالأخـوة والأخوات ، وكانت تجد أن قاعة الخـدم مملـة ، حيث كـان رئيس الخدم وكبرى الخادمات يضحكان من حديثها بلهجة يوركشاير وينظرا إليها على أنهـا فتاة سوقية فيتهامسـا فيما بينهما . كانت مارثا تحب أن تتكلم ،والطفلة ــ التي عاشت في الهند والسود يخدمونها ــ كان الأمر بالنسبة لها شيئاً غير مألوف ، وهذا ما جذبها الى الطفلة .

جلست الطفلة امام الموقد بانتظار من يطرح عليها الأسئلة .

قالت مارثـا : « ما زلت تفكرين بتلك الحديقة ؟ كنت اعلـم بأنك ستفكرين . هكذا كان شأني عندما سمعت عنها » .

اصرت ماري : « لماذا يكرهها ؟ »

وضعت مارثا قدميها تحتها وجلست بصورة مريحة :

« استمعي الى الرياح التي تدور حول البيت والآتية من السبخة، والتي لن تستطيعي تحملها إذا وقفت الليلة في الخارج » .

لم تفهم ماري معنى الكلام إلا حين استمعت الى الصوت . انهـا تعني ذلك الزئير الأجوف المرتعد، الذي يدور ويدور حول البيت ، وكأن عملاقاً غير مرئي يقارعه ويضرب على الجدران والنوافذ محاولاً كسرها.

بالطمأنينة والدفء داخل غرفهم وبوجود نار الفحم الحمراء .

ولكنه لا يستطيع الدخول ، وهذا يجعل سكان البيت يشعرون وبعد أن استمعت ماري لها سألتها : « ولكن لماذا يكرهها الى هذه هذه الدرجة ؟ » وكانت تريد معرفة السبب فيما لو كانت مارثا تعرف ذلك .

بعد ذلك افضت مارثا بما في جعبتها من المعلومات :

« انتبهي، لقد قالت السيدة ميدلوك بأن الموضوع يجب ان لا يكون متداولاً . وهذه هي تعليمات السيد كريفن . لأن مشاكله لا تخص الخدم . بالنسبة للحديقة فإن السيد كريفن يكرهها . لقد كانت حديقة السيدة كريفن التي اعتنت بها في بداية زواجهما ، لقد كانت تحبها ، وكان الاثنان يزرعان الورد بأنفسهما ، ولم يسمح لأي من العاملين في الحديقة بدخولها . لقد اعتادوا دخول الحديقة واغلاق الباب ورائهما ، حيث كانا يمكثان لساعات وساعات وهما يقرآن ويتحدثان . كانت السيدة كريفن شابة وكان هناك غصن شجرة قديمة متدلٍ منها مثل المقعد . وفي أحد الأيام ، وبينما كانت جالسة هناك فوق الغصن، انكسر الغصن وسقطت هي على الأرض وتأذت كثيراً مما أدى الى وفاتها في اليوم التالي . وقد ظن الأطباء بأن السيد كريفن سيفقد عقله ويموت أيضاً . ولهذا فهو يكره الحديقة . ولم يدخلها أحد ، ومنذ ذلك الوقت ولا يسمح لأحد بالتحدث عنها .

لم تسأل ماري أية اسئلة أخرى. وراحت تنظر الى النار وتستمع لصوت الريح تعصف. ويبدو أنها تعصف بصوت أعلى من أي وقت آخر.

في تلك اللحظة حدث لها شيء جيد . وفي الواقع حدثت اربعة امور جيدة منذ أن جاءت الى ميسلثويت مانور . شعرت ماري بأنها صارت

تفهم أبا الحناء وهو يفهمها . وركضت في الهواء حتى جرى دمها دافئاً ، وأصبحت تشعر بالجوع لأول مرة في حياتها وهذا مؤشر صحي . كما وجدت ما يجعلها تشعر بالأسى على شخص ما . وكانت مستمرة في ذلك .

ولكن وبينما كانت تستمع الى صوت الرياح بدأت تسمع شيئاً آخر . لم تكن تدري ما هو . لأنها لم تتمكن من تمييزه بادىء الأمر عن صوت الريح نفسها . لقد كان صوتاً غريباً — بدا لها وكأنه صوت طفل يبكي في مكان ما . وصوت الريح يكون أحياناً مثل صوت طفل يبكي ، ولكن ماري تأكدت الآن من أن الصوت هو داخل البيت . فاستدارت ونظرت الى مارثا قائلة :

« هل سمعت أحداً يبكي ؟ »

وفجأة بدت مارثا مرتبكة فأجابت : « لا ، إنه صوت الريح . الذي يبدو أحيناً وكأن شخصاً ما قد ضاع في السبخة وهو ينتحب وفي السبخة كل أنواع الأصوات . »

قالت ماري : « ولكن اسمعي — إنه داخل البيت — في الأسفل وفي أحد الممرات الطويلة ؛ ثم كان هناك اندفاع كبير عنيف عبر الممر ، وبعدها فتح باب الغرفة التي تجلسان فيها بعنف حيث قفزت الفتاتان واقفتين على أقدامهما وانطفأ النور وانساب صوت البكاء عبر الممر البعيد الى أن صار يسمع بوضوح أكبر من ذي قبل .

قالت ماري : « هناك . قلت لك ذلك ! إنه صوت بكاء شخص ما . وهو ليس كبيراً » .

ركضت مارثا واغلقت الباب ثم اقفلته . ولكن قبل ان تفعـل ذلك سمعت الفتاتان صوت إغلاق باب بعنف في ممر بعيد . وبعدها هدأ كل شيء . وحتى الرياح توقفت لعدة دقائق .

قالت مارثا بعناد : « إنه صوت الريح . واذا لم تكن الريح فهـو صوت بيتي باتروت الخامة التي تغسل الأطباق . لقـد كان ضرسها يؤلمها اليوم » .

ولكن طريقة مارثا المضطربة والمرتبكـة جعلت ماري تحدق بهـا بعنف . ولم تصدق ان ما تقوله كان هو الحقيقة .

# ٦ ـ كان هناك إنسانٌ ما يبكي فعلاً

في اليوم التالي اخذت المطر تنهمر ثانية بغزارة ، وعندما نظرت ماري من نافذتها كانت السبخة مختبئة وراء الضباب الرمادي والغيوم . وهو يحتفظ به الآن في البيت . كما وجد غراباً على وشك الغرق ، فجاء كوخكم عندما تمطر هكذا » ؟

أجابت مارثا « نحاول أن لا ندوس على اقــدام بعضنا البعض . حسناً ! يبدو أن عددنا كبير . وأمي امرأة ذات طباع حسنة . ولكنها تنزعج قليلا . يخرج الأولاد الكبار ليلعبوا في حظيرة البقر . أما ديكون فلا تهمه المطر ، فهو يخرج كعادته وكأن الشمس مشرقة . ويقول انه يرى في الأيام الممطرة اشياء لا يراها عندما يكون الطقس جميلاً . وفي إحدى المرات وجد جروَ ثعلبٍ صغير على وشك أن يغرق في حفرته ، فجاء به الى البيت وقد وضعه في كم قميصه حتى لا يبرد ، وكانت امه قد قتلت بالقرب منه والحفرة ممتلئة بالماء وبقية إخوته ماتوا أيضاً . وهو يحتفظ به الآن في البيت . كما وجد غراباً على وشك الغرق ، فجاء به الى البيت أيضاً وراح يروضه ثم سماه سناج لأن لونه اسود وهو يقفز ويطير معه في كل مكان ».

لقد حان الوقت الذي لم تعد ماري ترفض فيه حديث مارثا المألوف لدرجة أنها بدأت تجده ممتعاً وكانت تحـزن عندما تتوقف مارثا عن الحديث أو تذهب بعيداً . لقد كانت القصص التي تخبرها إياها مربيتها عندما كانت في الهند مختلفة تماماً عن قصص مارثا حول أرض السبخة والكوخ الذي يعيش فيه أربعة عشر فرداً في أربع غرف صغيرة والبس

لديهم ما يكفيهم من الطعام دوماً ولم يشبعوا في يوم من الأيام . ويبدو ان الأطفال كانوا يتشقلبون ويمتعون انفسهم مثل مجموعة جراء كلب الكولي الخشنة المرحة . والأكثر ما أثار اهتمام ماري هي أم ديكون ، لقد كانت قصص مارثا عن أقوال وأفعال أمها كلها مريحة .

قالت ماري : « لو كان عندي غراب أو جرو ثعلب ألعب به ، ولكن لا يوجد عندي شيء » .

بدت مارثا مرتبكة ، وقالت : « ألا تعرفين الحياكة » ؟

اجابت ماري : « لا » .

« ألا تعرفين الخياطة » ؟

« لا » ؟

« ألا تقرئين » ؟

« بلى » .

« إذن لماذا لا تقرئين شيئاً أو تتعلمين الكتابة ؟ لقد كبرت ويجب أن تكوني قد تعلمت القراءة الآن » .

قالت ماري : « لا يوجد عندي كتب، لقد تركت كل كتبي في الهند » .

قالت مارثا : « هذا مؤسف . إذا سمحت لك السيدة ميدلوك بدخول المكتبة فهناك آلاف من الكتب » .

لم تسأل ماري أين هي المكتبة فقد خطرت لها فكرة جديدة . لقد عزمت أن تذهب وتجدها بنفسها . ولم تفكر بالسيدة ميدلوك لأنها دوماً تجلس في غرفتها المريحة بالطابق الأرضي . وفي هذا المكان الغريب يندر أن ترى أحداً على الاطلاق . وفي الواقع لا ترى أحداً سوى الخدم وإذا

كان سيدهم مسافراً فإنهم يعيشون حياة مرفهة في الطابق الأسفل حيث يوجد مطبخ كبير وفيه الأواني النحاسية اللامعة معلقة على الجوانب ، وقاعة كبيرة للخدم ، وأربع أو خمس وجبات غنية يتناولها الخدم كل يوم ، وعندما تخرج السيدة ميدلوك يبدأ نوع من المرح الصاخب الكبير .

كانت وجبات ماري تقدم لها بصورة منتظمة ، وكانت مارثا تهتم بها ، ولكن لا أحد غيرها يفكر بها مطلقاً . وكانت السيدة ميدلوك تأتي لتسأل عنها كل يوم أو يومين ، ولكن لم يسأل أحد ماذا كانت تفعل أو ماذا يجب أن تفعل . لقد ظنت أن هذه هي الطريقة الانكليزية في معاملة الأطفال . أما في الهند فقد كانت المربية تهتم بها دوما وتتابعها بدقة . وكانت مرافقتها تزعج ماري . أما الآن فليس هناك من يتابعها ، لقد بدأت تتعلم كيف ترتدي ملابسها ، فقد قالت لها احدى المرات « أليس لديك إحساس كاف » وذلك عندما وقفت ماري تنتظر مارثا كي تلبسها قفازها . وتابعت قائلة « إن أختي سوزان آن عنيفة أكثر منك مرتين . وهي تبلغ من العمر أربع سنوات فقط . ولكنك تبدين وكأنك مغفلة في بعض الأحيان . »

قطبت ماري وجهها بعد ذلك مدة ساعة ولكنها راحت تفكر بعدة أشياء جديدة .

وقفت امام النافذة حوالي عشر دقائق صباح ذلك اليوم ، وبعد ان قامت مارثا بتنظيف الموقد لآخر مرة ونزلت الى الطابق الأسفل . كانت ماري تفكر بفكرة جديدة خطرت لها عندما سمعت بالمكتبة . لم تكن لتهتم كثيراً بالمكتبة بحد ذاتها لانها لم تقرأ سوى عدد قليل من الكتب ، ولكن عندما سمعت بالمكتبة خطرت ببالها الغرف المقفلة . فتساءلت فيما اذا كانت كل الغرف مقفلة وماذا يمكن أن تجد لو استطاعت دخول إحداها ؟ وبهذا ستجد شيئاً تعمله هذا الصباح طالما أنها لن تستطيع الخروج ، فهي لم تتعلم استئذان أحد قبل أن تقوم

باي عمل . وليس لديها اية معلومات ماذا تعني السلطة ، ولهذا لم تر ضرورة لسؤال السيدة ميدلوك كي تطوف في البيت ، حتى ولو راتها .

فتحت باب الغرفة وخرجت الى الممر ثم بدات نطوف . كان الممر طويلا ويتفرع الى ممرات أخرى وهناك عدة درجات تؤدي الى درجات اخرى ايضاً . كانت هناك أبواب ولوحات معلقة على الجدران . في بعض الأحيان كانت اللوحات طبيعية داكنة وغريبة ولكنها غالباً ما كانت لوحات لرجال ونساء في ملابس فخمة غريبة مصنوعة من الساتان والمخمل . وجدت ماري نفسها في معرض طويل جدرانه مغطاة باللوحات . ولم يخطر لها إطلاقاً أن يجتمع مثل هذا العدد من اللوحات في بيت واحد إنها تمشي بمهل وتحدق في الوجوه التي تبدو وكأنها تحدق بها ، فشعرت وكأنهم يتساءلون ماذا تفعل تلك الطفلة الصغيرة القادمة من الهند في هذا البيت . بعض اللوحات كانت لأطفال ــ فتيات صغيرات يرتدين ثياباً فضفاضة من الساتان تصل حتى الأقدام أو حولها ، وفتيان يرتدون أكماماً منتفخة « قبات حريرية وشعرهم طويل ، أو هناك ثنيات كبيرة حول الرقبة . كانت ماري تقف دوما لتنظر الى الأطفال وتتساءل عن أسمائهم وأين ذهبوا ولماذا يرتدون مثل هذه الملابس الغريبة . وقد رأت فتاة صلبة متذمرة تشبهها ، ترتدي ثوباً أخضر مطرزاً وتحمل ببغاء أخضر اللون على إصبعها ، ولها عينان حادتان وذات فضول .

قالت ماري بصوت مرتفع : « أين أنت الآن ، كنت أتمنى لو انك هنا . »

لم تقض فتاة اخرى بالتأكيد مثل هذا الصباح الغريب . ومن الواضح انه لا يوجد أحد يطوف البيت سواها ، تصعد وتهبط الأدراج في ممرات ضيقة أحياناً وعريضة أحياناً . وقد بدا لها وكأن أحداً لم يمش فيها أبداً . وبما أن هناك عدداً كبيراً من الغرف فلا بد أن هناك أشخاصاً عاشوا فيها ولكن بما أنها كانت فارغة فلن تصدق أن أحداً كان يشغلها .

لم تفكر في فتح اي باب حتى صعدت الى الطابق الثاني . لقد كانت كل الأبواب مقفلة كما قالت السيدة ميدلوك ، واخيراً وضعت يدها على قبضة إحدى الأبواب وادارتها . وعندما دارت معها دون صعوبة اندفعت عبر الباب الذي فتح ببطء وثقل . هناك على الجدران مطرزات معلقة ، وحول الغرفة مفروشات مرصعة مثل تلك التي شاهدتها في الهند .

كانت هناك نافذة واسعة وزجاج ذو إطار من الرصاص يطل على السبخة ، وفوق الغطاء توجد لوحة اخرى لتلك الفتاة الصغيرة المتذمرة التي تبدو وكأنها تحدق بها بفضول أكبر من ذي قبل .

قالت ماري : ربما نامت هنا مرة ، إنها تحدق بي حتى انها جعلتني اشعر بالغرابة . بعد ذلك قامت بفتح ابواب وابواب . لقد رات غرفاً عديدة حتى تعبت ، وبدأت تفكر أنه لابد من وجود مائة غرفة ، رغم انها لم تقم بتعدادها . وجميع الغرف كانت تضم لوحات وسجاد قديم رسمت عليها مناظر غريبة كما كانت هناك قطع غريبة من الأثاث والتزيينات فى كل الغرف تقريبا .

اما اللوحات المعلقة في إحدى الغرف والتي تبدو وكأنها غرفة جلوس لإحدى السيدات فقد كانت من المخمل المطرز والى جانب ذلك توجد خذانة فيها حوالي مائة فيل من العاج من مختلف القياسات ،بعضها يركب عليها اصحابها أو توجد محفة على ظهرها . بعض الفيلة كانت أكبر بكثير من الباقي ، وبعضها صغير جداً بحيث تبدو وكأنها لاتزال رضيعة . كانت ماري قد رأت عاجا منحوتاً في الهند ، ولهذا فهي تعرف كل شيء عنها . فتحت باب الخزانة ووقفت على كرسي . وراحت تلعب بها وقتاً طويلاً . وعندما تعبت اعادت الفيلة إلى ترتيبها وأغلقت باب الخزانة .

لم ترَ خلال تجوالها في الممرات الطويلة والغرف الفارغة ، شيئاً حياً ، ولكن في هذه الغرفة رأت شيئاً ما . فبعد أن اغلقت باب الخزانة

تماماً سمعت صوت حفيف ناعم . وهذا ما جعلها تقفز وتنظر حولها على الأريكة قرب الموقد وكأن الصوت جاء من هنا . ففي زاوية الأريكة توجد وسادة لها غطاء مخملي وفيه ثقب ، ومن هذا الثقب خرج رأس صغير له عينان خائفتان . زحفت ماري بهدوء عبر الغرفة حتى ترى . كانت عينا فأر رمادي صغير . لقد أكل الفأر القماش فصارت الوسادة عشاً مريحاً له . كان هناك ستة من صغار الفأر متعانقة ونائمة هناك . وإذا كان لا يوجد احد في الغرف المائة فإن هذه الغرفة تضم سبعة فئران لا تشكو من الوحدة أبداً .

قالت ماري : « لولا خوف هذه الفئران الشديد لأخذتها معي .

تجولت ماري كثيراً حتى تعبت كثيراً ولم تعد تستطيع المشي أكثر من ذلك ، فعادت أدراجها . وقد ضلت الطريق مرتين أو ثلاث مرات أثناء العودة وذلك بدخولها ممراً بالخطأ مما اضطرها أن تصعد وتنزل حتى وجدت الطريق الصحيح ، وأخيراً وصلت إلى طابقها ثانية ، وإن كانت لاتزال بعيدة عن غرفتها ولا تدري أين هي تماماً . قالت « أعتقد انني أخذت مساراً خاطئاً ثانية ، ووقفت دون حراك . فيما يبدو انه نهاية ممر قصير وعلى الجدار سجادة « لا أدري أي طريق سأسلك . فكل شيء يبدو صامتاً » !

وبينما كانت تقف في مكانها هذا وبعدما تحدثت لنفسها تبدد الصمت عندما سمعت صوتاً . لقد كان صوت بكاء ثانية ولكن ليس بنفس شدة ما سمعته في الليلة السابقة ، لقد كان بكاء لفترة قصيرة ، كنحيب طفل مشاكس تبدد خلال مروره عبر الجدران .

قالت ماري ، وكان قلبها يضرب بصورة أسرع : « إنه أقرب الآن ، إنه صوت بكاء » وضعت ماري يدها بالصدفة على السجادة المعلقة بالقرب منها ، ثم قفزت الى الخلف وهي خائفة تماماً . لقد كانت السجادة غطاء لباب مفتوح ، فبدا لها أن هناك جزءاً آخر من الممر خلفها ، حيث كانت

السيدة ميدلوك آتية وحزمة مفاتيحها بيدها وعلى وجهها نظـرة غضب كبيرة .

قالت السيدة ميدلوك : « ماذا تفعلين هنا ؟ ماذا قلت لك » ؟ ثم اخذتها من ذراعا ودفعتها بعيداً

قالت ماري موضحة : « لقد مشيت بالاتجاه الخاطىء ، ولم أعرف الطريق الذي يجب أن أسلكه فسمعت احداً يبكي

في تلك اللحظة شعرت بكراهية شديدة للسيدة ميدلوك ، ولكنها شعرت بكره أكبر لها بعد ذلك .

قالت لها ميدلوك : « أنت لم تسمعي شيئا من هذا القبيل . عودى إلى غرفتك ، وإلا لكمتك على اذنيك » .

ثم امسكتها من ذراعها ، وراحت تدفعها تارة وتجرها تارة اخرى عبر الممر ثم الى ممر آخر حتى دفعتها أمام باب غرفتها . وقالت :

« والآن ، عليك البقاء في المكان المخصص لك ، وإلا فستجدين نفسك سجينة . يجب أن يحضر لك صاحب البيت مربية مثلما قال : فأنت من النوع الذي يجب رعايته بحزم ولدي ما يكفي من الأعمال » .

خرجت من الغرفة واغلقت الباب وراءها بعنف ، وذهبت مـاري فجلست على سجادة الموقد وقد اصفر لونها بسبب غضبها . لم تبـك ولكنها راحت تضغط على أسنانها ، ، وهي تقول لنفسها :

« هناك شخص ما يبكي ، هذا أكيد ـ هذا اكيد » .

لقد سمعته مرتين ، وستعرف الحقيقة يوماً ما. إنها اكتشفت الكثير هذا الصباح . فشعرت وكأنها كانت في رحلة طويلة . وعلى اية حال فقد كان لديها ما يسلبها كل الوقت لعبت بالفيلة العاجية ورات الفأر الرمادي وصغارة في عشهم داخل الوسادة المخملية .

# ٧ ـ مفتـاح الحديقـة

بعد مضي يومين ، وعندما فتحت ماري عينيها جلست في سريرها الفور ونادت مارثا . انظري الى السبخة ! انظري الى السبخة !

لقد انتهت عاصفة المطر وأزاحت الرياح الغيوم والضباب الرمادي ليلاً . وتوقف الهواء ، فظهرت السماء الصافيـة الزرقاء وهي ترتفع عالياً فوق ارض السبخة . لم تحلم ماري في حياتها بسماء زرقاء اللون كهذه ، فقـد كانت في الهند حارة وملتهبة ، أما هنـا فهي زرقاء باردة وغامقة ، تبدو وكأنها تتلألأ مثل بحيرة صافية ليس لها قاع ، وهنا وهناك في اعالي القبة الزرقاء تسبح غيمات صغيرة بيضاء كندف الثلج . إن عالم السبخة الذي يصعب الوصول إليه ، يبدو بحد ذاته ازرق لطيفاً بدل أن يكون قرمزياً ـ أسود قاتماً أو رمادياً موحشاً تماماً .

أجابت مارثا بابتسامة عريضة مشرقة نعم ! لقد هدات العاصفة قليلا هكذا هو الحال في مثل هذا الوقت من السنة ترحل العاصفة ليلا وكأنها لم تكن هنا ابداً ولا تنوي العودة ثانية . وذلك لأن الربيع أصبح في طريقه الينا . لا يزال بعيداً بعض الشيء ولكنه آت .

قالت ماري « ظننت أن الطقس ماطر دوماً أو أنه يبدو داكناً في انكلترا » .

أجابت مارثا لا ! لا شيء من هذا القبيل ، وهي تجلس على كعبيها بين مجموعة فراشي التنظيف .

سألت ماري بجدية : « ماذا تقصدين ؟ » ففي الهند يتحدث السكان المحليون لهجات مختلفة لا يفهمها الا عدد قليل من الناس . ولذلك لم تفاجأ ماري عندما استخدمت مارثا كلمات لم تفهمها .

ضحكت مارثا كما فعلت في صباح اول يوم وقالت :

« والآن ، لقد تحدثت لهجة يوركشاير العريضة ثانية ، وقد نبهتني السيدة ميدلوك لذلك .

اعادت مارثا ما قالته ببطء وعناية واضافت : « إن يوركشاير هي اكثر مناطق العالم التي تستطع الشمس عليها . لقد أخبرتك بأنك ستحبين السبخة بعد فترة . انتظري فقد حتى تشاهدي أزهار الوزال الذهبية اللون وأزهار الرتم والخلنج والأجراس القرمزية ومئات الفراشات تحوم والنحل يطن والقبرة وهي تحلق وتغني . في مثل هذه الأيام ستخرجين عند طلوع الشمس وتبقين هناك طوال النهار كما يفعل ديكون .

سألت ماري وهي حزينة ، هل أستطيع الذهاب الى هناك ؟ وراحت تنظر عبر نافذتها الى زرقة السماء الممتدة . لقد كانت جديدة وكبيرة ورائعة وذات لون ازرق .

أجابت مارثا : لا أدري ، اظن أنك لم تستخدمي ساقيك منذ ولادتك . فأنت لا تستطيعين ان تمشي خمسة اميال . والمسافة الى كوخنا تبلغ خمسة أميال !

إنني ارغب في رؤية كوخكم .

حدقت مارثا قليلا مستغربة ، ثم أخذت الفرشاة وراحت تنظف المنصب ثانية . كانت تفكر بذلك الوجه الصغير الذي كله كان يبدو نكداً في

تلك اللحظة كما كان في صباح أول يوم رأتها. كان وجهها يشبه قليلاً وجه سوزان آن عندما ترغب بالحصول على شيء .

أجابتها « سأخبر امي بذلك ، فهي من النوع الذي يجد حلا دوما لاي شيء . اليوم هو عطلتي وسأذهب الى بيتي . حسناً ! فأنا سعيدة والسيدة ميدلوك تحب امي وربما تستطيع أن تحدثها بالامر . »

قالت ماري : « لم أرها أبداً » .

أجابت مارثا : كلا لم تريها .

وجلست ثانية على كعبيها وراحت تفرك راس أنفها بظهر يدها ، وكأنها دهشت للحظة ، ولكنها أنهت الحديث بصورة إيجابية :

حسناً ، إن أمي امرأة عاقلة وتعمل بجد وذات طبيعة مرحة ونظيفة ولا أحد يستطيع المساعدة مثلها سواء رآها أم لم يرها . عندما يكون يوم عطلتي وأذهب إليها فانني أقفز من الفرح وانا اعبر السبخة » .

اضافت ماري : إنني احب ديكون ولم اره أبداً .

قالت مارثا بجرأة حسناً ، لقد قلت لك أنه حتى الطيور تحبه وكذلك الأرانب والغنم والخيول البرية وحتى الثعالب . ولا أدري ماذا سيقول عنك ديكون ؟ وراحت تتأمل ماري .

أجابت ماري « بطريقتها الفظة الباردة » لن يحبني ، لا أحد يحبني .

نظرت مارثا متأملة ثانية فسألتها وكأنها تريد ان تعرف بالفعل ، « كيف تحبين نفسك إذن » ؟

ترددت ماري لحظة ثم فكرت بالأمر وأجابت :

« إنني فعلاً لا أحب نفسي ، ولكنني لم أفكر بالموضوع أبداً ».

ضحكت مارثا وهي تكشر قليلاً . وكأنها قد استعادت بعض ذكريات بيتها :

« قالت لي أمي ذلك مرة وهي تقف امام حوض الغسيل ، وكنت انا اتحدث بفظاظة وبسوء أخلاق عن أحدهم ، فاستدارت باتجاهي وقالت : « انت أيتها المشاكسة الصغيرة ! تقفين هنا وتقولين أحب هذا وأكره ذاك . فكيف تحبين نفسك ؟ » مما جعلني أضحك وعدت الى نفسي خلال دقيقة » .

وبعد أن أحضرت مارثا طعام الإفطار خرجت بروح معنوية عالية . كان عليها أن تسير خمسة أميال عبر السبخة الى الكوخ ، ثم تساعد أمها بالغسيل وتقوم بعملية الخبز الأسبوعية بنفسها بصورة جيدة .

شعرت ماري بالوحدة اكثر من قبل عندما علمت أن مارثا قد غادرت البيت . فخرجت الى الحديقة بأسرع ما يمكن . وأول شيء قامت به هو الركض حول البحرة في حديقة الزهور عشر مرات ، حيث راحت تعد المرات بدقة ، وعندما انتهت شعرت بأن معنوياتها صارت أفضل . كما بدا المكان كله بصورة أفضل بسبب أشعة الشمس . وكانت القبة السماوية العالية بزرقتها الداكنة منحنية فوق ميسلثويت وكذلك السبخة . وظلت ماري ترفع وجهها الى الأعلى وهي تنظر الى السماء ، وتحاول أن تتخيل كيف يمكن أن يكون الحال إذا استقلت إحدى الغيمات البيضاء الصغيرة وراحت تطوف . ذهبت الى أول حديقة للمطبخ فوجدت بن ويذرستاف يعمل هناك مع اثنين آخرين . ويبدو أن تبدل الطقس قد جعله أفضل . فأخذ يتحدث إليها ويبادلها نفس الشعور قائلاً : « الربيع آتٍ ، هل تشمين رائحته فاستنشقت ماري معتقدة بأنها تستطيع ذلك » . وقالت :

« إنني أشم شيئاً جميلاً ومنعشاً ورطباً » .

اجابها وهو يحفر بالأرض : « إنها رائحة الأرض الطيبــة الغنية ؛ إنهــا في وضع جيد فقد صارت جاهزة لإنبات الزرع . كما أنها سعيدة لأن وقت الزرع قد حان . اما في الشتاء فهي كيئبة لأنــه ليس لديهــا ما تفعله . وهناك في حديقة الأزهار تلك توجد أشياء تتحرك في الأسفل أثناء الظلام . ثم تدفئها الشمس . وسترين بعد قليل قطعاً من العناقيد تخرج من التربة السوداء » .

سألت ماري : « وماذا ستكون هذه العناقيد ؟ »

أجابها : « الزعفران وزهرة الثلج والنرجس . ألم تريها من قبل؟»

قالت ماري : « لا ، فكل شيء حار ورطب هناك ، والخضرة تنبت بعد المطر في الهند ، وأعتقد أن الأشياء تنبت ليلا . »

قــال ويذرستاف : « هذه الأنــواع لا تنبت في الليل ، بــل يجب انتظارها ، فهي تبرز بصورة أعلى هنا ويكون لها عنقود إضافي ، وفي كل يوم تتفتح ورقة ورقة ، وتستطيعين مراقبتها » .

أجابت ماري : « سوف أراقبها » .

وبعد قليل سمعت صوت أجنحة تطير بنعومة ، فعرفت للتــو أن أبا الحناء قد أتى . لقد كان مفعماً بالحيوية والحياة وراح يقفز قريبــاً جداً من قدميها ، فأدار رأسه جانباً ونظر إليها بحياء مما جعلها تســأل بن ديذرستاف :

قالت : « هل تظن انه يتذكرني ؟ » .

قال ويذرستاف ساخطاً : « يتذكرك ! إنه يعرف كل جذر ملفوف في هذه الحديقة ، فما بالك بالأشخاص ، إنه لم يرَ فتاة صغيرة من قبل، وقد عزم على أن يعرف عنك كل شيء .ولا حاجة لأن تخفي عنه شيئاً » .

سألت ماري : « هل تتحرك الاشياء في عتمة تربة تلك الحديقة التي يعيش فيها ؟ »

راح ويذرستاف يدمدم وقد غضب ثانية : « أية حديقة ؟ » .

أجابت ماري: «تلك الحديقة حيث توجد أشجار الورد القديمة ».

لم تستطع ماري أن تتوقف عن السؤال لانها كانت راغبة جداً فيالحصول على معلومات ، واضافت : « هل ماتت كل الأزهار أو أن بعضها ينمو في الصيف ؟ هل هناك اية ورود »؟

قال بن ويذرستاف وهو يهز كتفيه باتجاه الطائر : « بإمكانك أن تسأليه . إنه الوحيد الذي يعلم . لم يدخل أحد الحديقة منذ عشر سنوات سواه » .

اخذت ماري تفكر أن عشر سنوات هي مدة طويلة . لقد ولت هي قبل عشر سنوات .

ثم مشت بعيداً وهي تفكر . لقد بدأت تحب الحديقة ، تماماً مثلما بدأت تحب أبا الحناء وديكون ووالدة مارثا . وكذلك بدأت تحب مارثا أيضاً . ويبدو أن عدد الأشخاص الذين بدأت تحبهم كبير — في حين أنها لم تكن تحب أحداً من قبل واعتبرت أبا الحناء فرداً . وذهبت لتسير خارج جدار اللبلاب الطويل حيث تستطيع أن ترى رؤوس الأشجار ،وفي المرة التالية سارت الى الأعلى والى الأسفل ، الى أن حدثت معها أكثر الأمور إثارة وذلك بسبب طائر بن ويذرستاف :

لقد سمعت سقسقة وتغريداً ، وعندما نظرت الى حوض الأزهار العاري على يسارها كان أبو الحناء يقفز ويتظاهر أنه يلتقط أشياء من الأرض لكي يقنعها بأنه لم يتبعها . ولكنها كانت تعلم أنه قد لحق بها ، وقد ملأتها هذه المفاجأة بالسرور حتى انها راحت ترتجف قليلاً .

وصاحت : « أنت تتذكرني ! أليس كذلك ! إنك أجمل شيء في هذا العالم » !

وراحت تسقق وتتحدث وتتلاطف معه وهو يقفز ويهز ذيله ويفرد، وكأنه يتحدث . لقد كان صدره الأحمر مثل الحرير ، وراح ينفخه فبدا رائعاً وجميلاً وكأنه يعرض لها كم هو مهم مثل الانسان . لقد نسيت الآنسة ماري أنها كانت مشاكسة في حياتها عندما سمح لها أن تقترب منه أكثر فأكثر ثم انحنت وبدات تتحدث وتحاول أن تقلد صوت أبا الحناء .

أه ! تصور كيف تركها بالفعل تقترب منه الى هذا الحد ! إنه يعلم أن لا شيء في العالم سيجعلها تمد يدها نحوه أو أن تخيفه بأي حال من الأحوال . كان يعلم ذلك لأنه إنسان حقيقي ــ بل الطف من أي إنسان في العالم . لقد كانت سعيدة لدرجة أنها كانت بالكاد تتنفس .

لم يكد حوض الزهر عارياً تماماً لأن النبتات المعمرة كانت قد قطعت لترتاح في الشتاء ، ولكن كانت هناك شجيرات طويلة وقصيرة قد كبرت معاً في الناحية الخلفية للحوض وعندما قفز أبو الحناء تحتها فقد قفز فوق كومة تراب مرتفعة . وتوقف هناك يبحث عن دودة ، كانت التربة مقلوبة هناك لأن كلباً كان يحاول أن يخرج خلداً وبالتالي فقد حفر حفرة عميقة تماماً .

نظرت ماري إليها دون أن تعلم تماماً سبب وجود الفتحة هناك ، وبينما كانت تنظر رأت شيئاً ما مدفوناً في التربة المقلوبة حديثاً . إنه شيء يشبه حلقة حديد أو نحاس صدىء . وعندما طار أبو الحناء الى شجرة قريبة وضعت يدها فأخرجت الحلقة . لقد كانت أكثر من حلقة، على أية حال ، كانت مفتاحاً قديماً يبدو وكأنه دفن منذ زمن بعيد .

وقفت الآنسة ماري ونظرت إليه بوجه يعلوه الخوف والمفتاح بين اصابعها ، وقالت هامسة : « ربما دفن منذ عشر سنوات ، وربما كان هذا مفتاح الحديقة » .

## ٨ ـ أبو الحناء هو الذي أرشدها الى الطريق

نظرت ماري الى المفتاح فترة طويلة . وراحت تقلبه وتقلبه وتفكر به . وكما ذكرت من قبل لم تكن ماري تلك الطفلة التي اعتادت أن تطلب إذناً أو أن تستشير من هم أكبر منهـا في أي أمر وكل ما خطر لهـا بخصوص المفتاح هو أنه اذا كان مفتاح الحديقة المغلقة ، واذا استطاعت أن تجد الباب فربما تمكنت من فتحه لترى ماذا يوجد داخل تلك الجدران وماذا حدث لشجيرات الورود القديمة . فهي تريد رؤيتها لأنها كانت مغلقة لفترة طويلة . ولا بد من أن تكون مختلفة عن الأخرى ، ولا بـد أن شيئاً قد حدث لها خلال السنوات العشر . الى جانب ذلك إذ أحبتها فستذهب اليها كل يوم وستغلق الباب خلفها ، وتستطيع أن تصنع شيئاً تلعب به وحدها ، لأن أحداً لن يعرف أين هي ، وأن الباب لا يزال مقفلا والمفتاح مدفون في الأرض لقد سرتها تلك الفكرة كثيراً .

وبما أنها كانت تعيش وحيدة تماماً في البيت الذي يضم مائة غرفة غريبة مغلقة ، وليس لديها أي شيء تفعله لتسلي نفسها ، فقد بدأ عقلها يعمل فأثار خيالها فعلاً . ولا شك أن الهواء النقي والقوي والمنعش القادم من السبخة قد أثر عليها كثيراً ، تماماً كما فتح لها شهيتها للطعـام ، ومقاومة الهواء قد حركت دمهـا ، وهذه الأشياء نفسها جعلت عقلهـا يتحرك . لقـد كانت دومـاً تشعر بالحـر الشديد والوهن في الهنـد حيث لم تكن تكترث لأي شـيء ، أما هنـا فقـد بدأت تهتم بكل شيء وتريد أن تفعل كل شيء . بدأت تشعر بأنها لم تعد عنيدة دون أن تعرف السبب وضعت ماري المفتاح في جيبها وراحت تقطع الممر جيئة وذهابا ويبدو أن أحداً غيرها لم يأت الى هذا المكان ، ولهذا استطاعت أن تمشي

ببط . وتنظر الى الحائط أو بالاحرى الى اللبلاب الذي يغطيه ، وهذا الذي كان يحيرها . ورغم انها قد امعنت النظر لم تتمكن من أن ترى شيئاً سوى الاوراق الخضراء الداكنة والكثيفة ، لقد خاب أملها كثيراً واستعادت بعضا من عنادها وهي تمشي على طول الحائط وتنظر الى اعالي الأشجار من داخل الممر وهي تقول لنفسها ، إن من السخف حقا ان تكون قرب من الحديقة ولا تستطيع دخولها . وعندما ذهبت الى البيت اخذت المفتاح معها وقررت أن تحمله كلما خرجت ، فإذا استطاعت ان تجد الباب المخبأ فستكون مستعدة للدخول .

كانت السيدة ميدلوك قد اذنت لمارثا أن تنام في الكوخ تلك الليلة ، ولكنها عادت الى عملها صباحاً وقد تورد خداها أكثر من أي وقت مضى، وبمعنويات مرتفعة .

أخبرت ماري : « لقد استيقظت في الرابعة ، وكانت السبخة جميلة والعصافير بدأت تستيقظ والأرانب تعدو والشمس تشرق ، ولم أمش كل الطريق . فقد ركبت مع رجل في عربته ، ويمكنني القول أنني قد استمتعت بوقتي » .

كان لديها الكثير من القصص والأشياء المبهجة خلال اليوم الذي قضته خارج البيت . كانت أمها سعيدة لرؤيتها ، وقد أنجزتا الخبز والغسيل كله بصورة غير طبيعية . كما أنها صنعت لكل طفل فطيرة مع قليل من السكر الأسمر بداخلها . وأضافت :

« لقد كانت كلها ساخنة عندما عادوا من اللعب في السبخة ، ورائحة الخبز الحلو النظيف تملأ الكوخ ، وتدفئه نار جيدة ، والأطفال يصرخون من الفرح . فقال ديكون بأن كوخنا يصلح أن يعيش فيه ملك » .

وفي المساء جلس الجميع حول النار ، وأخذت مارثا وأمها تخيطان الرقع على الملابس المهترئة وتصلحان الجوارب ، وأخبرتهم مارثا عن

البنت الصغيرة التي جاءت من الهند والتي كان يرعاها طوال حياتها من اسمنهم مارثا « السود » . وأنها لم تكن تعرف حتى كيف تلبس جواربها . واضافت « نعم ! لقد احبوا أن يسمعوا عنك . كانوا يريدون معرفة كل شيء عن « السود » والباخرة التي أتيتِ بها . ولم استطع ان اخبرهم الشيء الكافي » .

فكرت ماري قليلاً ثم قالت :

« سأخبرك معلومات اكثر بكثير قبل أن يأتي يوم عطلتك القادم ، بحيث يكون لديك معلومات اكثر تقولينها . وأستطيع القول بأنهم يحبون

أن يستمعوا عن ركوب الفيلة والجمال وعن الضباط الذين يذهبون لصيد النمور » .

صاحت مارثا : « يا إلهي ! هذا الحديث سيجعلهم يفقدون عقولهم . هل ستخبرينني بذلك فعلاً يا آنسة ؟ سيكون الأمر مشابهاً لعرض الوحش الكاسر الذي سمعنا عنه مرة في يورك » .

قالت ماري ببطء وهي تفكر بالموضوع « إن الهند تختلف تماماً عن يوركشاير . لم أفكر بذلك مطلقاً . هل كان ديكون وأمك مسرورين عندما سمعاك تتحدثين عني ؟ » .

قالت مارثا : « ماذا ! كادت عينا ديكون تخرجان من رأسه وأصبحتا مستديرتين . أما أمي فقد أزعجها أن تكوني وحدك . وقد سألت : « ألم يأت السيد كريفن بمربية أو ممرضة لها ؟ » فأجبتها : « لا ، لم يفعل ، بالرغم من أن السيدة ميدلوك تقول بأنه سيقوم بذلك عندما يفكر بالأمر ، ولكنها تقول أنه ربما لن يفكر بذلك قبل سنتين أو ثلاث سنوات » .

قالت ماري بحزم : « لا أريد مربية » .

اجابت مارثا : « ولكن امي تقول يجب ان تتعلمي القراءة الآن ، بالاضافة لذلك يجب أن تكون هناك امرأة تهتم بك ، وتقول أيضاً : « فكري يامارثا لو كنت وحيدة في مكان كبير كهذا تتجولين فيه بدون أم . اعملي مابوسعك لكي تدخلي البهجة إلى قلبها . أحب أن أسمع منك عن اخبارها .

خرجت مارثا من الغرفة ثم عادت وهي تحمل معها شيئاً وضعته تحت مريلتا ، وقالت وهي تضحك مبتهجة : « ماذا تظنين ، اقد جلبت معي هدية لك » .

تساءلت الآنسة ماري : « هدية ! كيف يستطيع كوخ يضم أربعة عشر فرداً جائعاً أن يقدم هدية ! » !

أوضحت مارثا : « كان هناك بائع جوال يمر مع عربته عبر السبخة ، ثم توقف أمام بابنا كان يحمل معه طناجر ومقالي ونثريات ، ولكن لم يكن مع امي نقود لتشتري شيئاً ، وعندما هم بالمغادرة نادت اليزابيت إيلين: « أمي لديه حبال للوثب ولها مسكات حمراء وزرقاء » . وفجأة نادته أمي « أيها السيد توقف هنا ! كم ثمنها » ؟ أجابها « بنسين » ، وبدأت أمي تبحث في جيبها ، ثم قالت لي : « مارثا ، لقد أحضرت أجرتك مثل الفتيات المهذبات ، ويجب أن أدفعها لأربع جهات ، ولكنني سآخذ منها بنسين لكي أشتري حبلاً للوثب لتلك الطفلة ، وقد اشترت لك واحداً وها هو » .

سحبت مارثا الحبل من تحت مريلتها وعرضته عليها وهي فخورة. كان حبلاً قوياً رفيعاً وله قبضتان مقلمتان بالأحمر والأزرق في كل طرف . لكن ماري لينوكس لم يسبق لها أن رأت حبلاً للوثب في الهند. فأخذت تحدق به وعلى وجهها تعابير حائرة .

سألت ماري بفضول : « ماذا أفعل به » ؟

صاحت مارثا : « ماذا ! هل تقصدين انه لم يكن لديك حبلاً للوثب في الهند وأن كل ما لديهم هو فيلة ونمور وجمال ؟ فلا غرابة إذن أنهم كلهم سود . أنظري إلي فقط ؛ إنه من أجل هذا ، ركضت مارثا الى منتصف الغرفة وأمسكت كل قبضة بيد وبدأت تثب وتثب وتثب ، بينما جلست ماري على كرسيها وهي تحدق بها ويبدو أن الوجوه الغريبة في اللوحات كانت تحدق بها أيضاً متعجبة لتلك الفتاة البسيطة القادمة من الكوخ التي تجرأت أن تفعل ذلك تحت سمعهم وبصرهم . إلا أن مارثا لم تكترث لهم أبداً . وقد سرت لرؤية الاهتمام والفضول على وجه الآنسة ماري ، وراحت تتابع الوثب وتعد حتى بلغت المائة .

وعندما توقفت قالت لها : « لم أستطيع أن اثب أكثر من ذلك ، فعندما كنت في الثانية عشرة من عمري وثبت حتى الخمسمائة ، ولكني لم أكن ممتلئة كما أنا الآن ، وكنت أتدرب دوماً .

نهضت ماري من كرسيها وبدأت تشعر بالحماس وقالت :

« يبدو أنها لعبة جميلة . إن أمك امرأة طيبة . هل تعتقدين انني أستطيع الوثب مثلك ؟

راحت مارثا تحثها وهي تعطيها الحبل « حاولي .لن تستطيعي بادىء الأمر وثب مائة مرة ، ولكن إذا تابعت التمرين فسيرتفع العدد . وهذا ماقالته أمي . إنها تقول : « لاشيء سيجعلها افضل مثل حبل الوثب . وهذه هي أفضل لعبة يمكن أن تكون لدي طفلة . دعيها تلعب في الهواء الطلق فتمدد ساقيها وذراعيها لتصبح اقوى » . كان واضحاً أن ساقي ماري وذراعيها لم تكن فيهما قوة كافية عندما بدأت الوثب .

لقد اثبتت مهارتها في تلك اللعبة وأحبتها لدرجة أنها لم تعد ترغب بالتوقف .

قالت لها مارثا : « البسي ثيابك واخرجي إلى الحديقة لتلعبي هناك. فقد قالت لي أمي أن أخبرك أن تمضي خارج البيت اطول مدة ممكنة ،

وحتى لــو كان المطــر يهطــل بصــورة خفيفــة ، لان هــذا سيجعلك تشعرين بالدفء .

لبست ماري معطفهـا ووضعت قبعتها واخـذت حبـل الوثب على ذراعها . وعندما فتحت الباب لتخرج تذكرت فجأة شيئاً ما فعادت ادراجها بهدوء وقالت :

« « مارثا ، شكراً لك ، إن البنسين كانا من اجرك فعلاً . وشكرتها بطريقة جافة لانها لم تتعود شكر الناس أو ملاحظة الأشياء التي يصنعونها لها . شكرتها ومدت يدها ، لأنها لا تعرف ماذا يجب أن تفعل .

مدت مارثا يدها وصافحتها وكأنها لم تعتد مثل هذه الأمور أيضاً . ثم ضحكت قائلة :

« إذن ! فأنت تشبهين المراة العجوز الغريبة ، ولو كانت إليزابيت إيلين مكانك الآن لجاءت وقبلتني . اجابت ماري وقد بدت أكثر صلابة .

« هل تريدين أن اقبلك ؟ »

ضحكت مارثا ثانية وأجابت : « لا لا تقبليني ، لو كنت غير ذلك لفعلت هــذا من نفسك ، ولكنك لست كــذلك ، اركضي الى الخــارج والعبي بالحبل . »

شعرت ماري ببعض الحرج وهي تخرج من الغرفة . ويبدو أن اهل يوركشاير غريبين وقد كانت مارثا على الدوام لغفزاً بالنسبة لها . ففي بادىء الأمر لم تحبها أما الآن فصارت تحبها .

كان حبل الوثب شيئاً رائعاً . وراحت تعد وتثب ، وتثب وتعد حتى تورد خداها . وأصبحت مسرورة اكثر من أي وقت مضى منذ ولادتها . كانت الشمس مشرقة وبعض الرياح تهب . دون قسوة ؛

ولكنها رياح لطيفة تأتي برائحة منعشة للتربة المقلوبة حديثاً . راحت تثب حول حديقة النافورة والى اعلى الممر ثم الى اسفل ممر آخر . واخيراً أخذت تثب في حديقة المطبخ حيث رات بن ويذرستاف وهو يحفر ويتحدث الى أبي الحناء الذي كان يدور حوله . وثبت الى الممر باتجاهه فرفع راسه ونظر إليها بتعابير غريبة . وتسآلت فيما إذا كان سيلاحظها. كانت في الحقيقة تريده أن يرى وثبها .

وتعجب قائلا : « حسناً ! اقسم بأنك الآن فتاة صغيرة ، وربما صار دم الأطفال يجري في عروقك الآن بدلا من مخيض اللبن . وانا متأكد من حمرة خديك تماماً كما انا متأكد أن اسمي بن ويذرستاف . إنني لا أصدق أنك تستطيعين الوثب . »

قالت ماري : « ما كنت لا أعرف الوثب من قبل ، فانا لا زلت مبتدئة ولا أستطيع الوثب أكثر من عشرين مرة . »

قال بن تابعي وسوف تتأقلمين معها لأنك ما زلت صغيرة ، فهذه لعبة قديمة جداً . انظري فقط كيف يراقبك ، وقد أدار رأسه باتجاه أبي الحناء . « لقد تبعك البارحة . وسيتبعك اليوم . وسيستمر في ذلك حتى يعرف ما هو حبل الوثب ، لأنه لم ير مثله من قبل . حسناً ! » وأخذ يهز برأسه للطائر قائلاً « إن فضولك سيجلب لك الموت يوماً ما إذا لم تضع له حداً . »

راحت ماري تثب حول الحديقة كلها وحول بستان الفاكهة ثم ترتاح بضع دقائق . وفي النهاية ذهبت الى ممرها الخاص وقررت أن تحاول الوثب على طوله . كان وثباً طويلاً جيداً ، بدأت ببطء ، ولكن وقبل أن تقطع نصف الطريق شعرت بحرارة كبيرة وصارت تلهث مما أجبرها على التوقف . لم تهتم للأمر كثيراً لأنها الآن وصلت الى الثلاثين في تعدادها . توقفت وهي تبتسم سعيدة ، وعلى مقربة منها كان أبو الحناء يتأرجح على أحد أغصان اللبلاب الطويلة . لقد تبعها وراح

يحييها بتغريدة . وبينما كانت ماري تثب نحوه ـشعرت بشيء ثقيل في جيبها وهو يضرب على جسمها عنـد كل قفزة ، وعندما رات ابا الحناء ضحكت ثانية وقالت له :

« لقد أرشدتني البارحة الى المفتاح . وعليك أن ترشدني اليوم الى الباب ؛ ولكن لا اعتقد انك تعرفه ! »

طار ابو الحناء من ارجوحته على غصن اللبلاب الى أعلى الحائط وفتح منقاره وصار يغني بصوت مرتفع لحناً جميلاً كنوع من المباهاة فقط ، فليس هنـاك شيء في العالم رائع للغايـة مثل أبو الحنـاء حين يتباهى ـ وهو يفعل ذلك دائماً تقريباً .

لقد سمعت ماري الكثير عن السحر في قصص مربيتها الهندية . ولقد كررتْ على الدوام بأن ما حدث في تلك اللحظة كان سحراً .

اندفعت عبر الممر إحدى نفحات الريح الصغيرة الحلوة وكانت أقوى من سابقتها ، كانت قوية الى درجة كافية لكي تحرك اغصان الأشجار . وكانت اكثر من قوية لكي تهز أغصان اللبلاب غير المشذبة والتي تلوح وهي معلقة على الجدار . اقتربت ماري كثيراً من أبي الحناء ؛ وفجأة أزاحت نفحة الريح بعض أغصان اللبلاب المتدلية . والموضوع المفاجيء هو عندما قفزت ماري نحوها وأمسكتها بيدها وقد فعلت ذلك لأنها رأت شيئاً تحتها ـ لقـد رأت قبضة مغطاة بالأغصـان المدلاة عليها ، إنهـا قبضـة باب .

وضعت ماري يديها تحت الأوراق وراحت تشدها وتدفعها جانباً . وبما أن اللبلاب كان كثيفاً فقد شكل ستارة فضفاضة ومهتزة ، رغم أن بعض الأوراق قد زحفت فوق الخشب والحديد . بدأ قلب ماري يضرب ويداها ترتجفان فرحاً وانفعالاً . تابع أبو الحناء غناءه وتغريده ورأسه باتجاه واحد ؛ وكأنه منفعل مثلها . ما هذا الذي تحت يديها مربـع

ومصنوع من الحديد ؛ واستطاعت أصابعها ان تتلمس وجود فتحـة في داخـله .

لقد كان قفل الباب الذي أغلق منذ عشر سنوات ، وضعت ماري يدها في جيبها وسحبت المفتاح فوجدته ملائماً لفتحة القفل . وضعت المفتاح وادارته . وكان عليها أن تستخدم كلتا يديها وأخيراً دار المفتاح .

بعد ذلك أخذت نفساً طويلاً ونظرت خلفها في الممر لترى فيما إذا كان هناك شخص ما سيأتي . فلم تجد احداً . ويبدو أن أحداً لم يأتِ الى هنا ، ثم أخذت نفساً طويلاً آخر لأنها لم تعد تتمالك نفسها ورفعت ستارة اللبلاب المتدلية ودفعت الباب فانفتح ببطء شديد انسلت ماري داخله وأغلقتـه خلفها ، ووقفت وظهرها له وهي تنظر حولها وتتنفس بسرعة وانفعال واستغراب وسرور .

إنها الآن تقف داخل الحديقة السرية .

# ٩ ـ اغرب بيت يمكن أن يعيش فيه إنسان على الاطلاق

كانت هذه الحديقـة المكان الاكثر عذوبة وغرابـة الذي يمكن أن يتصوره إنسان . فالجدران العالية التي تحيط بها كانت مغطاة بجذوع الورود المتسلقة والعارية من الأوراق ، كانت كثيفة الى درجة جعلتها تتشابك مع بعضها . وقد عرفت ماري بأنها ورود لأنها سبق أن رأت الكثير من الورود في الهند كانت الأرض مفروشة بالعشب البني اللون بسبب الشتاء ، وقد نبت بينها مجموعات من الشجيرات ، وهي بالتأكيد شجيرات ورد ، فيما لو كانت لا تزال حية . كان هناك عدد من الورود النموذجية التي انتشرت أغصانهـا حتى أنها أصبحت تشبه الأشجار الصغيرة . كما أن هناك أشجاراً أخرى في الحديقة ، ومن الأشيـاء التي جعلت المكان يبدو غريباً وأكثر جمالاً هي تلك الورود المتسلقة والمنتشرة والتي تدلت لوالبها وكأنها ستارة متحركة ، متماسكة ببعضها هنا وهناك أو بغصن يصعب الوصول إليه وزحفت من شجرة الى أخرى حتى صارت كالأبراج الجميلة . : إنها غير مكسوة بالأوراق أو الأزهار ولكن أغصانها الرمادية أو البنية تبدو كغطاء ضبابي ينتشر فوق كل شيء وعلى الجدران والأشجار وحتى على العشب البني ، لقد سقطت من مكانها وراحت تتدحرج على الأرض . إن هذا التشابك الغامض بين شجرة وأخرى هو الذي جعلها غامضة بهذا الشكل . لقد ظنت ماري أنها مختلفة عن غيرها من الحدائق التي لا تترك لفترة طويلة ، وفي الواقع كانت مختلفة عن أي مكان آخر رأته في حياتها .

وراحت تهمس : « كم هي ساكنة ! كم هي ساكنة ! »

ثم انتظرت لحظة وراحت تستمع من خلال السكون. أما أبو الحناء - الذي طار الى اعلى شجرته فقد وقف ساكناً مثل غيره دون أن يحرك حتى اجنحته ، لقد وقف دون حراك وهو ينظر الى ماري . وأخذت تهمس ثانية « لا غرابة انه هو أيضاً ساكن . فأنا اول شخص يتكلم في هذا المكان منذ عشر سنوات . »

ابتعدت ماري عن الباب ، وكانت تخطو بهدوء وكأنها خائفة من أن توقظ احداً . كانت سعيدة لوجود عشب تحت قدميها بحيث لا تحدث خطواتها اي صوت . وراحت تمشي تحت احد الأقواس السحرية بين الأشجار وهي تنظر الى الأغصان واللوالب المتشابكة وتقول :

« لا أدري إن كانت كلها ميتة ، وهل كل الحديقة ميتة تماماً ؟ وأرجو أن لا تكون كذلك . »

ولو كانت ماري بن ديفرستاف لاستطاعت أن تميز فيما إذا كان الخشب حياً بمجرد النظر إليه ، ولكنها لم تر سوى اغصاناً لا يوجد عليها اي مؤشر لوجود برعم ورقة في أي مكان .

إنها الآن داخل الحديقة الرائعة وتستطيع الدخول من الباب الموجود خلف اللبلاب في أي وقت . لقد شعرت وكأنها وجدت عالماً خاصاً بها فقط .

كانت الشمس مشرقة داخل الجدران الأربعة ، والقبة السماوية تبدو فوق هذه القطعة من ميسلويث براقة ورقيقة أكثر مما هي عليه فوق السبحة . طار أبو الحناء من أعلى الشجرة الى الأرض وراح يقفز أو يطير خلفها من غصن الى آخر . لقد غنى كثيراً وكان منهمكاً كثيراً وكأنه يريدها أن ترى الأشياء . كل شيء كان غريباً وصامتاً ، شعرت

ماري وكأنها على بعد مئات الأميال عن اي إنسان ، ولكنهـا لم تشعر بالوحدة الى حد ما . وكل ما كان يقلقها هو أن تعرف فيما إذا كانت كل الورود ميتة ، أو ان بعضها يعيش ويمكن أن يعطي أوراقاً وبراعم عندما يصبح الطقس أكثر دفئاً . لا تريد ماري ان تكون كل الحديقة ميتة تماما . فكم ستكون جميلة لو كانت حديقة حية تماماً . حيث ستنمو آلاف الورود من كل جانب

كان حبل الوثب معلقاً على ساعدها عندما دخلت الحديقة . وبعد أن مشت فترة فكرت في أن تلعب بالحبل حول الحديقة ثم تتوقف حيث تريد رؤية الأشياء . ويبدو أنه كان يوجد ممرات من العشب هنا وهناك، وفي إحدى الزاويتين كانت توجد مظلة دائمة الخضرة وكراسٍ حجرية أو أوعية معدنية مغطاة كلها بالطحالب .

وعندما اقتربت من المظلة الثانية توقفت عن الوثب . لقد كان فيها حوض للأزهار وظنت أنها رأت شيئاً يخرج من التربة السوداء ــ بعض الرؤوس الخضراء الشاحبة الصغيرة والحادة ، فتذكرت ما قاله بن ويذرستاف وانحنت لكي تنظر إليها . همست ماري : « نعم ، هذه نبتات صغيرة تنمو وربما كانت زعفراناً أو زهرة الثلج أو نرجساً » .

وانحنت حتى اقتربت منها كثيراً وراحت تشم رائحة الأرض الرطبة المنعشة التي كانت تحبها كثيراً . ثم قالت :

« ربما يكون هناك نبتات أخرى تنمو في مكان آخر ، سأطوف كل الحديقة وأتفقدها » .

ولم تثب بل مشت على قدميهـا ببطء وعيناهـا علـى الأرض . أخذت تنظر في حواف الأحواض القديمة على العشب ، وبعد أن قامت بجولتها وهي تحاول أن لا يفوتها شيء وجدت الكثير من الرؤوس الخضراء الشاحبة والحادة وقد أثارها ذلك ثانية .

وصاحت بهدوء وحدها « إنها ليست حديقة ميتة تماماً ، وحتى لو كانت الورود ميتة فهناك اشياء اخرى حية » .

لم تكن ماري تعرف شيئاً عن البستنة إلا أن العشب كان يبدو كثيفاً جداً في بعض الأماكن حيث الرؤوس الخضراء تشق طريقها من خلاله ، مما جعلها تفكر أن هذه الرؤوس لاتجد مكاناً كافياً لتنمو فيه . وراحت تبحث حولها حتى وجدت قطعه حشب حادة نوعاً ما فانثنت وراحت تحفر وتزيل الأعشاب الضارة والعشب حتى صنعت مساحات صغيرة وجميلة حولها . فقالت :

والآن يبدو أنها تستطيع التنفس . وبعد ان انتهت من القسم الأول قالت سأنظف الكثير منها . وسأنظف كل الرؤوس التي اراها . فإذا لم يكن الوقت كافياً اليوم فسآتي في الغد . واخذت تنتقل من مكان الى آخر وتحفر وتعشب ، وتمتع نفسها كثيراً بحيث صارت تنتقل من حوض لآخر ثم الى العشب تحت الأشجار . لقد جعلها هذا التمرين تشعر بالدفء بحيث رمت معطفها أولاً ثم قبعتها ، وكانت وقتها تبتسم للأعشاب والرؤوس الخضراء دون أن تشعر .

أما أبو الحناء فقد كان مشغولاً كثيراً ، ومسروراً جداً وهو يرى بدء أعمال البستنة في مملكته الخاصة . كان يستغرب دوماً عمل بن ويذرستاف . ففي المكان الذي يقوم فيه بأعمال البستنة تنمو كافة الأنواع اللذيذة للأكل من التربة . والآن هذه المخلوقة الجديدة التي لا يصل حجمها الى نصف حجم بن شعرت أن عليها أن تأتي للحديقة وتعمل فيها على الفور .

وظلت الآنسة ماري تعمل في حديقتها حتى حان الوقت كي تذهب لتناول طعام الغداء . وفي الواقع فقد مر الوقت دون أن تتذكر ، وعندما لبست معطفها وقبعتها وحملت حبل الوثب لم تصدق أنها قد عملت لمدة ساعتين أو ثلاث . لقد كانت سعيدة فعلا كل الوقت ، وعشرات

العشرات من تلك الرؤوس الخضراء الشاحبة اسبحت تراها في اماكن نظيفة وهي مشرقة اكثر بكثير مما كانت عليه عندما كانت الأعشاب الضارة والعشب تحيط بها . فقالت لنفسها « سأعود بعد الظهر » وهي تنظر من حولها الى مملكتها وتتحدث الى الأشجار وشجيرات الورد وكأنها تسمعها .

تم ركضت على العشب وفتحت الباب القديم البطيء وخرجت منه تحت اللبلاب . كان خداها متوردان وعيناها تلمعان فتناولت غداءً جيداً مما جعل مارثا مسرورة فقالت لها .

« قطعتين من اللحم واثنتين من حلوى الأرز . حسناً ! إن أمي ستكون مسرورة عندما أخبرها ماذا فعل بك حبل الوثب . »

عندما كانت ماري تحفر وجدت نوعاً من الجذور البيضاء تشبه البصل ، أعادتها الى مكانها ورتبت التربة فوقها بعناية . وتسآلت فيما إذا كانت تستطيع أن تخبرها ما هي . فسألتها :

« مارثا ، ما هي تلك الجذور البيضاء التي تشبه البصل ؟ »

أجابت مارثا « إنها بصلات أزهار ، وينبت منها الكثير من أزهار الربيع ، فالصغيرة منها زهرة الثلج والزعفران والكبيرة منها هي النرجس الأصفر والأبيض والنب ، والأكبر منها هي السوسن . إنها جميلة . لقد زرع ديكون في حديقتنا الصغيرة الكثير منها . »

سألت ماري : « هل يعرف ديكون كل شيء عنها ؟ » وقد تملكتها فكرة جديدة .

أجابت : « إن ديكون يمكنه أن ينبت الأزهار من الحائط الآجري . وتقول أمي انه مجرد أن يهمس فإن الأشياء تخرج من الأرض . »

سألت ماري بقلق « وهل تعيش بصلات الأزهار مدة طويلة ؟ وهل تعيش لسنوات وسنوات دون أن يهتم بها أحد . »

قالت مارثا : « إنها مجرد أشياء ويمكنها مساعدة نفسها . ولذلك يستطيع الفقراء الحصول عليها . وإذا لم يؤذها أحد فإن معظمها يبقى تحت الأرض مدى الحياة ، وتمتد وتتفرع عنها بصيلات . هناك مكان في حديقة الغابة حيث توجد زهرة الثلج بالآلاف . إنه أجمل منظر في في يوركشاير عندما يأتي الربيع . ولا أحد يعرف متى غرست هذه الزهرة لأول مرة . »

قالت ماري : « كم كنت اتمنى لون أن الربيع قد جاء . أريد أن ارى كل الأشياء التي تنمو في انكلترا . »

انتهت ماري من تناول غدائها وانتقلت الى مكانها المفضل على سجادة الموقد . وقالت :

« كم كنت أتمنى وأتمنى أن يكون لدي رفشاً صغيراً . »

سألت مارثا وهي تضحك « لماذا تريدين الرفش ؟ هل ستعملين بالحفر ؟ لا بد أن اخبر أمي بهذا أيضا . »

نظرت ماري الى النار وراحت تتأمل . فإذا أرادت المحافظة على مملكتها السرية فلا بد أن تكون حذرة . لم تكن تفعل ما هو مؤذٍ ولكن إذا اكتشف السيد كريفن أمر الباب المفتوح فسيغضب كثيراً وسيحضر مفتاحا وقفلاً جديدين ليغلقه الى الأبد . وفي الواقع لن تتحمل ذلك .

قالت ببطء وكأنها تعيد الأشياء في ذهنها « هذا مكان كبير وموحش ، والبيت موحش وكذلك الحديقة الكبيرة والحدائق الأخرى . معظم الأماكن تبدو مغلقة . لم أكن أفعل الكثير في الهند ، ولكن كان هناك اناس أكثر ــ الهنود والجنود وهم يسيرون بالقرب مني وأحياناً فرق

موسيقية تعزف ، ومربيتي تقص علي القصص . اما هنا فلا يوجـد من أتحدث إليه سوى بن ويذرستاف . لذلك فكرت إذا كان لدي رفشـاً استطيع ان أحفر في مكان ما كما يفعل بن فإني أستطيع عمـل حديقـة صغيرة إذا أعطاني بعض البذور » .

أشرق وجه مارتا وقالت متعجبة « هذه هي أحد الأشياء التي قالتها أمي : « هناك مجال كبير في هذا المكان الواسع . فلماذا لا يعطونها جزءاً منه ، وحتى لو لم تزرع شيئاً سوى البقدونس والفجل ؟ فستقوم بالحفر والجرف وسيسعدها ذلك . » هذه هي كلماتها حرفياً . »

قالت ماري : « هل هذه كلماتها ؟ كي من الأشياء تعرفها أمك . اليس كذلك ؟ »

قالت مارثا : « نعم ، فهي تقول بأن المرأة التي تنجب إثني عشر طفلاً فإنها تتعلم معهم ، بالإضافة الى تعلم الحروف الهجائية أ ، ب ، ج . . . ، وبعضاً من الرياضيات التي تساعدها في حساب الأمور . »

سألت ماري : « كم يكلف الرفش ــ رفش صغير ؟ »

كان جواب مارثا التأملي : « حسناً ، لقد رأيت في مخزن صغير في ثوايت مجموعة عدة حديقة صغيرة تضم رفشاً ومدمة وشوكة وكلها لقاء بنسين ، وهي متينة لدرجة يمكن العمل بها أيضاً . »

قالت ماري : « يوجـد في محفظتي أكثر من ذلك ، لقـد أعطتني السيدة موريسون خمسة شلنات ، كما أعطتني السيدة ميدلوك بعض النقود من السيد كريفن . »

تساءلت مارثا : « هل يتذكرك الى هذا القدر ؟ »

« لقد قالت السيدة ميدلوك انني سأحصل على شلن واحـد كل أسبوع كي أنفقه وهي تعطيني شلناً كل يوم سبت . ولا ادري كيف انفقها . »

قالت مارثا : « يا إلهي ! إنك غنية . وتستطيعين شراء اي شيء تريديه . إن اجرة كوخنا هي شلن وثلاثة بنسات . ومن الصعوبة بمكان جمع هذا المبلغ . لقد خطرت لي فكرة الآن » ثم وضعت مارثا يديها على وركهـا :

قالت ماري بشوق « ما هو ؟ »

« إنهم يبيعون في مخزن ثوايت مغلفات لبذور ازهار وكل مغلف ثمنه بنس ، وديكون يعرف ما هي الأنواع الأجمل وكيفية زرعها . وهو يذهب الى ثوايت كثيراً كل يوم للتسلية . هل يمكنك رسم الحروف ؟ »

اجابت ماري : « إنني اعرف الكتابة . »

هزت مارثا رأسها : « إن ديكون لا يعرف أن يقرأ سوى الأحرف المرسومـة ، فإذا امكنك ذلك اكتبي رسالة لـه واطلبي منه أن يذهب ويشتري لك عدة الحديقة والبذور معاً . »

صاحت ماري : « انت فتاة طيبة ! انت فعلاً طيبة . لم أكن أدري انك لطيفة . إذا حاولت أستطيع رسم الحروف . وسنطلب من السيدة ميدلوك قلماً وحبراً وبعض الأوراق . »

قالت مارثا : « لدي بعضاً منها . لقد اشتريتها لأنني أستطيع طباعة بعض الأحرف الى أمي يوم الأحد . »

خرجت مارثا من الغرفة وهي تركض ، ووقفت ماري بالقرب من الموقد وهي تفرك يديها معاً بسعادة لا متناهية . وهمست « إذا كان

عندي رفش أستطيع أن اجعل الأرض جميلة ناعمة واقتلع الأعشاب الضارة . وإذا كانت عندي بذور فسأجعل الأزهار تنمو ، ولن تموت الحديقة أبداً ـ إنها ستعيش . »

لم تخرج ماري إلى الحديقة بعد ظهر ذلك اليوم ، لأنه عندما عادت مارثا ومعها الحبر والقلم والورق كان عليها تنظيف الطاولة وحمل الاطباق والصحون إلى الأسفل ، وعندما وصلت إلى المطبخ وجدت السيدة ميدلوك هناك وطلبت منها صنع بعض الأشياء ، ولذلك انتظرت ماري على مايبدو فترة طويلة قبل أن تعود مارثا . وبعد ذلك كان موضوع الكتابة الى ديكون أمراً مهماً . لم تتعلم ماري إلا القليل لأن مربيتها لم تكن تحبها كثيراً ولا تطيق الجلوس معها . ولم تكن ماري قادرة على تهجية الكلمات جيداً ، ولكنها وجدت نفسها قادرة على رسم الحروف عندما حاولت ذلك . وفيما يلي الرسالة التي أملتها عليها مارثا :

عزيزي ديكون :

أرجو أن تكون بحالة جيدة وانت بعيد عني الآن . لدى الآنسة ماري الكثير من النقود ، هل يمكنك الذهاب إلى ثوايت لتشتري لها بعض بذور الأزهار ومجموعة عدة الحديقة لكي تصنع حوضاً للأزهار . اختر لها الأجمل والأسهل زراعة لانها لم تقم بمثل هذا العمل من قبل لأنها كانت تعيش في الهند التي تختلف تماماً عن هنا . بلغ حبي إلى امي وكل فرد منكم . ستخبرني الآنسة ماري الكثير ، وبالتالي ستسمع مني في يوم عطلتي القادم الكثير عن الفيلة والجمال والرجال الذين يذهبون لصيد الأسود والنمور .

اختك المحبة

مارثا فويب ساورباي

قالت مارثا « سنضع النقود داخل الظرف وسأعطيه إلى اجير اللحام ليأخذه في عربته . إنه صديق حميم إلى ديكون . »

سألت ماري : وكيف سأحصل على الأشياء عندما يشتريها ديكون؟

اجابت مارثا : « سيحضرها بنفسه لك . إنه يحب ان يمشي في الطريق الى هنا » .

صرخت ماري آه ! إذن سأراه ! لم يخطر لي بأنني سأرى ديكون .

سألت مارثا : « هل تريدين رؤيته » ؟ وقد بدا عليها السرورفجأة .

اجابت ماري : « نعم بالتأكيد . فأنا لم أر ولداً تحبه الثعالب والغربان . أحب رؤيته كثيراً » . تنبهت مارثا قليلاً وكأنها تذكرت شيئاً فجأة .

واندفعت قائلة : «والآن اعتقد انني نسيت أن أخبرك منذ الصباح . لقد سألت أمي ــ وقالت لي بأنها ستطلب من السيدة ميدلوك بنفسها .

بدأت ماري : هل « تقصدين » .

تابعت مارثا ، كما قلت لك يوم الثلاثاء ستطلب منها ان تذهبي إلى كوخنا يوماً ما وتأكلين قليلا من فطيرة الشوفان الساخنة مع الزبدة وكأساً من الحليب .

يبدو وكأن الأشياء الجميلة تحدث معاً في يوم واحد . فكرة الذهاب عبر السبخة وفي ضوء النهار حين تكون السماء زرقاء ! وفكرة الذهاب الى الكوخ الذي يضم اثني عشر طفلاً !

سألت ماري بقلق بالغ هل تظن أمك أن السيدة ميدلوك ستسمح لي بالذهاب » ؟

« نعم تعتقد بأنها ستوافق . إنها تعرف كم أمي مرتبة وكم تحافظ على نظافة كوخنا » .

قالت ماري : « إذا ذهبت فإنني سأرى أمك وديكون » ثم فكرت بالأمر ثانية فأعجبتها الفكرة « يبدو أن امك لا تشبه االأمهات في الهند ».

انتهى عملها في الحديقة صباحاً والحديث المثير بعد ظهر ذلك اليوم بحيث شعرت بهدوء نام وراحت تفكر طويلاً . وجلست مارثا معها حتى موعد تناول الشاي ، وكانت جلستهما مريحة وهادئة ولم تتحدثا إلا قليلاً . وقبل أن تذهب مارثا لتحضر صينية الشاي سألتها ماري قائلة :

« مارثا . هل أصيبت الخادمة المسؤولة عن تنظيف الصحون مرة اخرى بالم في أسنانها اليوم ؟ »

وبالتأكيد فقد ارتعشت مارثا قليلاً وقالت :

« ما الذي يدفعك لمثل هذا السؤال ؟ » .

أجابت : « لأنني عندما انتظرتك طويلاً حتى تعودي ، فتحت الباب ومشيت في الممر حتى أرى إن كنت قد عدت . فسمعت ذلك البكاء من بعيد ثانية . تماماً مثل البكاء الذي سمعناه في الليلة السابقة ، فلا يوجد هواء اليوم ، ولهذا لا يمكن أن يكون الصوت صوت ريح » .

قالت مارثا بقلق : « يجب أن لا تمشي في الممرات وتستمعي . لأن السيد كريفن سيغضب إذا علم بذلك. ولا أحد يعلم ماذا يمكن أن يفعل»
قالت ماري : « لم أكن أستمع بل كنت أنتظرك فقط فسمعت ذلك ـ وهذه هي المرة الثالثة » ( يا إلهي ! هذا جرس السيدة ميدلوك ) قالت ذلك مارثا وهي تركض خارج الغرفة. قالت ماري وقد غالبها النوم: هذا أغرب بيت يمكن أن يعيش فيه إنسان على الاطلاق ، ثم وضعت رأسها على وسادة الكرسي الذي كان بجانبها ، فقد جعلها الهواء النقي والحفر والوثب بالحبل تشعر بتعب مريح وراحت تغط بالنوم .

## ١٠ ـ ديكـــون

أشرقت الشمس على الحديقة السحرية ما يقارب الأسبوع ـ وهذا هو الاسم الذي اطلقته ماري على الحديقة عندما كانت تفكر بها. لقد احبت الاسم، والشيء الذي احبته أكثر هو شعورها عندما كانت تعزلها جدران الحديقة ولا أحد يعرف أين هي. كانت تشعر وكأنها في عزلة عن العالم في مكان سحري ما. فالكتب القليلة التي قرأتها وأحبتها كانت قصصاً عن الجن. لقد قرأت في بعض القصص عن حدائق سرية. وكان الناس يذهبون كي يناموا فيها مئات السنين، وقد كانت تعتقد بأن الأمر غير معقول. لم تكن لديها الرغبة في النوم، وفي الواقع، أصبحت تستيقظ مدة أطول في كل يوم تقضيه في ميسلثويت. لقد بدأت تحب البقاء خارج البيت، ولم تعد تكره الرياح بل تستمتع إليها. صارت تركض أكثر ومدة أطول وتستطيع الوثب بالحبل حتى مائة مرة. ولا بد أن بصلات الأزهار في الحديقة بدأت تتعجب. فقد صارت حولها مساحات نظيفة حلوة بحيث أصبحت لديها المساحة التي تحتاجها للتنفس، وفي الواقع لم تكن الآنسة ماري تعلم ذلك، فقد بدأت البصلات بالانتعاش والعمل داخل التربة المظلمة الى حد كبير. واستطاعت الشمس أن تدخل إليها وتدفئها، وعندما هطل المطر استطاع ان يدخل إليها فوراً بحيث جعلها تشعر بحيوية كبيرة.

كانت ماري فتاة صغيرة غريبة وذات إرادة قوية، وقد انهمكت بالفعل وهي تعمل وتحفر وتزيل الأعشاب الضارة باستمرار، وأخذت تشعر في كل ساعة بسرور متزايد في عملها بدل أن تشعر بالتعب.

فالموضوع كان بالنسبة لها ضرباً من السحر . وقد وجدت من الرؤوس الخضراء الشاحبة المبرعمة اكثر مما كانت تتوقع . ويبدو أنها قد بدأت تنمو في كل مكان . وفي كل يوم كانت على يقين انها ستجد رؤوساً صغيرة اخرى كادت ان تخرج فوق سطح الأرض، وكان منها الكثير بحيث نذكرت ما قالته مارثا لها عن « الآلاف من زهرة الثلج » وعن البصل الذي ينفصل ويتفرع عنه بصل صغير جديد . فالبصل هنـا ترك وحده منذ عشـر سنوات وربما قد تفرع عنه الآلاف مثل زهرة الثلج . وتساءلت ماري كم ستحتاج من الوقت حتى تصبح أزهاراً . كانت تتوقف أحياناً عن الحفر لتنظر الى الحديقة وهي تحاول تخيلها وما يمكن أن تكون عليه عندمـا تغطيها آلاف الأزهار الجميلة .

وخلال الأسبوع الذي اشرقت فيه الشمس صـارت على علاقـة وطيدة مع بن ويذرستاف . ولقد اذهلته عدة مرات عندما ظهرت أمامه وكأنها خرجت من الأرض . والحقيقة هي أنهـا كانت تخاف أن يحمـل أدواته ويذهب إذا رآها قادمة ، ولهذا كانت دوماً تسير باتجاهه بقـدر ما تستطيع مـن الهدوء . ولكـن ، في الواقع ، لم يعـد بن ويذرستاف يعارض وجودها بشدة كما كان يفعل من قبل . وربما قد سره ضـمناً رغبتها الواضحة في صحبة ذلك الرجل العجوز . ثم إنها صارت أكثـر تهذيباً مما كانت عليـه . ولم يكن يدرِ أنهـا حين تحدثت معـه أول مرة كانت تكلمه وكأنه هندي ، ولم تكن تعرف أن هذا الرجل العجوز الصلب من يوركشاير ليس من عادته تقديم الولاء لسادته او تلقي الأوامر منهم .

وفي صباح احد الأيام عندما رفع رأسه ورآها واقفة أمامه قال لها: « انت مثل أبي الحناء ، لا أدري متى أراك ومن أي جهة يمكن أن تأتي . »

قالت ماري : « لقد صار صديقاً لي الآن . »

أجاب بن ويذرستاف بحدة : « هذا من طبعه ، يتودد الى النساء بقصد التباهي . فهو مستعد لعمل كل شيء من أجل الظهور وهو يهز

ذبله . إنه ممتلىء بالغرور مثل البيضة الممتلئة بلحم الفرخ » . نادراً ما كان يتحدث ويدرستاف ، وفي بعض الأحيان لم يكن يرد حتى على اسئلة ماري إلا بإيماءة . ولكن هذا الصباح تحدث بصورة غير مألوفة. فوقف ووضع طرف حذائه المليء بالمسامير على الرفش وراح ينظر إليها .

قال بصوت متقطع : « منذ متى وانت هنا ؟ »

اجابت : « اعتقد منذ حوالي الشهر » .

قال : « لقد أصبحت مدينة الى ميسلثويت. فانت الآن اكثر سمنة مما كانت عليه . ولم يعد وجهك أصفر كما كان من قبل . فعندما أتيتِ لأول مرة الى الحديقة كنت تشبهين الغراب الصغير الذي لم ينبت ريشه . فقلت لنفسي أنني لم ارَ وجهاً اقبح وأكثر نكداً من وجهك » .

لم تكن ماري مزهوة ، وبما أنها لم تفكر بنظراتها ابداً فهذا يعني أنها لم تنزعج كثيراً . فقالت :

« أعلم بأنني أكثر بدانة ، لأن جواربي اصبحت أضيق بحيث صارت تترك أثر حلقات على ساقي . هذا هو أبو الحناء يا بن ويدرستاف » .

وبالفعل كان أبو الحناء عندما رأته ، يبدو أجمل من اي وقت مضى كان صدره الأحمر ناعماً كالحرير وراح يهز بجناحيه وذيله ويحرك رأسه ويقفز في كل مكان بكل أشكال الرشاقة الحيوية . ويبدو انه مصمم على جعل بن ويدرستاف يعجب به . ولكن بن راح يسخر منه قائلاً :

« حسناً هذا انت ! إنك تتحملني أحياناً عندما لا يكون أفضل مني. وها أنت منذ اسبوعين تجعل صدرك أكثر حمرة وتلمع ريشك . انا اعلم ماذا تقصد . إنك تغازل سيدة صغيرة ، فأنت تخبرها أكاذيبك بطريقة ما ، إنك أجمل طائر في سبخة ميسيل ، وعلى استعداد لقتال الجميع .

تعجبت ماري « آه ! انظر اليه » .

كان من الواضح ان ابا الحناء في مزاج جريء ساحر . فقد راح يقفز ويقترب أكثر فأكثر . وهو ينظر الى بن ويذرستاف بجاذبية أكثر . ثم طار الى أقرب شجيرة ومد راسه وراح يغني له اغنية صغيرة .

قال بن « هل تظن انك ستتغلب علي إذا فعلت ذلك » ، وتجعد وجهه بطريقة جعلت ماري تشعر بانه لا يريد أن يظهر شعوره بالرضى ، ثم تابع « هل تظن أن احداً لا يستطيع الوقوف في وجهك ـ أعتقد هذا هو ما تفكر بـه » .

نشر أبو الحناء جناحيه ـ لم تكن ماري لتصدق عينيها ـ وطار مباشرة ليقف على ذراع رفش بن ويذرستاف فوقف على رأس الذراع ومباشرة بعد ذلك تجعد وجه الرجل العجوز ببطء وهو ينم عن تعابير جديدة . ووقف دون حراك وكأنه حريص على أن لا يتنفس ـ وربما لن يتحرك من أجل العالم كله ـ خشية أن يطير أبو الحناء بعيداً . وراح يتحدث همساً بصورة لطيفة وكأنه يقول شيئاً مختلفاً : حسناً ، فأنا خطير ! وانت تعرف كيف تثير الاهتمام ـ نعم انت تعرف ذلك ! ذلك أمر خارق للطبيعة ، وانت تعلم ذلك .

وعاد ليقف دون حراك ـ وبالكاد يسحب أنفاسه ـ الى أن حرك أبو الحناء جناحيه ثانية وطار بعيداً . بعد ذلك راح ينظر الى ذراع رفشه وكأن فيها سحراً ، وعاد ليحفر ثانية وتوقف عن الحديث عدة دقائق .

وبما أن بن كان يبتسم وهو مكشر ببطء بين الحين والآخر فلم تكن ماري خائفة من التحدث معه . فسألته هل لديك حديقة خاصة بك ؟

أجابها : « لا ، فأنا عازب وأسكن مع مارتن قرب البوابة » .

سألته « لو كان لديك حديقة ماذا تزرع فيها ؟ »

اجاب « الملفوف والبطاطا والبصل . »

ولكن ماري أصرت : « ولكن إذا كنت تريد حديقة للأزهار ، ماذا تزرع فيها . »

«بصل الزنبق وازهاراً ذات رائحة طيبة ــ ولكن ازرع معظمها وروداً»

أشرق وجه ماري وقالت « هل تحب الورد » ؟

وقبل أن يجيب بن ويذرستارف اقتلع إحدى الأعشاب الضارة ورمى بها بعيداً .

« حسناً ، نعم احبها . لقد تعلمت ذلك من سيدة شابة كنت أعمل بستانياً عندها . وكان لديها الكثير من الورود في مكان كانت مولعة به . لقد كانت تحب الورود وكأنهم أطفال أو مثل أبي الحناء . كنت اراهــا كيف كانت تنحني فوق الورد وتقبله . ثم قتلع بن عشبة أخرى وقطب جبينه وهو ينظر إليها ، ثم تابع ، كان ذلك منذ عشر سنوات مضت » .

سألت ماري باهتمام أكبر « وأين هي الآن ؟ »

أجاب «في السماء كما قال القس» وراح يدفع برفشه داخل التربة» وبقيت الورود وحيدة . أصبحت ماري أكثر حماساً وسألت بجرأة « هل ماتت الورود ؟ وهل تموت الورود عندما تترك وحدها ؟ اعترف بن ويذرستاف على مضض » حسناً ، لقد أحببت تلك الورود ــ وأحببت السيدة ــ وأحبت هي الورود . ولهذا أذهب مرة أو مرتين في السنة لأعتني بها قليلا فأعشبها وأحفر حول الجذور . لقد أصبحت وروداً برية ولكنها موجودة في تربة خصبة . ولهذا فإن بعضها لا يزال حياً .

سألت ماري « عندما تكون الورود بدون أوراق ولونها يبدو رمادياً وبنياً وتكون جافة فكيف تستطيع أن نعرف ان كانت لا تزال حية أم لا ؟

أجاب بن « انتظري حتى يأتي الربيع – وحتى تسطع الشمس عليها ثم تسقط المطر ؛ وبعدها ستعرفين .

صاحت ماري وقد نسيت حذرها « كيف – كيف » ؟

أجابها « انظري الى الفروع والأغصان فإذا رأيت كتلاً بنية منتفخة هنا وهناك يمكنك مراقبتها بعد مطر دافيء وسترين ماذا يحدث » . توقف بن فجأة ونظر باستغراب في وجه ماري الفضولي وسألها « لماذا تهتمين كثيراً بالورود ، بهذه الطريقة المفاجئة » ؟

شعرت الآنسة ماري باحمرار وجهها . وكانت شبه خائفة من الاجابة :

« أريد – أريد أن ألعب هذه اللعبة – أن يكون لي حديقة خاصة بي » وراحت تتلعثم « فأنا ليس لدي ما أعمله – ليس لدي شيء – وليس لدي أحد » .

قال بن ويذرستاف ببطء وهو يراقبها « حسناً ، هذا صحيح فليس لديك شيء » .

قال كلماته بطريقة غريبة جعلت ماري تتساءل فيما إذا كان فعلا حزيناً عليها . فلم يسبق أن شعرت بالأسى على نفسها مطلقاً ، كل ما كانت تشعر به هو التعب والعصبية لأنها كانت تكره الناس والأشياء كثيراً ، أما الآن فيبدو أن العالم قد تغير وأصبح أجمل . وإذا لم يكتشف أحد الحديقة السرية فستستمتع بها وحدها دوماً .

بقيت معه حوالي عشر أو خمس عشرة دقيقة وسألت العديد من الأسئلة التي تجرأت عليها . وأجاب عن كل سؤال بطريقته الغريبة الخشنة ، دون أن يظهر عليه الغضب أو أن يحمل رفشه ويتركها وبينما كانت تغادر قال شيئاً عن الورود ذكّرها بما قاله عمن كان مغرماً بها .

فسألته : « اما زلت تذهب لترى تلك الورود الآن » ؟

« لم اذهب منذ سنة لأن الحمى الرثوية جعلت مفاصلي صلبة جداً » . قال كلماته هذه بصوت أجش وفجأة بدا وكأنه غاضب منها رغم أنها لم تجد مبرراً لذلك .

وقال بحزم « والآن انظري هنا ! لا تسألي اسئلة كثيرة . انت اسوأ فتاة رأيتها في طريقة طرحها للأسئلة . اذهبي والعبي . لقد تكلمت كثيراً اليوم » .

قال كلماته غاضباً حتى أنه لم يعد هناك أي مجال للوقوف دقيقة اخرى . فراحت تثب ببطء عبر الممر الخارجي وهي تفكر به وتحدث نفسها ، فبالرغم من غرابة الموقف ، إلا أنها وجدت شخصاً آخر تحبه رغم غضبه ، لقد أحبت بن ويذرستاف . نعم لقد أحبته ، وكانت تحاول دوماً التحدث معه وتدفق للحديث معها . كما بدأت تعتقد أنه يعرف كل شيء في العالم عن الورود .

كان هناك ممر مسور بالغار يحيط بالحديقة السرية . ظنت ماري أنها تستطيع الوثب بالحبل حول الممر فترى الغابة وترى فيما إذا كانت هناك أرانب تقفز فيها . استمتعت بالوثب كثيراً حتى وصلت الى بوابة صغيرة ففتحتها ودخلت من خلالهـا لأنها سمعت صوت صفير متميز ومنخفض رغبت في معرفة ذلك الصوت .

لقد كان شيئاً غريباً بالفعل وحبست انفاسها عندما توقفت لتنظر إليه . إنه فتى يجلس تحت الشجرة وظهره لها يعزف على مزمار خشبي خشن . كان منظره مضحكاً وعمره حوالي الثانية عشرة . ولكنه نظيف وأنفه مرفوع للأعلى وخداه ورديان مثل الخشخاش ، ولم ترَ ماري وجهاً مستديراً وعينان زرقاوان مثل وجه وعيني هـذا الصبي . وعلى جذع شجرة أمامه وقف سنجاب رمادي وقد تعلق بجذع الشجرة وراح ينظر

الى الصبي ، ومن خلف جذع الشجرة وقف حجل يمد عنقه بنعومة ليختلس النظر ، وبالقرب منه تماماً جلس ارنبان يستنشقان بأنفيهما المرتجفين ــ وفي الواقع يبدو وكأنهم جميعاً يقتربون منه لكي يراقبوا ويستمعوا الى النداء الغريب المنخفض والصفير الذي يصدر عن مزماره.

وعندما رأى ماري رفع يده وتحدث معها بصوت منخفض تماماً يشبه مزماره قائلاً :

« لا تتحركي لانهم سيطيرون » .

وقفت ماري دون حراك وتوقف هر عن العزف على المزمار وبدأ يرتفع عن الأرض . كان يتحرك ببطء وكأنه لا يتحرك ، وأخيراً وقف الفتى على قدميه وتراجع السنجاب ليختفي بين اغصان الأشجار وسحب الحجل رأسه ، ووقف الأرنبان على قوائمهما الأربعة وبدآ يقفزان بعيداً دون أن يبدو عليهما الخوف على الاطلاق .

قال الفتى « أنا ديكون ، وأعلم أنك الآنسة ماري » .

في تلك اللحظة أدركت ماري بأنها عرفته منذ البداية . ومَن غير ديكون يستطيع سحر الأرانب والحجل مثلما يسحر السكان المحليون في الهند الأفاعي ؟ كان فم ديكون واسعاً أحمر منحنياً وابتسامته تنتشر على كل وجهه .

وأخذ يشرح « لقد نهضت متمهلاً لأنه إذا تحركت بسرعة فإنها ستخاف . ويجب أن نتحرك بلطف ونتحدث بصوت منخفض إذا كانت تلك الحيوانات البرية حولنا » .

لم يكن حديث ديكون الى ماري حديث من يتقابلان لأول مرة ، بل حديث من يعرفان بعضهما جيداً .

اما ماري فلم تكن تعرف شيئاً عن الفتيان فكانت تتحدث معه بطريقة خشنة بعض الشيء لأنها شعرت بشيء من الخجل .

فسألته « هل تلقيت رسالة مارثا » ؟

هز رأسه بشعره المجعد المجعد المصفر قائلا « ولهذا أتيت » .

وانحنى ليلتقط شيئاً ما ملقى الى جانبه على الارض ، ثم بدأ يتحدث بصوت حاد « لقد اشتريت عدة الحديقة . وفيها رفش وشوكة ومدمة ومعزقة . حسناً ! إنها جيدة ، وبينها أيضاً أداة التسوية . وقد وضعت البائعة رزمة صغيرة من بذور أزهار العائق البيضاء والزرقاء . وقد اشتريت انا انواعاً أخرى » .

قالت ماري « هلاّ أريتني البذور » ؟

كانت تتمنى أن تتحدث بطريقة ديكون . فقد كان حديثه سريعا وسهلاً . ويبدو أنه أحبها ولم يكن خائفاً على الاطلاق أن لا تحبه رغم أنه صبي عادي من السبخة في ثياب مرقعة وله وجه مضحك ورأس ذو شعر خشن مائل للحمرة . وعندما اقتربت منه بدأت تشم رائحة الخلنج والعشب والأوراق من حوله وكأنه مزيج من هذه الروائح . لقد أحبتها كثيراً ، وعندما نظرت الى وجهه المضحك وخديه الورديين وعينيه الزرقاوين المستديرتين نسيت خجلها .

قالت له « لنجلس على هذا الجذع وننظر إليها » .

جلس الاثنان وأخرج ديكون من جيبه رزمة ورق بنية غير مرتبة . وفك الخيط كانت في داخلها رزم صغيرة متعددة أكثر أناقة وعلى كل واحدة صورة الزهرة الممثلة لها .

ثم قال لها : « يوجد الكثير من البليحاء العطرية والخشخاش . أما البليحاء فلها رائحة عذبة جداً عندما تزهر وهي تنمو في أي مكان تضعينها

فيه وكذلك الخشخاش . وهذه البذور عندما تزهر ما عليك إلا ان تصغي لها وستكون اجمل من اي شيء آخر » .

توقف ديكون وادار راسه بسرعة، كان وجهه مشرقاً وكذلك وجنتاه. فقـال :

« اين أبو الحناء الذي ينادينا » ؟

لقد جاء صوت تغريده من شجيرة كثيفة تلمـع عليها حبات توت العليق الأرجوانية ، وقد عرفت ماري الصوت فسألته :

« هل ينادينا حقاً » ؟

قال ديكون « نعم : وكأن ذلك هو الشيء الطبيعي في العالم » إنه ينادي شخصاً صديقاً له . وكأنه يقول : « انظر إلي . أريد التحدث معك قليلاً ، وها هو ذا يقف في الشجيرة . من هو ؟ » .

اجابت ماري « إن طائر بن ديذرستاف ولكن أعتقد أنه لا يعرفني إلا قليلاً » .

قـال ديكون وهـو يتحدث بصوت منخفض مـرة أخرى « نعم يعرفك ، وهو يحبك . لقد اعتاد وجودك . وسيخبرني بكل شيء عنك خلال دقيقة » .

اقترب ديكون تماماً من الغصن بحركة بطيئة لاحظتها ماري من قبل ، ثم أخرج صوتاً يشبه تغريد أبي الحناء . فاستمع أبو الحنـاء إليه عدة ثوانٍ باهتمام ثم أجابه وكأنه يجيب عن سؤاله .

ضحك ديكون قائلاً « نعم أنه صديق لك » .

صاحت ماري بشوق كبير « هـل تعتقد ذلك ؟ هـل تعتقد انـه يحبني بالفعل ؟ » .

أجاب ديكون « لم يكن ليقترب منك إن لم يكن يحبك . فالطيور نادراً ما تحب ، ويستطيع ابو الحنـاء الاستهزاء بالشخص اكثر مـن الإنسـان . انظري إنه يداعبك الآن ويقول لك « الا ترين هذا الشاب ؟ » يبدو وكان هـذا الكلام صحيح . فقد كان يمشي جانباً ويغرد ويميل وهو يقفز على غصنه .

سألت ماري « هل تفهم كل ما تقوله الطيور ؟ » .

ابتسم ديكون ابتسـامة عريضة حتى بدا كله فما عريضاً احمر ومنحنيا وراح يفرك راسه الخشن . ثم قال : « أعتقد انني أفهم والطيور كذلك تعتقد أنني أفهم . لقد عشت معها في السبخة مدة طويلة . وكنت اراقب خروجها مـن البيضة وكيف ينمو ريشها وكيف تتعلم الطيران وتبدأ الغناء حتى أصبحت وكاني واحد منهم . وأحياناً أظن نفسـي واحداً منهم أو ثعلباً أو ارنباً أو سنجاباً أو حتى خنفساً لا أعرفه » .

ضحك ديكون وعاد الى جذع الشجرة وبدأ يتحدث عـن بـذور الأزهار ثانية . ويخبرها عن شكلها عندما تصبح ازهاراً ، وكيف ستزرعها وتراقبها وتغذيها وتسقيها .

وفجأة قال لها وهو يستدير لينظر إليها « انظري هنا ، سأزرعها لك بنفسي . أين حديقتك ؟ » .

تشابكت يدا ماري النحيلتين معاً وهي تضعهما في حضنها . ولم تدر ماذا تقول ، وبقيت صامتة مدة دقيقة كاملة ، فهي لم تفكر بذلك أبداً . كانت تشعر بالبؤس ، وكأن وجهها صار أحمر ثم أصبح شاحباً .

قال ديكون : « لديك حديقة صغيرة ، أليس كذلك ؟ » .

في الواقع اصبح وجهها احمر ثم اصفر ، وقد لاحظ ذلك ويكون ، وعندما ظلت صامتة احتار في امره فسألها « الن يعطوك قطعة حديقة ؟ الم تحصلي عليها بعد ؟ » .

شدت ماري على يديها اكثر وحركت نظرها نحوه . وقالت ببطء :

« هل تحفظ سراً إذا اخبرتك إياه ؟ إنه سر كبير . ولا ادري ماذا افعل إذا اكتشفه احد . وإذا حدث ذلك عندئذ أعتقد يجب أن أموت ! » اما الجملة الأخيرة فقد قالتها بصورة عنيفة حتى بدا ديكون أكثر حيرة من اي وقت مضى ، وحتى هو راح يفرك يـده على رأسم الخشن ثانية ولكنه اجاب بطريقة مرحة قائلاً :

« إنني احفظ الأسرار دوما ، فإذا لم أحفظ اسرار الأولاد ، وأسرار الثعالب وصغارها وأعشاش الطيور وحفر الحيوانات البرية فلن يكون هناك شيء آمن في السبخة . نعم أنا أحفظ الأسرار » .

لم تكن ماري تقصد أن تمد يدها وتمسك بكمه ، ولكنها فعلت ذلك. وقالت بسرعة فائقة : « لقد سرقت حديقة ، وهي ليست لي . وليست حديقة أحد . ولا أحد يريدها أو يهتم با ، ولا أحد يدخلها . وربما كان كان كل شيء في داخلها ميت الآن ، من يدري .

بدات ماري تشعر بالحرارة وبعناد لم تشعر به في حياتها وهي تقول:

لا يهمني ! لا يحق لأحد أن يأخذها مني طالما أنا اهتم بها وهـم لا يهتمون . إنهم يتركونها لكي تموت ، كل مافيها مقفل ، وانهت حديثها بانفعال وهي تضع يديها على وجهها وانفجرت بالبكاء ـ مسكينة الآنسة الصغيرة ماري .

أما عينا ديكون الزرقاوان فقد أصبحتا مستديرتين اكثر فأكثر . قال وهو يخفف، تعجبه قليلاً بطريقة تعني الاستغراب والحنان «حسناً» .

قالت ماري : « ليس لدي ما افعله . فأنا لا أملك شيئاً . لقد وجدتها بنفسي . ودخلتها وحدي . فأنا مثل ابي الحناء ولن يأخذوها من ابي الحناء » .

سأل ديكون بصوت منخفض « وأين هي » .

نهضت ماري فوراً من على الجذع . وهي تشعر بروح المشاركة والعناد ثانية ودون أن تكترث على الاطلاق . لقد كانت متعجرفة وهندية وبنفس الوقت عنيفة وحزينة .

قالت له : « تعالي معي وسأريك الحديقة » .

قادته حول ممر الغار ثم الى الممر الذي ينمو فيه اللبلاب بكثافة . وتبعها ديكون وعلى وجه نظرة استغراب وشفقة . كان شعوره وكأنه ذاهب ليرى عش طير غريب وعليه ان يتحرك بلطف . وعندما مشت نحو الجدار ورفعت اللبلاب المعلق راح يحدق ، لقد كان هناك باب دفعته ماري فانفتح بهدوء ودخل الاثنان معاً ثم وقفت ماري ولوحت بيدها حول المكان بروح التحدي قائلة :

« هذه هي ، إنها الحديقة السرية ، وأنا الوحيدة في هذا العالم التي تريد إحياءها » .

نظر ديكون حوله وحول المكان واعاد النظر ثانية قائلاً وهو يهمس:

« نعم ! إنه مكان غريب وجميل . إنه مكان يشعر فيه الانسان وكأنه في حلم » .

# ١١ ـ عش طـائر السمن

وقف ديكون لمدة دقيقتين او ثلاث وهو ينظر حوله ، بينما كانت ماري تراقبه . وبعد ذلك راح يمشي بهدوء ، ورشاقة اكثر من رشـاقة ماري عندما مشت لأول مرة وحدها داخل الجدران الأربعة . كانت عيناه تريان كل شيء فيها ـ الأشجار الرمادية والنباتات الرمادية المتسلقة عليها والمتدلية من الأغصان ، والكتل المتشابكـة على الجـدار وفوق العشب ، والمظلات دائمة الخضرة وتحتها المقاعد الحجرية وجرات الزهر الطويلة .

واخيراً تحدث بصوت هامس قائلا « ما كنت اظن انني سـأرى هذا المكان . »

سألت ماري : « وهل تعرف عنه شيئاً ؟ »

تحدثت ماري بصوت مرتفع فأشار لها ديكون :

« يجب أن نتحدث بصـوت منخفض ، وإلا فسيسمعنا أحـدهم ويستغرب ماذا نفعل هنا . »

قالت ماري وهي تشعر بالخوف وقد وضعت يدها على فمهـا « آه ! لقد نسيت ! هل تعرف شيئاً عن الحديقة ؟ » وهي تكرر السؤال بعد أن استردت انفاسها .

أومأ ديكون برأسه وقال :

« لقد اخبرتني مارنا أن هناك حديقة لم يدخلها أحد . وكنا نتساءل ماذا تشبه تلك الحديقة . »

توقف ديكون ونظر حوله ليرى الكتل المتشابكة الجميلة من حوله وقد بدت عيناه المستديرتان في سعادة لا توصف وقال :

« حسنا ! طالما ان الاعشاش قد بنيت هنا فمعنى هذا أن الربيع قد اتى . وسيكون هذا المكان اكثر الأماكن امناً في انكلترا لبناء الأعشاش. فلن يقترب أحد من تشابكات الأشجار والورود وانا أستغرب لماذا لا تبني طيور السبخة كلها أعشاشها هنا .

وضعت الآنسة ماري يدها مرة اخرى على ذراعه دون ان تدري وهمست :

« هل ستكون هناك ورود ؟ هل تستطيع تخمين ذلك ؟ كنت اظن انها قد ماتت كلها . »

اجاب ديكون : « حسنا ! لا ليست ـ ليست كلها ! انظري هنا ! »

وسار نحو أقرب شجرة ـ شجرة قديمة ولحاؤها مكسو بالأشنة ، ولكنها تحمل غطاءً من الفروع والأغصان المتدلية . وأخرج من جيبه سكيناً غليظة وفتح إحدى نصلاتها ثم قال : « يوجد الكثير من الخشب الميت ويجب قطعه . وهناك الكثير من الخشب القديم ، ولكن تفرعت عنه اغصانٌ جديدة في العام الماضي . وهذا نوع جديد . » وأمسك برعماً لونه بني مخضر بدلاً عن البراعم الجافة القاسية الرمادية .

امسكت ماري بالبرعم بلهفة ووقار وقالت :

« إنه غضٌ مثلنا نحن الاثنين . » وتذكرت ماري أن كلمة غض تعني انه حي وصاحت هامسة إنني سعيدة أن لا يزال حياً . أريد كل البراعم حية . لنتجول في الحديقة ونحصي البراعم الحية . »

كانت ماري تلهث وهي متلهفة ، وكذلك كان ديكون . كانا ينتقلان من شجرة الى شجره ومن غصن الى غصن . وديكون يحمل سكينه بيده ويريها الأشياء التي تجدها ماري رائعة .

قال ديكون : « لقد أصبحت بريه ولكن النبتات الأقوى قد نمت على حساب الأخرى . أما الضعيفة منها فقد ماتت ، والباقي كبر وكبر وانتشر وانتشر حتى صارت رائعة ، انظري هنا ! » وقد سحب غصناً غليظاً رمادياً وكانه جاف . « ربما ظن أحدنا انه غشب ميت . ولكنني لا أظن ان جذوره ميتة سأقطعه من الأسفل ، انظري . »

انحنى ديكون وقطع بسكينه الغصن الذي يبدو ميتاً بالقرب من التربة . وقال مبتهجاً :

« ها هو ! لقد قلت لك ان داخله لا يزال اخضر . انظري إليه . »

وقبل أن يتكلم كانت ماري جاثية على ركبتيها تحدق بكل ما لديها من قوة . وراح يشرح لها :

« عندما يكون مخضراً قليلاً ورطباً هكذا فهذا يعني انه حي . أما عندما يكون جافاً من داخله وينكسر بسرعة مثل هذه القطعة التي كسرتها فهذا يعني انه ميت . هنا يوجد جذر كبير وهنا خرجت منه كل هذه الأغصان . ولكن إذا قطعت الأغصان القديمة ، وقلبت التربة التي حولها فسيكون ـ توقف ديكون ورفع وجهه لينظر الى الفروع المتسلقة والمعلقة حوله ـ هناك نبع من الورود هذا الصيف . »

انتقل الاثنان من غصن الى غصن ومن شجرة الى شجرة . لقد كان قوياً جداً وماهراً هو وسكينه ويعرف كيف يقطع الخشب الجاف والميت، ويعرف فيما إذا كان هناك حياة في فرع أو غصن صغير وخلال نصف ساعة ظنت ماري أنها تستطيع التمييز أيضاً ، فعندما كان يقوم بقطع

غصن يبدو أن لا حياة فيه كانت تصبح مسرورة عندما ترى في داخله ظلاً اخضر رطباً . لقد كان الرفش والمعزقة والشوكة كلها مفيدة جداً . وقد علمها كيف تستعمل الشوكة عندما كان يحفر حول الجذور بالمجرفة ويحرك التربة ليدخلها الهواء .

كانا يعملان بجد حول إحدى اكبر شجيرات الورد النموذجية عندما راى ديكون شيئاً ما جعله ينطق بسؤال استغراب ، فصاح وهو يسير الى العشب الذي يبعد عنه عدة اقدام :

« لماذا ! من فعل هذا ؟ »

كان ذلك إحدى الاماكن التي قامت ماري بتنظيفها حول الرؤوس الخضراء الشاحبة .

قالت ماري : « انا فعلت ذلك . »

فتساءل ديكون « ولماذا ، لقد ظننت انك لا تعلمين شيئاً عن عمل الحدائق . »

اجابت ماري : « لا لا اعرف ، ولكنها كانت صغيرة جداً وكان العشب كثيفاً جداً وقوياً ، وكانت تبدو وكأنها لا تجد مكاناً لتتنفس . ولهذا فقد فسحت لها المجال ، حتى انني لا اعرف ما هذه الرؤوس . »

ذهب ديكون وانحنى فوق تلك الرؤوس وهو يبتسم ابتسامة عريضة قائلاً :

« عملك صحيح ، وحتى البستاني لا يمكنه ان يعلمك اكثر من ذلك . إنها ستنمو مثل سوق اللوبياء ، هذه زعفران وزهرة الثلج وهذا النرجس الاصفر . » ثم استدار الى مكان آخر وقال « وهذا نرجس ابيض حسنا ! إنها ستشكل منظراً رائعاً . »

وراح يركض من مكان الى آخر ويتحدث وهو يتأملها :

« لقد قمت بعمل جيد بالنسبة لفتاة صغيرة . »

قالت ماري : « لقد ازداد وزني وصرت اقوى . كنت من قبل اشعر بتعب دائم . أما الآن عندما اقوم بالحفر لا أشعر بالتعب أبداً ، واحب أن أشم رائحة التربة عندما تقلب . »

قال ديكون وهو يحني رأسه بالموافقة « هذا مفيد بالنسبة لك . لا شيء أجمل من رائحة الأرض الطيبة النظيفة ، إلا رائحة النباتات التي نمت حديثا عندما يسقط المطر عليها . وكثيراً ما أخرج الى السبخة عندما تمطر واستلقي تحت احدى الشجيرات واستمع الى حفيف حبات المطر على الخلنج . فأستنشق ، واستنشق . وتقول أمي بأن راس انفي يرتعش تماماً مثل الأرنب . »

سألت ماري وهو تحدق به باستغراب « ألا يصيبك البرد أبداً . » لم تر ماري أبداً صبياً مضحكاً أو ظريفاً مثله .

قال ديكون وهو يكشر « كلا لا يصيبني ، ولم يصبني البرد منذ ان ولدت . لقد تربيت بطريقة خشنة وكنت أركض في السبخة في كل أحوال الطقس مثلما تفعل الأرانب . وتقول أمي أنني قد استنشقت الكثير من الهواء النقي مدة إثني عشر عاماً ولهذا من الصعب أن أصاب بالبرد . إنني صلب مثل عمود الشوكة البيضاء القاسية . »

كان ديكون يعمل طوال مدة حديثه ، وماري تتبعه وتساعده بشوكتها والمعزقة .

قال مرة أخرى وهو ينظر حوله مبتهجاً « يوجد الكثير من الأعمال هنا . »

وراحت ماري ترجوه : « الا تاتي مرة أخرى لتساعدني في هـذه الأعمال ؟ انا متأكدة انني أستطيع مساعدتك ايضا . استطيع أن أحفر واقتلع الأعشاب الضـارة وأعمل كل ما تطلبه مني . آه أرجوك تعـال يـا ديـكون ! »

أجاب بحزم « سآتي كل يوم إذا رغبت سواء في المطر او الشمس . فهذه افضل متعة لي في حياتي ـ نغلق الباب لكي نوقظ الحديقة . »

قالت ماري : « إذا اتيت ، وساعدتني في إحياء الحديقة فسأفعل ـ لا ادري ماذا سأفعل » وأنهت حديثها وقد شعرت بعجزها « ماذا يمكن أن أفعل لفتى مثلك ؟ »

قال ديكون وهو يكشر سعيداً « سأخبرك ماذا ستفعلين . سيزداد وزنك وستشعرين بالجرح مثل صغار الثعلب وستتعلمين كيف تتحدثين مع ابي الحناء مثلمـا أتكلم انا . حسناً ! سيكون لدينـا أشياء كثيرة نستمتع بها . »

بدا ديكون يتجول حول الحديقة وهو ينظر الى الأشجار والجدران والشجيرات دون أي تعبير يدل على التركيز .

ثم قال « لا اريدها كحديقة البستاني كل ما فيها مقلم وأنيق ، هل تحبين ذلك ؟ إنها أجمل كما هي الآن كل النباتات أصبحت برية وتتأرجح وتتماسك مع بعضها . »

قالت ماري بقلق : « لن نجعلها مرتبة ، وإلا لن تكون حديقة سرية إذا أصبحت مرتبة » .

وقف ديكون وهو يفرك شعره الاحمر الصدىء وعلى ووجهه نظرة مميزة نوعاً ما ، وقال :

« إنها حقاً حديقة سرية ، ولكن يبدو ان هناك شخصاً آخر يدخلها إلى جانب ابي الحناء منذ ان اغلقت قبل عشر سنوات » .

قالت ماري : « ولكن الباب مقفل والمفتاح مدفون ولا احد يستطيع ان يدخلها » .

أجاب ديكون : هذا صحيح . إنه مكان غريب . ويبدو لي وكأن بعض أعمال التشذيب قد تمت هنا وهناك خلال السنوات العشر الماضية.

قالت ماري : « ولكن كيف يمكن أن يكون ذلك قد تم » ؟

كان ديكون يتفحص غصن وردة نموذجي وراح يهز راسه .

كانت الآنسة ماري تشعر دوماً انه مع كل السنوات التي عاشتها فلن تنسى الصباح الأول عندما ستبدأ حديقتها بالنمو ، وعندما بدا ديكون بتنظيف الأماكن التي سيزرع فيها البذور تذكرت الأغنية التي كان يغنيها لها باسيل عندما كان يريد اغاظتها .

سألت ماري : « هل هناك ازهار تشبه الأجراس » ؟

أجاب وهو مستمر في الحفر « إنها أزهار السوسن وهناك أيضاً جرس كانتريري وزهرة الجريس » .

قالت ماري : « لنزرع بعضاً منها » .

« لدينا هنا الآن زهرة السوسن ، لقد رأتها . إنها تنمو بصوره متقاربة جداً ويجب أن نباعد ما بينها ولكن لدينا الكثير منها . أما الأنواع الأخرى فإن بذورها تحتاج لمدة سنتين حتى تزهر ، ولكنني أستطيع أن أجلب لك بعضاً منها من حديقة الكوخ . لماذا تريدينها » ؟

عندئذ أخبرته ماري عن باسيل وإخوته وأخواته الموجودن في الهند ، وكم هي تكرههم وعن تسميتها ، واضافت :

لقد كانوا يرقصون حولي ويغنون :

**الآنسة ماري مشاكسة حقاً**

**كيف تكبر حديقتك ؟**

**الأجراس البيضاء واصداف الكوكل**

**والأذريون ، كلها في صف واحد ،**

لقد تذكرت ذلك مما دفعني للسؤال فيما إذا كانت هناك بالفعل أزهار تشبه الهاليزية .

قطبت ماري قليلاً ثم تابعت الحفر في الأرض قائلة :

« لم اكن مشاكسة بقدر ماكانوا هم مشاكسين .

ولكن ديكون ضحك وقال وهو يشم رائحة التراب الأسود الداكن عندما يقلبه :

« حسناً ! لا حاجة لأي واحد أن يكون مشاكساً طالما أن هناك أزهاراً وما شابه ، وكذلك العديد من الحيوانات البرية التي تتراكض وتصنع بيوتها بنفسها أو تبني أعشاشها وتغني وتصفر ، أليس كذلك »؟

وبينما كانت ماري راكعة إلى جانبه وهي تمسك بالبذور نظرت إليه وتوقفت عن تقطيب وجهها قائلة :

« ويكون ، انت ولا ظريف كما قالت مارثا . إنني أحبك ، وبذلك تكون الشخص الخامس . لم يخطر ببالي أبداً أنني سأحب خمسة أشخاص » .

وقف ديكون على كعبيه كما تفعل مارثا عندما تنظف الموقد . كان منظره مضحكاً ولذيذاً وكانت ماري تفكر بعينيه الزرقاوين المستديرتين

وخديه الورديين وانفه المرفوع الى الأعلى والذي تبدو عليه السعادة . ثم قال :

« تحبين خمسة أشخاص فقط ؟ من هم الأربعة الآخرون ؟ »

بدأت ماري تعدهم على أصابعها « أمك ومارثا وأبو الحناء وبن ولدرستاف » .

ضحك ديكون الى درجة انه أجبر ان يكتم صوته بوضع ذراعه فوق فمه ، وقال :

« أعرف أنك تعتقدين أنني صبي غريب ، ولكنني أظن انك اغرب فتاة صغيرة رأيتها في حياتي » .

بعد ذلك قامت ماري بفعل غريب . انحنت الى الأمام وسألته سؤالاً لم تكن تحلم أن تسأله لأي إنسان قبله . وحاولت أن تسأله إياه بلهجة يوركشذاير باعتبارها لغته ، فعندما كانت في الهند كان الهندي يسر كثيراً إذا عرفت لهجته ، وقالت :

« هل تحبني ؟ »

أجاب من كل قلبه : « حسناً ! نعم أحبك ، احبك كثيراً ، وكذلك أبو الحناء على ما أعتقد ! »

قالت ماري : « إذاً أنتما اثنان بالنسبة لي . »

وبعدها بدآ العمل بجد أكثر من قبل وبمتعة أكبر . جفلت ماري وحزنت عندما سمعت صوت الساعة الكبيرة تدق في ساحة القرية وهذا يعني وقت غدائها في منتصف النهار . فقالت بحزن :

« يجب أن أذهب ، وأنت يجب أن تذهب أيضاً ، أليس كذلك ؟ »

ضحك ديكون مكشراً وقال : « من السهل ان احمل غدائي معـي . إن أمي لا تدعني اذهب دون أن احمل قليلاً من الطعام في جيبي . »

رفع ديكون معطفه من على العشب وأخرج من جيبه حزمة صغيرة ثقيلة ملفوفة بمنديل ابيض وأزرق خشن ونظيف تماماً ، وفيها قطعتان سميكتان من الخبز وبينهما قطعة من شيء ما . وقال :

« غالباً ما يكون الخبز بدون شيء ، ولكن اليوم لدي قطعة من لحم الخنزير المقدد . »

فكرت ماري بأن هذا غداء غريب ولكن يبدو أن ديكون يستمتع به. ثم قال لها :

اركضي وتناولي طعامك ، سآكل طعامي قبلك . وسأعمل قليلاً قبل ان اغادر الى البيت .

جلس دويكون وظهره الى شجرة قائلاً :

« سأنادي أبا الحناء وأعطيه قشرة قطعة لحـم الخنزير لينقرها . فهذه الطيور تحب الدهن كثيراً » .

غادرت ماري المكان بصعوبة . وفجأة خطر لها وكأن ديكون ضرباً من السحر الذي يمكن أن يختفي عندما ستعود الى الحديقة ثانية . كان يبدو إنساناً جيداً لدرجة وكأنه ليس إنساناً حقيقياً . مشت ببطء حتى منتصف الطريق نحو الباب الموجود في الجدار ثم توقفت وعادت أدراجها وقالت :

مهما حدث يجب أن لا تخبر أحداً أنت ـ أنت ؟

كانت وجنتاه الورديتان قد انفتحتا بسبب لقمته الكبيرة التي اقتطعها من الخبز والخنزير المقدد ولكنه استطاع أن يبتسم بشجاعة قائلا :

لو كنت طائر السمن وأرشدتني الى موقع عشك ، هل تظنين اني سأخبر أحداً ؟ لا لست أنا فأنت في مأمن مثل السمن .

وبذلك تأكدت أنها في مأمن حقاً .

# ١٢ ـ هل يمكنني الحصول على قطعة أرض

ركضت ماري بسرعة كبيرة حتى ان نفسها كاد ينقطع عندما وصلت غرفتها . كان شعرها منفوشاً على جبينها ، وخداها بلون زهري مشرق وكان الغداء جاهزاً على الطاولة ومارثا تنتظر بالقرب منها . فقالت لها

لقد تأخرت قليلا ، أين كنت ؟

قالت ماري « لقد رايت ديكون ، لقد رايت ديكون . »

قالت مارثا مبتهجة : « إنني أعلم أنه سيأتي ، ولكن كيف وجدته ؟»

قالت ماري بصوت كله تصميم اعتقد ـ أعتقد انه جميل !

بدت مارثا وكأنها صدمت بالكلام ولكنها كانت مسرورة ايضاً . فقالت :

« حسناً ! إنه أفضل فتى ولد حتى الآن ، ولكننا لم نفكر ابداً بانه وسيم . لأن أنفه مرفوع جداً الى الأعلى » .

قالت ماري « إنني أحبه مرفوعاً الى الأعلى » .

قالت مارثا « احبهما مستديرتان ، ولونهما مثل لون السماء فوق السبخة تماماً » .

ابتسمت مارثا معبرة عن رضاها وقالت :

« تقول أمي بأن عينيه أصبحتا بهذا اللون لأنه ينظر الى الأعلى ليرى الطيور والغيوم . ولكن فمه كبير أليس كذلك ؟ »

قالت ماري بعناد « إنني احب الفم الكبير ، واتمنى لو كان فمي مثل فمه » .

ضحكت مارثا وهي مسرورة وقالت :

« سيبدو ذلك نادراً ومضحكا في وجهك الصغير ، ولكنني أعلم بأن فمك صار كذلك عندما رايته . هل اعجبتك البذور وعدة الحديقة » .

سألت ماري « وكيف عرفت انه قد احضرها معه ؟ »

قالت مارثا : « حسناً ! لم أفكر أبداً بأنه لن يحضرها . لقد اكد بأنه سيحضرها إن كانت موجودة في يوركشاير . إنه فتى موثوق .

كانت ماري خائفة من احتمال مواجهة أسئلة صعبة ، ولكنها لم تفعل ذلك .

لقد كانت مهتمة بالبذور ومعدات الحديقة ، ولكن هناك دقيقة واحدة بدات تخاف منها . إنها تلك اللحظة التي بدات تسأل فيها أين ستزرع تلك الأزهار . فسألتها :

« ومن سألت عن هذا الموضوع ؟ »

قالت ماري مترددة « حسناً ، لم أسأل احداً بعد » .

قالت مارثا : « حسناً لن أسأل رئيس البساتنة ، لأن السيد روش رجل مهذب . »

قالت مارثا : « لم أره أبداً ، فأنا لم أر إلا من هم دونه بن ويذرستاف » .

قالت مارثا ناصحة « لو كنت مكانك لسألت بن ولدرستاف ، إنه ليس سيئاً بالدرجة التي يبدو فيها . فهــو يتذمر دوماً . والسـيد كريفن يتركه يفعل مايريد لأنه كان هنا عندما كانت السيدة كريفن لاتزال على قيد الحياة . وقد اعتاد أن يضحكها ، وكانت هي تحبه . وربما استطاع أن يجد لك زاوية في مكان ما بعيد عن النظر » .

قالت ماري وهي قلقة : « إذا كانت بعيدة عن النظر ولا أحد يريدها معنى ذلك بأن لا أحد يعترض إذا اخذتها ، أليس كذلك ؟ »

أجابت مارثا « لا يوجد مبرر للمعارضة ، فأنت لن تؤذي أحداً »

تناولت ماري غداءها بأقصى سرعة تستطيعها ، وعندما نهضت من الطاولة كانت متهجة نحو غرفتها لتضع قبعتها ثانية ولكن مارثا أوقفتها قائلــة :

« لدي ما أقوله لك ، ولكن فكرت أن تتناولي غداءك أولا . لقد عاد السيد كريفن هذا الصباح واعتقد انه يريد رؤيتك » .

أصبح وجه ماري أصفر وقالت :

آه ! لماذا ؟ لم يكن يرغب برؤيتي عندما أتيت . لقد سمعت بيتشر يقول ذلك .

أوضحت مارثا « حسناً ، إن السيدة ميدلوك تقول انه بريد رؤيتك الآن بسبب أمي . فعندما كانت ذاهبة الى قرية ثوايت صادفت السيد كريڤن . ولم يسبق أن تحدثت معه من قبل . ولكن السيدة كــريڤن كانت قد زارت كوخنا مرتين أو ثلاث . لم يكن يتذكر أمي ولكن أمي لم تنسى . وكان لديها الشجاعة الكافية كي توقفه ، ولا أعلم ماذا قالت له ولكنها قالت له شيئاً ماجعله يفكر برؤيتك قبل أن يسافرثانية غداً » .

صاحت ماري : « آه ! هل سيذهب غداً ؟ إنني سعيدة جداً » !

قالت مارتا : إنه ذاهب لفترة طويلة . وربما لن يعود حتى فصل الخريف أو الشتاء . سيسافر إلى بلدان اجنبية . وهذا شأنه دائماً .

قالت ماري شاكرة : « آه ! إنني سعيدة جداً ــ سعيدة جداً » .

إذا بقي إلى أن يدخل الشتاء او حتى الخريف فسيكون هناك وقت كاف لمراقبة عودة الحياة الى الحديقة السرية . وحتى او اكتشف السيد كريفن ذلك في حينه واسترد منها الحديقة فستكون قد أخذتها لفترة كافية على الأقل .

« متى تعتقدين بأنه يريد أن يرى .. » .

ولم تكمل ماري جملتها لأن الباب قد فتح ودخلت السيدة ميدلوك . كانت ترتدي أفضل ثوب أسود لديها وفوقه قلنسوة وقد اقفلت قبتها بدبوس زينة عليه صورة رجل هي صورة ملونة للسيد مبدلوك الذي توفي منذ سنوات مضت ، حيث تضعه السيدة ميدلوك في كل مرة ترتدي فيها أفضل مالديها . وكانت تبدو عصبية ومتنبهة ، فقالت بسرعة :

« شعرك أشعث : اذهبي ومشطيه . مارثا ساعديها في ارتداء أفضل ثوب لديها . لقد أرسلني السيد كريفن لكي آخذها إليه في غرفة مكتبه » .

لم يبق في وجه ماري أي لون زهري . وبدأ قلبها يدق وشعرت بنفسها وكأنها عادت لتكون طفلة صلدة وصامتة مرة أخرى . لم ترد حتى على السيدة ميدلوك ولكنها استدارت ومشت نحو غرفتها وتبعتها مارثا . لم تنطق بشيء عندما كانت مارثا تبدل لها ثوبها وتمشط شعرها، وبعد أن صارت بأفضل هندامها تبعت السيدة ميدلوك إلى الممرات

في الطابق الأسفل وهي صامتة . ماذا يمكن أن تقول ؟ لقد كانت ملزمة بالذهاب لرؤية السيد كريڤن فهو لن يحبها وهي لن تحبه . وكانت تعلم رأيه فيها .

سارت إلى قسم من البيت لم تذهب إليه من قبل . واخيراً دقت السيدة ميدلوك باباً وعندما اجابها صوت « ادخل » دخلتا الغرفة معاً . كان هناك رجل يجلس في كرسي مريح أمام النار فقالت له السيدة ميدلوك: « سيدي ، هذه هي الآنسة ماري » .

قال السيد كريڤن : « يمكنك أن تذهبي وتتركيها هنا وسأدق لك الجرس لتأتي وتأخذيها » وعندما خرجت وأغلقت الباب وراءها ، وقفت ماري تنتظر ، طفلة صغيرة قبيحة تفرك يديها النحليتين معاً . وتمكنت من رؤية الرجل الجالس على الكرسي ، لم يكن احدباً الى حد كبير ولـه كتفان منحنيان ، وشعره أسود يشوبه بعض البياض . ادار وجه فوق كتفيه المرتفعين وراح يكلمها قائلا ٠

« تعالي هنا ! » .

ذهبت ماري إليه .

لم يكن بشعاً ، ويمكن أن يكون وجهه وسيماً لو لم يكن بائساً . وكأنه صار قلقاً ومضطرباً عندما رآها ، ولم يعد يعرف ماذا يمكن أن يصنع لهـا .

سألها : « هل انت بخير » ؟

أجابت ماري : « نعم » .

« هل يعتنون بك » ؟

« نعـم » .

وراح يفرك جبينه مضطرباً وينظر إليها قائلاً :

أنت نحيلة جدا .

اجابت ماري بأكثر مالديها من عناد « أصبحت اكثر بدانة الآن » .

كم كان وجهه تعيساً ! وبالكاد استطاعت عيناه السوداوان رؤيتها وكانهما تنظران الى شيء آخر وبصعوبة استطاع أن يركز تفكيره معها .

« لقد نسيتك . وكيف أستطيع ان اتذكرك ؟ كنت قد قررت إرسال مربية أو حاضنة او شخصا من هذا القبيل لك،ولكنني نسيت».

بدأت ماري « أرجو .. ارجو » ولكن كتلة حنجرحتها جعلتها تشعر بالاختناق .

فسألها « ماذا تريدين ان تقولي ؟ » .

قالت ماري : « إنني أكبر من أن يكون لي حاضنة ، كما ارجوك ــ أرجوك أن لا تحضر لي مربية الآن .

فرك جبينه ثانية وراح يحدق بها .

راح يتمتم وهو شارد « هذا ماقالته امرأة ساورباي » .

بعد ذلك استجمعت ماري بعضاً من شجاعتها . وقالت وهي تتلعثم :

« هل هي ــ هل هي والدة مارثا » ؟

أجابها « نعم ، أعتقد ذلك » .

ويبدو أنه استعاد نفسه :

« ماذا تريدين ان تفعلي ؟ »

اجابت ماري وهي تأمل ان لا يرتجف صوتها : « اريـد ان العب في الهواء الطلق ، لم اكن أحب ذلك في الهند . اما هنا فإنني اشعر بالجوع عندما أخرج ، وقد ازداد وزني » .

كان السيد كريفن يراقبها . ثم قال :

« لقد قالت السـيدة ساورباي بأن ذلك يفيـدك . وربما كان ذلك صحيحاً . فهي تعتقد ان من الأفضـل أن تصبحي اقـوى قبل ان تأتيك المربيـة » .

راحت ماري تناقش « إنني أشعر بالقوة عندما العب ويأتي الهـواء من السبخة » .

ثم سألها : « أين تلعبين ؟ »

قالت ماري بلهفة : « في كل مكان . لقد أرسلت لي والدة مارثا حبلاً للوثب . وانا العب به واركض وانظر الـى الزرع لأرى إذا كان قـد بـدا ينبت . ولا أقوم بإتلاف أي شيء » .

قال لها تصوت مختنق : « لا تخافي ، طفلـة مثلك لا تسـتطيع أن تؤذي شيئاً ! بإمكانك أن تفعلي ما شئت » .

وضعت ماري يدها على حجرتها لأنها خافت أن يرى حالـة التهيج التي كانت تشعر بها . ثم اقتربت خطوة نحوه وقالت له وهي ترتجف :

« هل يمكنني ؟ »

لقد جعله وجهها الصغير المتوتر يشعر بقلق لم يعرفه . فأوضح :

« لا تخافي لهذا الحد . بالطبع يمكنك ، إنني وصي عليك ، رغم أنني لا اصلح ان أكون وصياً على اي طفل . فأنا لا استطيع ان اعطيك الوقت او الاهتمام . إنني مريض جدا وحزين ولا يمكنني التركيز ولكن اتمنى أن تكوني سعيدة ومرتاحة . لا اعرف شيئا عن الأطفال ، ولكن على السيدة ميدلوك أن تقدم لك كـل ما تحتاجين . لقـد ارسلت بطلبك اليـوم لأن السيدة ساوورباي قالت انه يجب أن اراك . فقـد حدثتها ابنتها عنك . وتعتقد انك بحاجة للهواء الطلق والحرية والركض » .

وبالرغم عن نفسها قالت ماري ثانية : « إنها تعرف كـل شيء عـن الأطفـال » .

قال السيد كريفن : « يجب أن تعرف . واعتقد أنها جريئة بصورة كافية عندما اوقفتني في السبخة ، ولكنها قالت بأن السيدة كريفن كانت لطيفة معها » . وكان من الصعب عليه ذكر اسم زوجته المتوفاة . « إنهـا امراة محترمة . وبعد أن رأيتك أعتقد بأنها عاقلة . العبي في الهواء الطلق كما تحبين . بالمكان واسع ، وتستطيعين أن تذهبي حيث تشائين وتمتعين نفسك كما تحبين . هل تريدين أي شيء ؟ »

وكأن فكرة قد خطرت له : « هل تريدين العاباً وكتباً ودمى ؟ »

قالت ماري بصوت متهدج : « هل يمكنني ، هل يمكنني أن أحصل على قطعة ارض ؟ »

ومن خلال لهفتها لم تستوعب كم كانت كلماتها تبدو غريبة فلم تكن تلك الكلمات التي تريد أن تقولها .

جفل السيد كريفن وكرر : « ماذا تقصدين ؟ »

تلعثمت ماري قائلة : « لأزرع البذور ــ وأجعلهـا تنمو ــ وأراها حيـة » .

حدق بها لحظة ثم مر بيديه على عينيه بسرعة . وقال :

« هل تهتمين بالحدائق بهذا القدر ؟ »

قالت ماري : « لم اكن اعرفهـا عندما كنت في الهند . كنت دومـاً مريضة ومتعبة . والطقس حار جداً . كنت اصنع احواضاً من الرمـل أحيانا واضع فيها الأزهار . ولكن الوضع هنا مختلف » .

نهض السيد كريفن وبـدأ يمشي ببط عبـر الغرفة . وهـو يقول لنفسـه :

« قطعـة أرض » ، أما ماري فقـد فكرت بأنها حتماً قـد ذكرتـه بشيء ما . وعندما توقف وتحدث معها كانت عينـاه السوداوان ممتلئتين بالرقة والحنان . فقال لها :

« بإمكانك الحصول على الأرض التي تريدينها، لقد ذكرتني بشخص آخر يحب الأرض وكل ما ينبت فيها » .

ثم ابتسم قليلاً «عندما تجدين قطعة الأرض خذيها واجعليها حية»

« هل أستطيع أن آخذها من أي مكان ــ إذا كان لا يريدها أحد ؟ »

أجابها :« من أى مكان ، إذن ! يجب أن تذهبي الآن لأنني متعب» . وامسك بالجرس لينادي السيدة ميدلوك « الى اللقاء . سأسافر بعيـداً كل الصيف .»

جاءت السيدة ميدلوك بسرعة حتى ان ماري ظنت بأنها كانت تنتظر في الممـر .

قال لها السيد كريفن : « يا سيدة ميدلوك ، بعد أن رأيت الطفلـة فهمت ماذا تقصد السيدة ساور باي . يجب أن يقوى جسمها أكثر قبل

ان تبدا دروسها . اعطها طعاما سيطاً وصحياً . واتركيها تركض كثيراً في الحديقة . لا تعتني بها كثيراً . إنهـا بحاجة للحرية والهـواء النقـي والتجوال . وستأتي السيدة ساورباي لتراها بين الحين والحين . ويمكن للطفلة أن تذهب الى الكوخ أحياناً ».

ويبدو ان السيدة ميدلوك كانت مسرورة . فقد ارتاحت عنـدما سمعت ان لا حاجة لتعتني بها كثيراً . لقد كانت تشعر من قبل بأنها كانت مهمة متعبة ، وبالفعل فقد كانت تعتني بها بأقل ما يمكن . إضافة لذلك كانت مولعة بوالدة مارثا .

فقالت : « شـكراً سيدي ، لقـد كنت انا وسـوزان ساورباي في المدرسة معاً . وهي امرأة عاقلة وطيبة وستعرف ذلك بنفسك . أنا ليس لدي اطفال أما هي فعندها أثنا عشر طفلاً وكلهم يتمتعون بصحة جيدة . ولن تتعلم الآنسة ماري أي شيء منهم . وسآخذ دوماً بنصيحة سوزان ساورباي عن الأطفال . إنها كما يقال ذات عقـل راجح ـ إن احسـنت التعبـير . »

أجاب السيد كريفن : « لقد فهمت ، خذي الآنسة مارى وارسـلي لـي بيتشر . »

عندما تركت السيدة ميدلوك ماري في نهايـة الممر المؤدي لغرفتهـا طارت ماري فوجدت مارثا بانتظارها . وفي الواقع اسرعت مارثا بالعودة بعد أن قامت بنقل صحون الغداء .

صاحت ماري : « استطيع الحصول على حديقتي ، في أي مكـان اريده ! ولن يكون لدي مربية لفترة طويلة ! وستأتي أمك لتراني ويمكنني الذهاب الى كوخكم . لقد قال بأن فتاة صغيرة لا يمكن أن تؤذي شيئاً ويمكنني فعل ما أريد ـ وفي أي مكان ! »

قالت مارثا مسرورة : « حسناً ! لقد كان لطيفاً ، أليس كذلك ؟ »

قالت ماري بجدية « مارثا ، إنه فعلاً رجل لطيف . لولا وجهه البائس وجبهته المتجعدة . »

وركضت ماري بسرعة الى الحديقة . وكانت تعلم انها تأخرت اكثر مما توقعت ، وان ديكون يجب ان ينصرف مبكراً ليبدا رحلة الخمسة اميال .

وعندما تسللت من الباب تحت اللبلاب لم تشاهده يعمل حيث تركته . وكانت عدة الحديقة كلها تحت الشجرة . فركضت نحوها وهي تنظر حولها في المكان ولكنها لم تجد ديكون . لقد ذهب والحديقة السرية اصبحت خالية ـ ما عدا ابا الحناء الذي طار للتو عبر الحائط ووقف على شجيرة ورد يراقبها .

قالت بحزن : « لقد ذهب . آه ! هل هو ساحر غابة فقط ؟ »

ولفت نظرها شيء أبيض اللون مثبت على شجيرة الورد . كانت في الحديقة قطعة ورق ، وهي قطعة من الرسالة التي رسمتها الى مارثا لترسلها الى ديكون ، وقد ثبتت على الشجيرة بشوكة طويلة ، وفي لحظة عرفت ان ديكون هو الذي تركها هناك . كانت هناك بعض الأحرف التي رسمت بطريقة بدائية وصورة . في بادىء الأمر لم تعرف ما هو المقصود. ثم رأت بأن المقصود هو عش وطائر يجلس فيه وتحته رسمت الأحرف التي تقول : « سأعود » .

# ١٣ ـ أنــا كــولن

اخذت ماري الصورة معها عندما عادت الى البيت لتناول العشاء لتراها مارثا . قالت مارثا بكبرياء « حسناً ! لم اعرف ان ديكون ماهر الى هذا الحد . هذه صورة طائرة السمن في عشه وبالحجم الطبيعي بل حتى أكبر بمرتين . »

وقتها عرفت ماري ان الصورة هي رسالة . لقد كان يريدها أن تتأكد انه يحتفظ بسرها فالحديقة هي عشها وهي تشبه طائر السمن . كم هي تحب ذلك الصبي الغريب البسيط . كانت تأمل ان يعود في اليوم التالي تماماً عندما غطت في النوم بانتظار الصباح . ولكن أحداً لا يدرى كيف يمكن أن يكون الطقس في بوركشاير وخاصة في فصل الربيع . لقد استيقظت في الليل على صوت المطر وحباته الكبيرة تضرب على نافذتها كان المطر ينسكب كالشلال والريح تعصف حول الزوايا وفي مدخنة البيتالبيت الكبير القديم . فجلست ماري في السرير وهي تشعر بالبؤس والغضب .

وقالت « إن المطر يشاكس مثلما كنت أنا لقد جاءت الأمطار لأنها تعلم أنني لا أرغب بها . ورمت بنفسها الى الخلف فوق وسادتها وخبأت وجهها . لم تبك ، ولكنها استلقت وهي تعبر عن كرهها لصوت المطر الغزير الذي يضرب ، كما كرهت صوت الرياح العاصفة . ولم تتمكن من العودة الى النوم ثانية . كان هذا الصوت الحزين السبب في استيقاظها ، لأنها كانت هي نفسها تشعر بالحزن . ولو شعرت بالسعادة فلربما عادت للنوم . كم كانت الريح تعصف وكم كانت حبات المطر كبيرة وهي تنسكب وتضرب على الزجاج .

قالت ماري « يبدو وكأنه صوت شخص ضائع في السبخة وهو يتجول ويبكي » بقيت مستيقظة وهي تتقلب من طرف الى طرف حوالي الساعة . عندما حدث شيء فجأة جعلها ، تجلس في سريرها وتدير رأسها باتجاه الباب لتسمع ، فسمعت وسمعت .

قالت بهمس مرتفع هذه ليست الريح الآن ، هذه ليست الريح . هذا صوت مختلف . انه صوت البكاء الذي سمعته من قبل .

كان باب غرفتها مفتوحا والصوت آت من الممر السفلي ، وكان صوت بكاء ضعيف بعيد ومتقطع . استمعت ماري بضع دقائق ، وفي كل دقيقة كانت تتأكد اكثر . لقد شعرت وكأن من واجبها ان تعرف ما هو ذلك الصوت . ويبدو أن الأمر اغرب من الحديقة السرية والمفتاح المدفون . وربما كان مزاجها الثوري هو الذي جعلها بهذه الشجاعة . فوضعت قدمها خارج السرير ثم وقفت على الارض . وقالت إنني ذاهبة لأرى ما هذا . فالجميع الآن في أسرتهم وأنا لا أعبأ بالسيدة ميدلوك — لا أعبأ أخذت الشمعة التي كانت بجانب سريرها وخرجت من الغرفة بهدوء . وكان الممر طويلا جداً ومظلما ولكنها كانت متنبهة لدرجة أنها لم تهتم بذلك . كانت تفكر انها تتذكر الزوايا التي يجب أن تلتف حولها حتى تجد الممر القصير ذو الباب المغطى بسجادة — وهو الباب الذي خرجت منه السيدة ميدلوك عندما ضلت طريقها . كان الصوت آتياً من ذلك الممر . سارت مع ضوءها الخافت وبالكاد كانت تتحسس طريقها ، وقلبها يخفق بصوت مرتفع حتى تخيلت أنها تسمعه . واستمر البكاء الخافت مما جعلها تسير باتجاهه . كان يتوقف أحياناً لمدة دقيقة او ما شابه ثم يبدأ ثانية . توقفت وفكرت هل هذه الزاوية التي يجب أن تلتف حولها ؟ نعم هي تلك . عبر ذلك الممر ثم الى اليسار وبعدها ستصعد درجتين عريضتين ، ثم الى اليمين ثانية . نعم فهذه هي السجادة .

رفعت السجادة بلطف وأغلقتها خلفها ، ثم وقفت في الممر وتمكنت من سماع البكاء بوضوح رغم كونه غير مرتفع . ففي الطرف الآخر من

الجدار على يسارها وعلى بعد بضع باردات كان هناك باب واستطاعت أن ترى وميض ضوء آت من تحته . الشخص الذي كان يبكي موجود في تلك الغرفة . إنه بكاء شخص صغير .

وهكذا مشت نحو الباب ودفعته حتى انفتح ، وها هي تقف في الغرفـــة .

كانت الغرفة كبيرة وقديمة وفيها فرش جميل . وهناك نار خافتة في الموقد ، ومصباح ليلي الى جانب سرير له أربع لوحــات منحوتة ومزينة وعليه يستلقي فتى يبكي بألم .

تسألت ماري هل هي في مكان حقيقي أم أنها مستغرقة في النوم ثانية وهي تحلم دون أن تدري . كان وجه الصبي حاداً ودقيقاً وبلون العاج . ويبدو أن عينيه واسعتان جداً . وله شعر كثيف مبعثر على جبهته بخصل كبيرة مما جعل وجهه يبدو وكأنه مريض ، ولكنه كان يبكي لأنه غاضب ومتعب أكثر من كونه يتألم .

وقفت ماري بالقرب من الباب وشمعتها بيدها وهي تحبس أنفاسها ثم زحفت عبر الغرفة وعندما اقتربت أكثر كان النور يجــذب انتباه الصبي فأدار وجهه من على وسادته وحدق بها كانت عيناه الرمادبتان مفتوحتين بشكل واسع . بحيث بدتا واسعتين جداً .

وقال أخيراً بصوت هامس وشبه خائف « من انت ؟ هــل أنت شبح ؟ » .

اجابت ماري « لا ، لست شبحاً . هل أنت شبح ؟ » وكان صوت همسها شبه خائفة .

راح الصبي يحدق ويحدق بهــا . وهي تلاحظ كم كانت عينـــاه غريبتان . كانتا رماديتين وواسعتين تماماً ، بالنسبة لوجهــه بسبب الأهداب السوداء التي تحيط بهما .

أجابها بعد ان انتظر حوالي الدقيقة « لا انا كولن » .

سألت : « ومن هو كولن ؟ » .

« انا كولن كريفن . ومن انت ؟ »

انا ماري لينوكس ، والسيد كريفن هو خالي .

قال الصبي : « إنه أبي » .

شهقت ماري « أبوك ! لم يخبرني أحد أنه له إبن ! لماذا لم يخبروني ؟ » .

قال وهو لا يزال يثبت عينيه الغريبتين عليها وفيهما تعابير قلقة « تعالي هنا » .

اقتربت ماري من السرير ومد يده وراح يلمسها قائلاً :

« أنت إنسانة حقيقية . أليس كذلك ؟ إنني أحلم دوماً أحلاماً حقيقية . وربما كنت واحدة من أحلامي » .

كانت ماري قد وضعت لفحة صوفية عليها قبل أن تغادر غرفتها وامسكت جزءاً منها بين أصابعها .

فقالت له : « افركها لترى كم هي سميكة ودافئة . سأقرصك قليلاً إذا رغبت لكي أريك كم أنا حقيقية . لقد فكرت للحظة فقط أنك ربما كنت أيضاً حلماً » .

سألها : « من أين أتيتِ ؟ » .

أجابت : « من غرفتي . كانت الرياح تعصف ولم أستطيع النوم ، وقد سمعت أحدهم يبكي وأردت أن أعرف من هو . لماذا كنت تبكي ؟ » .

« لأنني لم أستطع النوم ايضاً ، وراسي يؤلمني . اخبريني ثانيــة ما اسمك ؟ » .

« ماري لينوكس . الم يخبرك احد بأنني جئت لأعيش هنا » .

كان كولن لا يزال يتحسس طرق لفحتها ، ولكنــه بــدأ يصــدق حقيقتها .

فأجاب : « لا لم يخبروني » .

سألت ماري : « ولماذا ؟ » .

« لأنني أخــاف أن تشــاهديني . ولا أحب أن يــراني الناس ويتناقشوا معي » .

سألت ماري ثانية « لماذا ؟ » وهي تشعر بالغموض في كل لحظة .

« لأنني دوماً بهذا الشكل ، مريض واريد أن أستلقي . وكذلك ابي لا يحب أن يتناقش الناس معي . وغير مسموح للخدم أن يتحدثوا عني . وإذا قدر لي أن أعيش فسأكون أحدبَ ، ولكنني لن أعيش وأبي يكره احتمال ان أصبح مثله » .

قالت ماري : « آه ! كم غريب هذا البيت ! كم هو غريب ! كل ما فيه نوع من السحر . الغرف مقفلة والحدائق مقفلة ــ وأنت ! هل مقفل عليك ؟ » .

« لا ، إنني اقبع في الغرفة لانني لا أريد أن اتحرك خارجها . فهذا يتعبني كثيراً » .

تجرأت ماري وقالت : « هل يأتي أبوك ليراك » ؟

« احيانا .. وغالبا عندما اكون نائما . فهو لايريد أن يراني » .

لم تستطع ماري إلا ان تسأل ثانية « ولماذا » ؟

بدا على وجه الفبي مسحة من الغضب . وقال :

« لقد ماتت أمي عندما ولدت ، وهو يشعر بالتعاسة عندما ينظر إلي . ويعتقد بأنني لا أعلم بذلك ، ولكنني سمعت الناس يتحدثون . إنه يكرهني تقريباً » .

قالت ماري وكأنها تحدث نفسها : «إنه يكرهالحديقة لأنها ماتت» .

سأل الصبي : « اية حديقة » ؟

قالت ماري متمتمة : « آه ! إنها مجرد ـ مجرد حديقة كانت تحبها هل أنت دوماً » ؟

تقريباً دوماً . يأخذونني في بعض الأحيان إلى أماكن على شاطىء البحر ، ولكنني لا احب البقاء حتى لا يحدق بي الناس . لقد كنت أرتدي حزاماً من الحديد كي يبقى ظهري مستقيماً ، ولكن طبيباً كبيراً جاء من لندن ليراني وقال ان هذا حمق . وطلب منهم أن ينزعوه عني وأن يخرجونني إلي الهواء الطلق . ولكني اكره الهواء الطلق ولا أحب الخروج .

قالت ماري : « وأنا لم أكن أحب الخروج عندما أتيت الى هنا ، لماذا تنظر إلي بهذا الشكل ؟

أجاب وهو خائف بعض الشيء « بسبب الأحلام التي صارت حقيقة . فعندما أفتح عيني أحياناً لا أصدق أنني لا زلت حياً » .

قالت ماري : «كلانا مستيقظان » . ونظرت حول الغرفة ذات السقف المرتفع والزوايا الظليلة وضوء الموقد الخافت ثم قالت : « يبدو

وكأنه حلم ، إنه منتصف الليل والجميع في البيت نائمون ـ الجميع ماعدانا إننا مستيقظان تماماً » .

قال الصبي بعصبية « لا اريد ان يكون حلماً » .

وعلى الفور فكرت ماري ثم قالت : « إذا كنت لاتحب أن يراك الناس فهل تريدني ان أذهب » ؟

وكان لا يزال يمسك بطرف لفحتها فشدها قليلاً وقال :

« لا . إذا ذهب عندئذ سيتأكد لي أنك حلم فإذا كنت حقيقة ، اجلسي على هذا الكرسي ذي المسند وتحدثي . أريد أن أسمع أخبارك ».

وضعت ماري الشمعة على الطاولة بالقرب من السرير وجلست على الكرسي ذي الوسادات . ولم تكن ترغب بالذهاب أبداً . كانت تريد البقاء في الغرفة الغامضة المخبأة وأن تتحدث إلى الصبي الغامض .

قالت ماري : « وماذا تريدني ان أقول » ؟

كان يريد أن يعرف منذ متى أتت إلى ميسلثويت ، وفي اي ممر غرفتها . ويريد أن يعرف ماذا كانت تفعل وإذا كانت تكره السبخة كما يكرهها ، وأين كانت تعيش قبل ان تأتي الى يوركشاير . أجابت عن كل تلك الأسئلة واكثر من ذلك . واستلقى هو على وسادته ليستمع . جعلها تخبره الكثير عن الهند وعن رحلتها عبر المحيط . وقد اكتشفت أنه لم يتعلم اشياء كثيره كغيره من الأطفال بسبب مرضه . كما قامت إحدى المشرفات عليه بتعليمه القراءة عندما كان صغيراً جداً ، وكان دوماً يقرأ الكتب ويشاهد الصور الموجودة في الكتب الجميلة .

ورغم أن أباه لم يكن يراه إلا نادراً وهو مستيقظ فقد كانت تقدم له كل الأشياء الرائعة ليتسلى بها . ولكن يبدو أنه لم يكن مسروراً أبداً

بكل الاحوال . لقد كان بإمكانــه الحصول على اي شيء يطلبه ولم يكن مجبراً على القيام بأي عمل لا يحبه .

ثم قال بطريقة لا مبالية « كل واحد ملزم على فعــل ما يحبه . وعنــدما اغضب اشعر بالمرض . ولا احد يصــدق أنني سأعيش حتى اكبر . »

وقالها بطريقة وكأنه قد اعتــاد الفكرة بحيث أنها لم تعــد تهمه إطلاقاً . ويبدو أن نغمــة صوت ماري قــد أعجبته . فبينما كانت هي مستمرة بالحديث راح يستمع إليها باهتمام وكسل . وتساءلت مرة او مرتين فيما إذا كان قد غالبه النعاس . ولكنه سأل أخيراً سؤالاً فتح موضوعاً جديداً :

« كم تبلغين من العمر ؟ »

أجابت ماري « عمري عشر سنوات » وقد نسيت نفسها لحظــة « وانت كذلك . »

سأل بصوت مندهش « وكيف عرفت ذلك ؟ »

أجابت « لأنه عندما ولدتَ أُقفل باب الحديقــة ودفن المفتاح . والباب مقفل منذ عشر سنوات . »

استدار كولن نحوها وهو نصف جالس وقد انثنى على مرفقيــه وتساءل وكأنه مهتم جداً ؟

« باب أي حديقة المقفل ومن فعل ذلك ؟ وأين دفن المفتاح »

قالت ماري بعصبية « إنها ــ إنها الحديقة التي يكرهها السيد كريفن . لقد أقفلها . ولا أحد يعرف اين دفن المفتاح . »

قال كولن بإصرار « أي نوع من الحدائق هي ؟ »

اجابت ماري بحذر « لم يسمح لأحد بدخولها منذ عشر سنوات . »

ولكنها تأخرت جداً بحذرها وكان كولن يشبهها كثيراً . فهو أيضاً ليس لديه ما يشغله ولهذا فقد جذبته فكرة الحديقة المخبأة كما سبق ان جذبتها . وراح يسأل السؤال تلو السؤال . وأين هي ؟ الم تبحثي عن الباب ؟ الم تسألي المسؤولين عن الحديقة ؟

قالت ماري : « إنهم لا يتحدثون عنها ، واعتقد بأن المطلوب منهم عدم الإجابة عن الأسئلة . »

قال كولن : « سأجعلهم يجيبون عليها . »

قالت ماري باضطراب « وهل تستطيع ؟ » وقد بدات تشعر بالخوف لانه إذا استطاع أن يجعلهم يجيبون على الأسئلة ، فمن يدري ماذا سيحدث ؟

قال كولن « الجميع ملزمون بإسعادي . لقد قلت لك ذلك . فإذا قدر لي أن أعيش فإن هذا المكان سيكون في يوم ما لي . والجميع يعرف ذلك . وسأجعلهم يخبرونني . »

لم تكن ماري تدري أنها هي نفسها كانت مدللة ، ولكنها استطاعت أن ترى بوضوح أن هـذا الصبي الغامض مدلل . كان يظن ان العالم بأجمعه ملك لـه . وكم هو غريب الأطوار وهو يتحـدث ببرود عن عدم استمراره في الحياة .

سألته : « هل تعتقد أنك لن تعيش ؟ » وكان سؤالها لسببين : بسبب فضولها ولأنها كانت تأمل ان تجعله ينسى موضوع الحديقة .

اجاب دون ان يبالي كمـا كان يتحدث من قبل . « لا اعتقد اني سأعيش . فمنذ ان بدات أتذكر الأشياء سمعت الناس يقولون أنني لن اعيش . في بارىء الأمر كانوا يظنون انني لا افهم ، اما الآن فإنهم يعتقدون اني لا اسمع . ولكنني اسمع ، وطبيبي هو ابن عم ابي . وهو فقير جداً وإذا مت فإنه سيمتلك كل ميسلثويت عندما يموت ابي . وأعتقد انه لا يريدني أن اعيش .

سألت ماري « وهل تريد ان تعيش ؟ »

اجاب بطريقة غاضبة ومتعبة « لا ولكن لا اريد أن أموت . وعندما اشعر بنفسي مريضاً أستلقي هنا وافكر بالأمر حتى أبكي وابكي . »

قالت ماري : « لقد سمعتك ثلاث مرات وانت تبكي . ولكن لم اعرف من الذي يبكي . هل كنت تبكي لهذا السبب ؟ » وكانت ماري تريده أن ينسى الحديقة .

أجابها « اعتقد ذلك ، ولكن لنتحدث عن شيء آخر . لنتحدث عن الحديقة . الا ترغبين برؤيتها ؟ »

اجابت ماري بصوت منخفض جداً : « نعم »

ثم تابع بإصرار « وأنا أيضاً ، لا اعتقد انني كنت اريد رؤية شيء من قبل ، ولكنني أريد رؤية الحديقة . اريد إخراج المفتاح من الأرض. وفتح الباب وسأجعلهم يأخذونني الى هناك في الكرسي . وسيكون الهواء منعشاً . سأجعلهم يفتحون الباب . »

تنبه كولن لدرجـة ان عينيه الغريبتين ، صـارتا تلمعان كالنجوم وصـارتا أكبر بكثير من قبـل . وقال : « من واجبهم أن يسعدوني . سأجعلهم يأخذونني الى هناك وسآخذك أنت أيضاً . »

أمسكت ماري بيديها وشبكتهما . فكل شيء سيفسد ـ كل شيء . ولن يعود ديكون أبداً . ولن تشعر هي نفسها بمأمن مثل عش السمن المختبىء الآمن .

صاحت ماري : « كلا . لا تفعل . لا تفعل ، لا تفعل ذلك ! »

حدق بها كولن وقد ظن انها قد فقدت عقلها .

وتساءل « لماذا ؟ لقد قلت بأنك تريدين رؤيتها . »

اجابت وهي تتنهد : « نعم أريد . ولكن إذا جعلتهم يفتحون الباب ويأخذونك بهذه الطريقة فلن تبقى سراً بعد ذلك أبداً . »

انحنى أكثر وقال : « سراً ، ماذا تقصدين ؟ أخبريني . »

تلعثمت كلمات ماري فوق بعضها وراحت تلهث :

أرأيت ـ أرأيت ، إذا لم يعرف أحد سوانا ـ وإذا كان هناك باب مخبأ في مكان ما تحت اللبلاب ـ وإذا كان هناك ـ واستطعنا أن نجد

باب مخبأ في مكان ما تحت اللبلاب ـ وإذا كان هناك ـ واستطعنا أن نجده وتسللنا معاً من خلاله وأغلقناه خلفنا ، ودون أن يعرف أحد شيئاً ، وسميناها حديقتنا وتصورنا أنفسنا طائر السمن وهو في عشه ، وإذا لعبنا هناك تقريباً كل يوم وحفرنا وزرعنا البذور وجعلناها تعود للحياة . »

فقاطعها قائلا : « هل هي ميتة ؟ »

« ستموت قريباً إذا لم يعتن بها أحد » وتابعت « البصلات ستعيش أما الورود .... »

قاطعها ثانية بسرعة وهو متنبه مثلها تماماً « وما هي البصلات ؟ »

« إنها النرجس الأصفر والسوسن وزهرة الثلج . إنها تعمل داخل الارض الآن . وإذا بقيت الحديقة سرية واستطعنا دخولها فإننا سنتمكن من رؤية الزرع وهو ينمو كل يوم اكثر ونعرف كم من الورود لا يزال حيا . هل رايت ؟ آه هل رايت كم هو أجمل أن تبقى سراً ؟ »

وضع راسه على وسادته واستلقى وعلى وجهه تعابير غريبة . وقـال :

« لم يكن لدي سر أبداً ، سوى أنني لن أعيش حتى أكبر . وهم لا يعرفون انني اعلم ذلك ، إذن فهذا نوع من الأسرار . وانا أفضل هذا النوع اكثر . »

ألحت ماري « إذاً لا تدعهم يصحبونك الى الحديقة ، ربما ــ وأنا شبه متأكدة بأني سأجد الوسيلة للدخول إليها يوماً ما ــ وعندئذ ــ إذا سمح الطبيب لك أن تذهب بالكرسي ، وإذا كنت دوماً تصنع ما تريد ربمـا ــ نستطيع أن نجـد صبياً يدفعك بالكرسي ، ويمكننا أن نذهب وحدنا وستكون حديقة سرية على الدوام . »

قال ببطء شديد وعيناه حالمتان : « إنني ــ احب ــ ذلك ، احب ذلك . ولن أخشى الهواء المنعش في الحديقة السرية . »

بدأت ماري تسترد أنفاسها وتشعر بالأمان لانه فكرة الاحتفاظ بالسر يبدو قد أعجبته . كانت شبه متأكدة أنها إذا استمرت في الحديث واستطاعت أن تجعله يتخيل الحديقة في عقله ، كما رأتها هي ، فسيحبها كثيراً بحيث لن يتحمل فـكرة أن الجميـع يستطيعون دخولهـا متى يشاؤون .

قالت ماري : « سأخبرك بما افكر بـه عن شكل الحديقة إذا استطعت ان تدخلها . فقد اغلقت مدة طويلة وربما نما الزرع بصورة متشابكة . »

كان كولن مستلقيا بهـدوء وهو يستمع بينما استمرت ماري بالحديث عن الورود التي يحتمل أن تكون قد تسلقت من شجرة الى شجرة ثم تدلت نحو الأسفل ــ وعن طيور كثيرة يحتمل أن تكون قد بنت اعشاشها هناك لأنها في مأمن . ثم حدثته عن أبي الحناء وبن ديذرستاف، وكان هناك الكثير لتقوله عن أبي الحناء وكان من السهل جداً ولا خوف من الحديث عنه حتى أنها لم تعد تشعر بالخوف . وقد سُر كولن كثيراً وهو يستمع عن أبي الحناء فابتسم وبدا جميلاً ، في باديء الأمر اعتقدت ماري أنه أقبح منها بعينيه الواسعتين وخصل شعره الكثيفة .

قال كولن « لا أعرف أن الطيور يمكن تكون هكذا . ولكن إذا بقيت في الغرفة فلن أرى الأشياء أبداً . وكم من الأشياء تعرفينها ، ولدي شعور وكأنك كنت داخل تلك الحديقة . »

لم تعرف لماذا قال ذلك ولهذا لم ترد بشيء . ومن الواضح أنـه لم يتوقع جواباً ، وبعد دقيقة أدهشها قائلاً :

« سأريك شيئاً . هل ترين تلك الستارة الوردية الحريرية المعلقة على الجدار فوق الغطاء ؟

لم تكن ماري قد لاحظتها من قبل وعندما راتها كانت ستارة حريرية معلقة فوق ما يشبه الصورة .

أجابت : « نعم . »

قال كولن : « هناك حبل يتدلى منها اذهبي واسحبيه . »

نهضت ماري وهي مرتكبة فوجدت الحبـــل . وعنـــدما سحبته تراجعت الستارة مع حلقاتها فكشفت عن صورة فتاة ذات وجه ضاحك!. شعرها اشقر ومربوط بشريط ازرق ، وعيناها المرحتان الجميلتان تشبه تماماً عيني كولن الحزينة ، فلونهما عقيقي ــ رمادي وواسعتان اكثــر بمرتين من حقيقتهما بسبب الأهداب السوداء حولهما .

قال كولن متذمراً ، إنها امي ولا أعرف لماذا ماتت . إنني اكرهها احياناً لأنها ماتت .

قالت ماري : شيء غريب .

راح كولن يدمدم « لو انها بقيت على قيد الحياة اعتقد أنني ماكنت لأشعر بالمرض دوماً ، واستطيع القول انني كنت سأعيش أيضاً ، ولم يكن أبي ليكره النظر إلي . ولكان لدي ظهر "قوي" . اغلقي الستارة ثانية» .

فعلت ماري كما أمرها وعادت لتجلس على كرسيها ، وقالت :

إنها أجمل منك بكثير ، ولكن عينيها مثل عينيك تماماً ــ فهي على الأقل لها نفس الشكل واللون ، ولماذا تغطى الصورة بالستارة ؟

تحرك بصورة غير مريحة قائلاً :

انا طلبت منهم ذلك . أشعر أحياناً أنني لا أريدها أن تنظر إلــي . فهي تبتسم كثيراً حين أكون مرضاً وبائساً . إضافة إلى أنها أمي ولا أريد أن ينظر إليها الجميع .

كانت هناك بضع دقائق من الصمت ، ثم تحدثت ماري متسائلة :

« ماذا يمكن أن تفعل السيدة مدلوك إذا اكتشفت انني هنا » ؟

أجاب ستفعل كما قلت لها أن تفعل . وسأخبرها أنني أريدك أن تأتي هنا وتتحدثي معي كل يوم ، فأنا سعيد بقدومك .

قالت ماري : وأنا كذلك . وسآتي كلما استطعت . ترددت قليلاً ثم قالت : « وسأبحث في كل يوم عن باب الحديقة » .

قال كولن : يجب أن تفعلي ذلك وستخبرينني عنه فيما بعد .

أعتقد انك ستكون سراً أيضا . ولن اخبرهم بذلك حتى يكتشفوا بأنفسهم ويمكنني إخراج المرضة من الغرفة كل يوم وسأقول لها انني أريد البقاء وحدي . هل تعرفين مارثا ؟

قالت ماري : « نعم أعرفها جيداً . إنها تهتم بي » . وقد حنى رأسه باتجاه الممر الخارجي .

إنها تنام في الغرفة الثانية . لقد ذهبت الممرضة البارحة لزيارة اختها ، وهي تترك مارثا مكانها دوماً لتهتم بي عندما تخرج وستخبرك مارثا متى يمكن ان تأتي إلى هنا .

وهنا فهمت ماري نظرات مارثــا المضطربة عندما سألتها عن صوت البكــاء . فقالت : « مارثا تعرف أخبارك دوماً . »

« نعم . فهي غالباً ما تهتم بي لأن الممرضة تحب أن تهرب منــي ، فتأتي مارثا » .

قالت ماري : « لقد مكثت هنا طويلاً . هل يمكنني أن أذهب؟ تبدو عيناك ناعستين » .

قال لها وهو شبه خجول « أتمنى لو أنام قبل أن تغادري » .

اقتربت ماري بكرسيها وقالت : « أغلق عينيك ، وسأفعل كما كانت مربيتي الهندية تفعل معي . سأربت على يدك وأمسدها وأغني شيئاً ما بصوت منخفض » .

قال لها وهو يشعر بالنعاس « ربما احبت ذلك . »

لقد كانت ماري متأثرة عليه الى حد ما . ولـم ترغب أن تتركـه مستيقظاً . ولذلك انحنت على السرير وراحت تمسد يده وتربت عليهـا وتغني بصوت منخفض أغنية هندوسية .

قال لها وهو لا يزال يشعر بالنعاس « شيء جميل » وتابعت غناءها وتمسيد يده ولكن عندما نظرت إليه ثانية كانت رموشـه السوداء قـد هدأت على وجنتيه وعيناه مغلقتين وقد استغرق في النوم .

نهضت بهدوء واخذت شمعتها وانسحبت دون أن تحدث صوتاً .

# ١٤ ـ المهراجـا الصـغير

في الصباح كانت السبخة مختبئة وراء الضباب ، والمطـر ما يزال ينهمر . ولن يكون هناك مجال للذهاب خارج المنزل . أما مارثا فقد كانت مشغولة جداً حتى أن ماري لم تجد الفرصة للحديث معها ، ولكن طلبت منها بعد الظهر أن تأتي وتجلس معها في الغرفة الأخرى . جاءت مارثـا ومعها الجوارب التي كانت تنسجها عندما لا يكون لديها عمل آخر .

سألت مارثا بعد أن جلستا معاً « ماذا حل بك ؟ يبـدو وكأن لديك شيئاً تودين قوله » .

قالت ماري : « لقد . لقد اكتشفت مصدر البكاء » .

رمت مارثـا ما كانت تحيكـه على ركبتهـا وحدقت بها بعينيهـا الخائفتين وتساءلت :

« لا لم تكتشفي ! إطلاقاً ! »

تابعت ماري : « لقد سمعت صوت البكاء ليلاً ، فنهضت وذهبت لأرى مصدره . . إنه كولن لقد وجدته » .

قالت مارثا وهي تصرخ تقريباً : « حسناً ! يا آنسة ماري ! ما كان يجب أن تفعلي ذلك ــ كلا لا يجب ــ فهذا سيوقعني في مشاكل . فأنا لم أخبرك أي شيء عنه مطلقاً ، ولكنـك ستوقعينني في مشـاكل . وسأفقد عملي ، وماذا ستفعل أمي ! »

قالت ماري : « لن تفقدي عملك . لقد كان سعيداً لقدومي ، فتحدثنا وتحدثنا ، وقال انه سعيد لقدومي .

صاحت مارثا : « هل كان سعيداً ؟ هل انت متأكدة من ذلك ؟ أنت لا تعلمين كيف يتصرف عندما يغيظه احد . إنه صبي كبير يبكي مثل الأطفال ، ولكن عندما تصيبه نوبة انفعال فإنه يصرخ لدرجة تخيفنا نحن . وهو يعرف بأننا لا نجرؤ على ادعاء أي شيء » .

قالت ماري :« لم يكن منزعجاً ، وقد سألته إذا كان يريد أن أذهب ولكنه طلب مني الجلوس . وسألني أسئلة، وجلست على الكرسي وحدثته عن الهند وعن ابي الحناء والحديقة . ولم يكن يريدني أن أذهب . كما جعلني ارى صورة أمه . وقبل أن أغادر غنيت له حتى ينام » .

راحت مارثا تلهث وهي مندهشة ، وقالت معترضة :

« لا أستطيع أن أصدقك . يبدو وكأنك مشيت مباشرة الى عرين الأسد . ولو كان كولن كما هو عليه في أغلب الأحيان لألقى بنفسه في نوبة من الغضب وأيقظ البيت كله . فهو لا يحب أن ينظر إليه الغرباء » .

قالت ماري : « لقد تركني أنظر إليه . وكان ينظر إليّ كل الوقت وأنا أنظر إليه ، وحدقنا .... » .

صاحت مارثا وهي مضطربة :« لا أدري ماذا أفعل ! إذا علمت بذلك السيدة ميدلوك لأنها ستظن أنني قد خرقت الأوامر وأخبرتك وستعيدني الى أمي » .

قالت بحزم : لن يخبر السيدة ميدلوك عن أي شيء الآن . وسيبقى الأمر سراً . وهو يقول بأن الجميع ملزمون بإسعاده » .

قالت مارثا وهي تفرك جبهتها بمريلتها : « إذن ، هذا صحيح تماماً ــ ذلك الصبي السيء » .

قالت ماري : « ويقول أن السيدة ميدلوك يجب أن لا تعلم بشيء . ويريدني أن أذهب إليه كل يوم . وأنت ستخبريني متى يريدني . »

قالت مارثا : « انا ! سأفقد عملي ــ بالتأكيد سأفقده . »

بدات ماري تناقشها : « لن تفقدي عملك إذا فعلت ما يطلبه منك . فالجميع مطلوب منهم إطاعته . »

صاحت مارثا وعيناها مفتوحتان :« هل تقصدين ان تقولي بأنه كان لطيفاً معك ؟ »

اجابت : « وأعتقد انه قد أحبني » .

جزمت مارثا وهي تتنفس بعمق « إذن لا بد انك سحرته ! »

تساءلت ماري : « هل تقصدين السحر ؟ لقد سمعت عن السحر في الهند ، ولكنني لا اعرف كيف أصنعه » .

لقد ذهبتُ فقط الى غرفته ، ودهشت عندما رايته . فوقفت محدقة . ثم استدار هو وحدق بي . وقد ظن انني شبح أو حلم ، كما ظننت أنه ربما كان كذلك .وكان من الغريب جداً وجودنا هناك في منتصف الليل دون أن نعرف بعضنا . ثم بدأنا نسأل بعضنا . وعندما سألته إن كان يجب أن أغادر قال لا . » .

لهثت مارثا قائلة : « لقد شارف العالم على النهاية ! »

سألت ماري : « وما هي علته ؟ »

قالت مارثا : « لا أحد يعرف تماماً . لقد فقد السيد كريفن عقله عندما ولد ، وظن الأطباء أنه بحاجة الى مشفى للأمراض العقلية ، وذلك

بسبب موت السيدة كريفن كما قلت لك . لم يكن يستطيع النظر الى الطفل . وكان يهذي ويقول انه سيكون هناك احدب آخر مثله ومن الأفضل ان يموت » .

سألت ماري : « هل كولن احدب ؟ لا يبدو عليه ذلك » .

قالت مارثا : « لم يصبح احدب بعد ، ولكنه بدا بداية خاطئة . لقد قالت امي أن كل شيء في البيت كان يستشيط غضباً وهذا كاف لجعل اي طفل ينحرف . إنهم يخافون من ضعف ظهره ولهذا فهم يهتمون ويتركونه ممدداً ولا يدعونه يمشي . وقد وضعوا له مرة حزاماً ولكنه هاج حتى اصبح مريضاً تماماً . ثم جاء طبيب كبير ليراه فطلب منهم نزع الحزام ، وكان يتحدث الى الطبيب الآخر بعنف — ولكن بطريقة مهذبة . وقال بأنهم يسرفون في إعطائه الدواء وفي تركه على هواه » .

قالت ماري : « اعتقد بأنه صبي مدلل جداً » .

قالت مارثا : « إنه اسوأ صبي رأيته . ولا أستطيع القول بأنه كان صحيح الجسم يوماً ما . ولقد أصيب بالسعال والرشح لدرجة اوصلته الى الموت مرتين او ثلاث ، كما أصيب مرة بحمى المفاصل ومرة بالتيفوئيد وقد ذعرت السيدة ميدلوك وقتها عندما صار يهذي ، وهي تتحدث الى المربية ، وكنا نظن بأنه لا يعرف شيئاً . فقالت : « حتماً سيموت هذه المرة وهذا افضل شيء له وللجميع . ثم نظرت إليه فكانت عيناه الواسعتان تنظران إليها بوعي كامل كما تنظر هي إليه . لم تكن تدري ماذا يحدث ، ولكنه حدق بها فقط وقال : « أعطني قليلاً من الماء وتوقفي عن الكلام » .

سألت ماري : « هل تعتقدين أنه سيموت ؟ » .

« تقول امي بأنه لا يوجد أي مبرر لطفل ، لا يستنشق الهواء العذب دون أن يفعل أي شيء سوى أن يستلقي ويقرأ الكتب المصورة

ويأخذ الدواء ، لكي يستمر في الحيـاة . إنـه ضعيف ويكره الخروج للهواء ، ويصاب بالرشح بسهولة مما يجعله مريضاً » .

جلست ماري واخذت تنظر الى الموقد . وقالت ببطء .

« لا أدري إن كان خروجه الى الحديقة سيجعله افضل . اما انا فقد تحسنت » .

قالت مارثا : « كانت أسوأ نوبة انتابته عندما اخذوه الى الحديقة حيث الورود الى جانب النافورة . لقد كان يقرأ صحيفة عن أشخاص لديهم ما يدعى « رشح الورد » وبدأ يعطس وهو يقول سأصاب به . وإذا بأحد المسؤولين عن الحديقة ممن لا يعرفونه يمر من أمامه وينظر مستغرباً باعتبـاره لا يعرف الأصـول ، وراح كولن يبكي ويقول أن البستاني كان ينظر إليه لأنه سيصبح احدب ، واخذ يبكي حتى أصابته حمى وبقي مريضاً طوال الليل » .

قالت ماري : إذا حدث أن غضب مني فلن أذهب لرؤيته ثانية أبـداً » .

قالت مارثا : « إذا أراد أن تحضري فسيحضرك ، ولا بد أن تعرفي ذلك جيداً منذ البداية » .

رن الجرس بعد ذلك بقليل فجمعت مارثا ما كانت تحكيه ، وقالت :

« أعتقد أن المربيـة تريدني أن أبقى معه قليلاً ، وأرجوا أن يكون في حالة جيدة » .

غابت مارثا عن الغرفة حوالي عشر دقائق ثم عادت وقد رسم على وجهها تعبير محير قائلة :

« حسنا لقد سحرته انت . إنه جالس على أريكة وبيده كتاب مصور . وقد طلب من المربية أن تبقى بعيداً حتى الساعة السادسة . ويجب ان انتظر انا في الغرفة المجاورة . وفي اللحظة التي غادرت فيها المربية استدعاني وقال : » أريد ماري لينوكس أن تأتي وتحدثني ، وتذكري بالا تخبري احداً ومن الافضل أن تذهبي الآن بأسرع ما يمكن » .

كانت ماري مستعدة للذهاب بسرعة . لم تكن تريد رؤية كولن بقدر ما كانت تريد رؤية ديكون . ولكنها كانت ترغب برؤيته كثيراً .

عندما دخلت غرفته كانت النار تلمع في الموقد . وبالفعل كانت الغرفة جميلة عندما رأتها في ضوء النهار . كانت هناك ألوان غنية في السجاد والصور المعلقة والكتب الموجودة على الجدران . والتي جعلتها تبدو متوهجة ومريحة بالرغم من السماء الرمادية والمطر المتساقط . اما كولن فكان هو نفسه أشبه بالصورة . كان يلف نفسه بعباءة مخملية ويجلس مستنداً الى وسادة مطرزة كبيرة . وعلى كل وجنة من وجنتيه بقعة حمراء .

قال لها : « تعالي ، لقد كنت أفكر بك طوال هذا الصباح » .

أجابت ماري : « وانا كنت أفكر بك أيضاً ، وكم كانت مارثا خائفة . وقالت بأن السيدة ميدلوك ستظن بأنها هي التي أخبرتني عنك ، وبالتالي ستطرد مارثا » .

قطب كولن جبينه وقال : « اذهبي واخبريها أن تأتي الى هنا . فهي في الغرفة المجاورة » .

قالت مارثا مضطربة : « يجب أن أفعل ما يسرك » وصار وجهها أحمر تماماً .

« اليس من واجب ميدلوك ان تفعل ما يسرني ؟ »

قالت مارثا : « هذا واجب الجميع يا سيدي . »

قال السيد كريفن بغرور : « سأقوم بإبعادها إذا تجرات على قول كلمة واحدة بهذا الخصوص واستطيع القول بأنها لا تحب ذلك . »

انحنت مارثا وقالت « شكراً سيدي يجب أن أقوم بعملي سيدي . »

قال كولن بغرور أكبر « كل ما اريده هو واجبك . وسأهتم بك . بامكانك أن تذهبي الآن . »

عندما اغلق الباب خلف مارثا ، وجد كولن ماري وهي تحدق به وكأنه أثار استغرابها .

فسألها : « لماذا تنظرين إلي هكذا ؟ بماذا تفكرين ؟ »

« إني أفكر بأمرين » .

سأل : « ما هما ؟ اجلسي واخبريني . »

قالت ماري وهي تجلس على الكرسي « رايت مرة في الهند فتى مهراجا ، وعلى ثيابه أحجار من الياقوت والزمرد والماس . وكان يتحدث مع من حوله مثلما كنت تتحدث مع مارثا . كان على الجميع أن يفعلوا ما يأمرهم به خلال دقيقة . واظن انهم سيقتلون إذا لم يفعلوا ذلك .

قال كولن : « سأطلب منك بعد قليل أن تخبريني عن الأمراء الهنود المهراجا ، ولكن أخبريني أولاً ما هو الشيء الثاني ؟ »

قالت ماري : « كنت أفكر كم انت تختلف عن ديكون . »

قال كولن : « من هو ديكون ؟ وما هذا الاسم الغريب ! »

فكرت ماري ان تخبره فهي تستطيع أن تتحدث عن ديكون دون أن تذكر اي شيء عن الحديقة السرية . لقد كانت تحب أن تسمع مارثا وهي تتحدث عنه . إضافة لذلك كانت تتوق للحديث عنه فهذا يجعلها قريبة منه . وراحت تشرح :

« إنه اخو مارثا . وعمره اثني عشر عاماً . إنه لا يشبه احداً في هذا العالم . فهو يستطيع أن يسحر الثعالب والسناجب والطيور تماماً مثلما يسحر الهنود الثعابين . إنه يعزف نغماً ناعماً على قيثارته فتأتي هذه الحيوانات لتسمع . »

كان الى جانب كولن بعض الكتب الكبيرة على الطاولة ، فسحب واحداً منها نحوه فجأة . ثم بدأ يشرح « في هذا الكتاب توجد صورة ساحر تعبان . تعالي وانظري . »

كان كتاباً جميلاً فيه صور ملونة رائعة ، ثم قلب احدى صفحات الكتاب . وسأل بلهفة : « هل يستطيع فعل ذلك ؟ »

أوضحت ماري : « إنه يعزف على قيثارته وهم يستمعون . ولكنه لا يدعو ذلك سحراً . فهو يقول بما أنه يعيش في السبخة كثيراً وهو يعرف طريقهم . ويقول بأنه يشعر أحياناً وكأنه هو نفسه طائر أو أرنب ، ولهذا يحبهم . وأعتقد أنه سأل أبا الحناء أسئلة . ويظهر وكأنهما يتحدثان مع بعضهما بالحان ناعمة .

استلقى كولن على وسادته واتسعت عيناه أكثر فأكثر وازدادا احمرار البقعتين الحمراوين على وجنتيه وقال :

« أخبريني عنه أكثر . »

تابعت ماري « إنه يعرف كل شيء عن البيوض والأعشاش . ويعرف اين تعيش الثعالب والغرير والقضاعة . ويحافظ على أماكنهم سراً بحيث لا يتمكن الصبية الآخرون من إيجاد مخابئها ومن ثم إخافتها . إنه . يعرف كل شيء ينمو أو يعيش في السبخة .

سأل كولن : « هل يحب السبخة ؟ وكيف يحب مثل هذا المكان الواسع الأجرد والموحش ؟ »

اعترضت ماري قائلة « إنها أجمل مكان . وهناك الآلاف من الأشياء الحلوة التي تنمو فيها ، والآلاف من المخلوقات الصغيرة المشغولة كلها في بناء أعشاشها وحفر الحفر والجحور . او السقسقة . أو الغناء او مناداة بعضها بعضاً . فهي مشغولة جداً وتعمل داخل التربة أو في الأشجار أو الخلنج وهذا هو عالمهم . »

سأل كولن : « وكيف تعرفين كل ذلك » ثم أدار مرفقه لينظر إليها .

قالت ماري « لقد خرجت مرة » ثم تذكرت فجأة « لقد مررت مرة من هناك بالعربة ليلاً . وأعتقد أنها كانت مختبئة ، لقد أخبرتني مارثا عنها أولاً ، ثم ديكون ، وعندما يتحدث ديكون عنها فإنك تشعر وكأنك ترى الأشياء وتسمعها ، إذا كنت تقف بين الخلنج والشمس مشرقة والوزال تفوح رائحته كالعسل وهو ممتلىء بالنحل والفراشات .

قال كولن بعصبية : « لا تستطيعين رؤية شيء إذا كنت مريضة . » وكان يبدو مثل شخص يستمع الى صوت جديد من بعيد وهو يتساءل ما هذا الصوت .

قالت ماري : « ولن ترى شيئاً إذا جلست في الغرفة . »

قال كولن بصوت يائس : « لا أستطيع الخروج الى السبخة . »

صمتت مـاري لحظـة ثم قالت بجـراة « يمكنك أن تخـرج يوما مـا . »

تحرك كولن وكأنه قد ذعر :

« اخرج الى السبخة ! كيف يمكنني ذلك ؟ فأنا سأموت . »

قالت ماري دون شفقة « وكيف عرفت ذلك ؟ » فلم تعجبها طريقة حديثه عن الموت . ولم تشعر تجاهه بكثير من الشفقة . بل كانت تشعر وكأنه يتباهى بذلك .

اجابها بغضب : « آه ، لقـد سمعت ذلك منـذ ان اصبحت أعي الأشياء وهم يهمسون دوماً بذلك ويعتقدون أنني لا الاحظ . بل يتمنون موتي أيضاً . »

شعرت ماري بروح المشاكسة . وضمت شفتاها معاً قائلة :

« إذا رغبوا فسأموت . ولكني لا أريد ومن يريد موتك ؟ »

« الخدم ـ وبالطبع الدكتور كريفن لأنه سيرث ميسلثويت التي ستجعله ثرياً بـدل ان يكون فقيراً . وهو لا يجرؤ على قول ذلك ، ولكنه يكون مبتهجاً عندما تكون حالتي سيئة . فعندما اصبت بالتيفوئيد امتلأ وجهه تماماً . واعتقد أن أبي يريد موتي أيضاً . »

قالت ماري بعناد : « لا أعتقد أنه يريد ذلك . »

وهذا ما جعل كولن يستدير وينظر إليها ثانية قائلاً :

« الا تعتقدين ذلك ؟ »

ثم استلقى على وسادته وكأنـه كان يفكر ، ثم كانت هناك فترة صمت طويلة . وربما كان كلاهما يفكر بأشياء غريبة لا يفكر بها الاطفال عـادة .

وأخيراً قالت ماري : « إنني احب الطبيب الشهير الذي جاء من لندن لانه جعلهم ينزعون حزام الحديد عنك . هل قال انك ستموت ؟ »

« لا »

« ماذا قال ؟ »

اجاب كولن : « لم يهمس . وربما كان يعرف انني اكره الهمس . وقد سمعته مرة يقول شيئاً بصوت مرتفع تماماً : « هذا الصبي سيعيش إذا جعلتموه يفكر بذلك . ضعوه في جو مرح . » ويبدو انه كان منفعلاً . »

قالت ماري وهي تفكر : « ساخبرك بمن يمكنه أن يجعلك سعيداً » وكانت تشعر وكأنها ملزمة بتسوية الموضوع بطريقة أو اخرى . « أعتقد أن ديكون يستطيع ذلك فهو يتحدث دوماً عن الأشياء الحيوية . ولا يتحدث مطلقاً عن الأشياء الميتة أو المريضة . إنه ينظر دوماً الى السماء يراقب الطيور التي تطير ــ او ينظر الى الارض ليرى شيئاً ما ينبت فيها . وله عينان زرقاوان مستديرتان ومفتوحتان جيداً لترى كل ما حولهما . وهو يضحك ضحكة كبيرة بفمه الكبير . ووجنتاه حمراوان مثل الكرز . »

سحبت ماري الكرسي الذي كانت تجلس عليه واقتربت اكثر من الاريكة وقد تغيرت تعابيرها عندما تذكرت الفم الكبير المقوس والعينان الواسعتان . وقالت :

« انظر هنا ، لن نتحدث عن الموت ، فأنا لا احبه . ولنتحدث عن الحياة . ونتحدث ونتحدث عن ديكون وبعدها سترك صورك . »

ما قالته ماري كان افضل شيء يمكن أن تقوله . فالحديث عن ديكون يعني الحديث عن السبخة وعن الكوخ والأربعة عشر شخصاً

الذين يعيشون فيه بمبلغ ستة عشر شلناً في الاسبوع ـ والأطفال الأصحاء وهم يتغذون من حشائش السبخة مثل الخيول البرية . وعن ام ديكون ـ وحبل الوثب ـ والسبخة والشمس التي تستطع عليها ـ وعن الرؤوس الخضراء الشاحبة التي تخرج من التربة . وكلها مفعمة بالحياة . لقد استطاعت ماري التحدث أكثر من أي مرة تحدثت بها من قبل ـ وكذلك كولن تحدث واستمع بطريقة لم يفعلها من قبل هو ايضاً . وبدأ كلاهما يضحك بدون مبرر وكما يفعل الأطفال عندما يكونون سعداء . لقد ضحكا حتى انهما أحدثا ضجة كبيرة وكأنهما طفلان عمرهما سنتان ويتمتعان بصحة جيدة ـ وليس كطفلة صغيرة قاسية غير محبة وصبي مريض يعتقد بأنه سيموت .

واستمتع الاثنان بحيث نسيا الصور والوقت . وضحكا بصوت مرتفع عندما تحدثا عن بن ويذرستاف وطائره أبي الحناء ، وكان كولن جالساً تماماً وكأنه قد نسي موضوع ظهره الضعيف وفجأة تذكر شيئاً ما ، عندما قال :

« هل تعلمين أن هناك شيئاً لم نفكر به أبداً ؟ فنحن الاثنان أقرباء . »

كان أمراً غريباً أن يتحدثا كثيراً دون أن يتذكرا أبداً هذا الأمر البسيط مما جعلهما يضحكان أكثر من قبل ، لانهما كانا في حالة من المرح جعلتهما يضحكان لأي شيء . وخلال هذه الحالة من الهرج فتح الباب ودخل السيد كريفن ومعه السيدة ميدلوك .

هتفت السيدة ميدلوك « يا إلهي ! يا إلهي » حتى كادت عيناها تخرجان من رأسها .

قال السيد كريفن وهو يدخل « ما هذا ؟ ماذا يعني ذلك » ؟

عندئذ تذكرت ماري ثانية الصبي المهراجا . عندما اجاب كولن دون أن يعبأ لتحذير الطبيب أو لخوف السيدة ميدلوك أو لاقل النتائج . لم يضطرب أو يخاف أبداً وكأن قطاً وكلباً هرمين قد دخلا الغرفة .

وقال « هذه ابنة عمتي ماري لينوكس . وقد طلبت منها أن تأتي وتتحدث معي . ويجب أن تأتي لتتحدث معي كلما ارسلت بطلبها » .

استدار السيد كريفن نحو السيدة ميدلوك مؤنباً .

فقالت وهي تلهث : « آه سـيدي ، لا ادري كيف حدث ذلك . لا يوجد اي خادم في هـذا المكان يجـرؤ على الحديث ـ فكلهم لديهم التعليمات » .

قال كولن : « لم يخبرها أحد بشيء . لقد سمعت بكائي ، ووجدت طريقها إلي نفسها وأنا مسرور لانها جاءت . لا تكوني سخيفة يا ميدلوك » .

لاحظت ماري أن الدكتور كريفن لم يكن مسروراً . ولكن كان من الواضح أنه لا يستطيع معاكسة مريضه . فقد جلس الى جانب كولن وراح يجس نبضه .

وقال « اخشى أن تكون قد اشتدت كثيراً ، وهذا غير مفيد لك يـا بني » .

أجاب كولن « سأشعر بالإثارة إذا ابتعدت عني » ، وكانت عيناه تلحظان بخطورة « إنني أحسن ، لقد جعلتني أفضل ، ويجب على الممرضة أن تحضر الشاي لها معي . سنتناول الشاي معاً » .

نظر كل من السيد ميدلوك والدكتور كريفن الى بعضهما وهمـا مضطربان ، ولكن من الواضح أنهما لا يستطيعان عمل أي شيء .

فتجرات السيدة ميدلوك وقالت « يبدو انه بوضع افضل سيدي . ولكن ـ ثم فكرت بالموضوع مرة أخرى ـ لقد كان في وضع افضل هذا الصباح قبل أن تدخل هي الغرفة » .

قال كولن « لقد جاءت الى الغرفة مساء الأمس . وجلست معي مدة طويلة . وغنت لي اغنية هنـدوسية جعلتني انام ، وكنت بوضع افضل بعد ان استيقظت . اريد فطوري . اريد الشاي الآن . أخبري الممرضة يا ميدلوك » .

لم يمكث الدكتور كريفن فترة طويلة . وتحدث الى المربية بضع دقائق عندما دخلت الغرفة وقال بضـع كلمات تحذير الى كولن بأن لا يتحدث كثيراً ، وان لا ينسى انه مريض ويتعب بسرعة . أخذت ماري تفكر بالأمور الكثيرة والمتعبة والتي يجب أن يتذكرها الدكتور كريفن . كان كولن مضطرباً وعيناه الغريبتان بأهدابهما السوداء الطويلة وهي تتجه نحو وجه الدكتور كريفن .

ثم قال أخيراً « اريد أن أنسى المرض . لقد جعلتني أنساه . ولهذا أريدهـا » .

عندما غادر الدكتور كريفن الغرفة لم يكن مسروراً . فقد القى نظرة محيرة على الطفلة الصغيرة التي كانت تجلس على الكرسي الكبير . فعندما دخل الغرفة صمتت ماري وشعرت بالانقباض مرة أخرى ، ولم يتمكن من معرفة سبب ذلك .

وعلى اي حال فقد بدا الصبي فعلاً أكثر اشراقاً ـ فتنهد بعمق عندما غادر الطبيب الى الممر .

قال كولن : « إنهم على الدوام يريدونني أن آكل الأشياء عندما لا أريدها » . عندها دخلت المربية وقد أحضرت الشاي معها ووضعته على الطاولة قرب الأريكة . تابع كولن « والآن إذا أكلت فسآكل أنا . هذه الفطائر تبدو لذيذة وساخنة . أخبريني عن المهراجا» .

# ١٥ ـ بناء العش

بعد أن مر اسبوعان على هطول المطر ، عاد قوس السماء الازرق للظهور ثانية وكانت الشمس المنسكبة حارة تماماً . ورغم ان ماري لم تسنح لها الفرصة لرؤية الحديقة السرية أو ديكون فقد استمتعت كثيراً . ولم يكن الاسبوع الثاني طويلاً ، فقد كانت تقضي كل يوم ساعات مع كولن في غرفته » . وهي تتحدث عن المهراجا أو الحدائق أو ديكون والكوخ الموجود في السبخة . كان الاثنان يقلبان الكتب والصور ، وكانت ماري أحياناً تقرأ اشياء الى كولن واحياناً يقرأ هو لها . وعندما كان السرور والاستمتاع يظهران على وجهه لم تكن تصدق أنه طفل مريض ما عدا وجهه الذي كان بدون لون وهو مستلق على أريكته باستمرار .

قالت لها السيدة ميدلوك مرة وهي تبتسم قليلاً « انت ايتها الماكرة الصغيرة تسترقين السمع وتنهضين من سريرك لتتبعي الأشياء كما فعلت في تلك الليلة ، ولكن الحقيقة التي يجب أن تقال هي أن الموقف كان نعمة بالنسبة لمعظمنا فلم تعد تنتابه نوبة الغضب أو النحيب منذ أن اصبحتما صديقين . وكانت المربية على وشك التنازل عن مهمتها لانها تعبت منه . ولكنها الآن لا تمانع في البقاء باعتبارك تساعدينها في مهمتها » .

وخلال حديث ماري مع كولن كانت حذرة جداً بخصوص الحديقة السرية . كانت هناك بعض الأمور تريد أن تستطلعها منه ، ولكنها فضلت أن تعرفها بسؤاله أسئلة غير مباشرة . وأولها كان عندما بدأت تحب البقاء معه وأرادت أن تكتشف فيما إذا كان صبياً من النوع الذي يؤتمن على السر . فهو لم يكن مثل ديكون على الاطلاق ، ولكن من الواضح أنه

كان مسرورا لفكرة الحديقة التي لا يعرف احد شيئاً عنها ، مما جعلها تفكر بأنه يمكن الوثوق به ، ولكنها لم تعرفه لفترة كافية حتى تتأكد من ذلك . اما الشيء الثاني الذي كانت تريد معرفته : فهو : إذا كان يمكن الوثوق به ـ إذا استطاع ذلك بالفعل ـ أليس من الممكن أن تأخذه الى الحديقة دون أن يكتشف احـد ذلك ؟ لقـد قال الطبيب الكبير يجب أن يستنشق الهواء النقي ، وقال كولن انه لا يمانع الهواء الطلق في الحديقة السرية . وربما إذا استنشق كثيراً من الهواء الطلق وعرف ديكون وأبا الحناء ورأى الزرع ينمو فلن يفكر كثيراً بالموت . وقد رأت ماري نفسها من خلال المرآة مؤخراً حيث عرفت انها أصبحت مخلوقة مختلفة تماما عن تلك الطفلة التي رأتها عندما وصلت من الهند . فهذه الطفلة تبدو أجمل . وحتى مارثا لاحظت هذا التغيير ، وقالت لها :

لقد جعلك هواء السبخة أفضل الآن ، فلم يعد لونك مصفراً ولا أنت هزيلة . وحتى شعرك لم يعد ينساب على رأسك بدون لمعان ، لقد صار فيه بعض الحيوية . بحيث اصبح يبرز قليلا .

قالت ماري « شعري صار مثلي ، لقد اصبح أقوى وأسمك . فأنا متأكدة انه صار أكثر كثافة .

قالت مارثا وهي تنفش شعر ماري قليلا حول وجهها ، بالتأكيد صار افضل . وأنت الآن لست بشعة كما كنت ، وقد أحمرت وجنتاك قليـلا » .

وإذا كانت الحدائق والهواء الطلق مفيدة لها ، فربما كانت مفيدة الى كولن . ولكن إذا كان يكره أن ينظر إليه الناس فربما لا يحب أن يرى ديكـون .

وفي أحد الأيام سألته « لماذا تغضب عندما ينظر إليك أحد » .

أجابها « إنني أكره ذلك دوماً ، وحتى عندما كنت صغيراً . لقد اخذوني الى شاطىء البحر وكنت استلقي في عربتي ، كان الجميع يحدقون بي . وكانت السيدات يتوقفن ويتحدثن مع مربيتي ، وبعدها يبدأن بالهمس ، وكنت اعرف عندما يقولون يجب أن لا أعيش حتى اصبح كبيراً . وفي بعض الأحيان كانت السيدات يداعبن وجنتي ويقلن . « طفل مسكين » . وفي إحدى المرات . عندما فعلت ذلك احدى السيدات صرخت بصوت مرتفع ورحت أعض يدها فخافت كثيراً وهربت .

قالت ماري « لقد ظننت أنك أصبحت مجنوناً » دون ان يعجبها الكلام إطلاقـاً .

قال كولن مقطباً : لا يهمني ماذا ظننت .

قالت ماري « إنني مستغربة كيف لم تصرخ ولم تعضني عندما دخلت غرفتك ؟ ثم بدأت تبتسم قليلا .

فقال « لقد حسبتك شبحاً او حلماً . ولا يمكنني أن أعض شبحاً ، وإذا صرخت فإنهما لا يعبأن . »

سألت ماري مترددة « هل تكره اذا ـ إذا نظر اليك صبي ؟

استلقى كولن على وسادته وراح يفكر .

ثم قال ببطء وكأنه فكر بكل كلمة : « هناك صبي واحد ، هناك صبي واحد أعتقد أنني لن أهتم إذا نظر الي . إنه الصبي الذي يعرف أن تعيش الثعالب ـ ديكون » .

قالت ماري « إنني على يقين انك لن تعارض رؤيته .

ثم قال وهو لا يزال يفكر : « إن الطيـور والحيوانات الأخـرى لا تعارضـه ، وربما لا أعارض أنا أيضاً لهذا السبب . إنه من النوع الذي يسحر الحيوانات وأنا صبي حيوان » .

ثم ضحك وضحكت هي أيضا ، وفي الواقع انتهى الامر وهما يضحكان كثيراً . لقد وجدا فكرة الصبي الحيوان المختبىء في حجره مضحكة تماما .

وفي اول صباح عندما عادت السماء زرقاء ثانية استيقظت ماري مبكراً . كانت الشمس تنسكب وأشعتها تنحدر من خلال ستائر النوافذ وكان هناك جو مرح جعلها تقفز من سريرها وتركض نحو النافذة . فسحبت الستائر بنفسها فاندفعت نحوها نفحة من الهواء العطر . كانت السبخة زرقاء والعالم كله يبدو وكأنه مسحور . وهناك أصوات موسيقية صغيرة ناعمة هنا وهناك وفي كل مكان ، وكأن عشرات من الطيور قد بدأت العزف لحفلة موسيقية . وضعت ماري يدها خارج النافذة وأبقت عليها في الشمس . وقالت :

« الطقس دافىء — دافىء ! سيساعد الرؤوس الخضراء أن تكبر وتكبر وستجعل البصلات والجذور تجاهد بكل قوتها تحت أرض » .

انثنت ماري على ركبتيها وانحنت خارج النافذة قدر ما تستطيع وهي تستنشق الهواء بعمق حتى ضحكت لأنها تذكرت ما قالته أم ديكون عن انفه الذي يرتعش كأنف الأرنب . وقالت :

« لا بد أن الوقت لا زال مبكراً جداً . فالغيوم الصغيرة كلها زهرية اللون ، ولم أر السماء بهذا الشكل من قبل . ولم يستيقظ أحد . ولا أسمع حتى صبية الاسطبل » .

وفجأة خطرت لها فكرة جعلتها تقف على قدميها .

« لا استطيع الانتظار ! سأذهب لأرى الحديقة ! »

مع مرور الزمن تعلمت ماري كيف ترتدي ثيابها وحدها ، فأرتدت ملابسها خلال خمسة دقائق وكانت تعرف باباً جانبياً تستطيع فتحه بنفسها ، فنزلت مسرعة على الدرج وهي مرتدية جواربها ثم لبست

حذاءها في الصالة . رفعت سلسلة الباب وفتحت الرتاج ثم القفل وعندما فتح الباب قفزت فوق الدرج قفزة واحدة فوجدت نفسها فوق العشب والشمس تنسكب عليها دافئة وحلوة . والنسمات حولها وصوت الزقزقة والغناء يأتي من كل شجرة وشجيرة . صفقت بيديها فرحاً ونظرت الى السماء . وكانت زرقاء وزهرية ولؤلؤية وبيضاء تفيض بنور الربيع مما جعلها تشعر وكأنها يجب أن تعزف وتغني بصوت مرتفع وحدها . وهي تعلم أن السمن وأبا الحناء والقبرة يحتمل أن لا تساعدها . وراحت تركض حول الشجيرات والممرات متجهة نحو الحديقة السرية .

فقالت : « كل شيء مختلف اليوم ، فالعشب اكثر خضرة ، والزرع ينبت في كل مكان ويلتف وبراعم الأوراق الخضراء تكبر . إنني متأكدة بأن ديكون سيأتي بعد الظهر » .

لقد فعلت المطر الدافئة الطويلة اشياء غريبة للاحواض الممتلئة بالعشب والتي تحيط بالممر قرب الجدار المنخفض . كانت هناك أشياء تندفع من جذور كتل النباتات ، وبالفعل كانت هناك نفحات للألوان الوردية الملكية والأصفر تنتشر بين سوق الزعفران . وقبل ستة أشهر لم تكن ماري تعرف كيف يستيقظ العالم ، ولكنها الآن لم يعد ينقصها شيء .

عندما وصلت المكان حيث يختبىء الباب تحت اللبلاب جفلت وصاحت بصوت مرتفع ، لقد كان صوت الغراب آتياً من أعلى الجدار ، وعندما نظرت الى الأعلى رأت طائراً ذا ريش لامع أزرق واسود وهو ينظر إليها بمكر فعلاً . فهي لم تر من قبل غراباً عن قرب مما جعلها عصبية قليلاً ، ولكن بعد لحظة فرد جناحيه وطار بعيداً عبر الحديقة . وتمنت أن لا يبقى داخل الحديقة ، فدفعت الباب وفتحته وهي تتساءل إن كان سيبقى . وعندما دخلت الحديقة وجدت بأنه ربما لا ينوي البقاء

لأنه قد حط على شجرة تفاح صغيرة ، وتحت الشجرة كان هناك حيوان صغير مائل للحمرة وله ذيل سميك وكلاهما كانا ينظران الى ديكون ذي الجسم المنحني والراس الأحمر الصدىء . الذي كان يركع على العشب ويعمل بجد .

ركضت ماري فوق العشب نحوه وصاحت :

ديكون ! ديكون ! كيف وصلت الى هنا باكراً ! كيف استطعت ذلك ! لقد بزغت الشمس الآن ! نهض ديكون وهو يضحك ووجهه متورد وشعره أشعث وعيناه كأنهما قطعة من السماء .

قال ديكون : « حسناً لقد نهضت مبكراً قبلك . ولم أستطع البقاء في السرير . لقد بدأ عالمك السحري اليوم ثانية . فكل شيء يعمل ويدندن ويخربش وينقف من البيضة ويبني عشه ويستنشق الروائح مما دفعني للخروج بدل الاستلقاء على ظهري . وعندما تسطع الشمس على السبخة فإنها تكون مسرورة للغاية . لقد كنت وسط الخلنج ثم ركضت كالمجنون وأنا أصيح واغني فجئت الى هنا مباشرة . لم أستطع البقاء بعيداً فالحديقة هنا بانتظاري !

وضعت ماري يديها على صدرها وهي تلهث وكأنها هي التي كانت تركض ، وقالت :

« آه ! ديكون ! ديكون ! إنني سعيدة جداً لدرجة لا أستطيع التنفس ! » .

وعندما رآه الحيوان الصغير يتحدث الى شخص غريب نهض من مكانه تحت الشجرة واتجه نحو ديكون ، وكذلك الغراب طار فوق غصنه ووقف على كتفه . فقال :

« هذا هو صفير الثعلب » وراح يداعب رأس الحيوان الصغير « اسمه القبطان وهذا هو السناج الذي طار معي عبر السبخة ؛ وكذلك القبطان راح يركض وكأن كلاب الصيد خلفه . كلاهما كان يشعر بما أشعر به » .

لم يخف الاثنان من ماري إطلاقاً . وعندما بدأ ديكون يمشي حول المكان ، ظلّ الغراب سناج على كتفه والقبطان يقف بالقرب منه .

قال ديكون : « انظري هنا ! وكيف خرجت هذه النبتات الى الأعلى وهذه ـ وتلك ! والآن انظري هنا » .

ورمى بنفسه على ركبتيه وانحنت ماري الى جانبه . لقد وجدا مجموعة كاملة من الزعفران الارجواني والبرتقالي والذهبي . حنت ماري رأسها الى الأسفل وراحت تقبلها وتقبلها .

وقالت عندما رفعت رأسها « إنك لن تقبّل إنساناً بهذه الطريقة ، ولكن الأزهار مختلفة .» وبدا على وجه ديكون الاستغراب ولكنه ابتسم قائلا :

« حسناً ! إنني أقبل أمي كثيراً بهذه الطريقة عندما أعود من السبخة بعد أن أكون قد قضيت يوماً في التجوال حيث أجدها تقف عند الباب تستمتع بالشمس وهي سعيدة ومرتاحة . »

وراح الاثنان يركضان في الحديقة من طرف الى آخر ، لقد وجدا غرائب كثيرة ولكنهما كانا ملزمين بأن يذكرا بعضهما بوجوب الهمس أو الحديث بصوت منخفض . كان يريها براعم الأوراق المنتفخة على اغصان الورد التي كانت تبدو ميتة . كما جعلها ترى عشرات آلاف الرؤوس الخضراء الجديدة التي تندفع عبر التربة . وضع الاثنان انفهما بالقرب من التربة وراحا يستنشقان نسمات الربيع وهما يحفران

ويخرجان التراب ويضحكان في نشوة حتى أصبح شعر ماري مشعثاً مثل شعر ديكون ووجنتاها متوردتين مثل الخشخاش الأحمر وكذلك ديـكون .

في ذلك الصباح كان فرح الأرض موجوداً في الحديقة السرية، وفوق كل هذا كانت هناك فرحة طفت على كل شيء . شيء ما طار بنعومة عبر الحائط ونزل بين الأشجار الى زاوية قريبة طائر صغير ذو صدر أحمر وفي فمه شيء ما معلق . وقف ديكون دون حراك ووضع يده على ماري وكأنهما قد وجدا نفسيهما فجأة في كنيسة وهما يضحكان . ثم قـال بلهجة يوركشاير الواضحة :

« يجب أن لا نتحرك ولا نتنفس . كنت أعلم أنه كان يبحث عن شريكة له عندما رأيته في المـرة السـابقة . إنـه طائر بن ويذرستاف ابو الحناء . وهو يبني عشه الآن . وسيبقى هنا إذا لم نزعجه . »

جلس الاثنان على العشب دون حركة وتابع ديكون :

« يجب أن لا نبدو أننا نراقبه عن كثب ، والا فسيذهب الى الأبد إذا لاحظ اننا نتدخل بشئونه الآن . وسيبدو مختلفاً بعض الشيء حتى ينتهي من مهمته . إنه يجلس في الأعلى يراقب بيته .

وسيبدو أكثر خجلاً وحمرة مما يجعله يتحسس الأشياء . ليس لديه وقت الآن ليزورنا ويتحدث معنا . لهذا يجب أن نبقى دون حراك قليلاً وكأننا عشب أو شجر أو شجيرات . وعندما يعتاد رؤيتنا شأغرد قليلاً وسيعرف أننا لن نقف في طريقه . »

لم تكن ماري متأكدة انهـا تستطيع البقاء ساكتة مثـل ديكون ، فكيف تستطيع أن تظهر كالعشب والأشجار والشجيرات . لقد قـال شيئاً غريباً وكأنه الأبسط والأقرب للطبيعة في العالم ، كما شعرت بأن الأمر سهل بالنسبة له ، وبالفعل فقد راحت تراقبه بعناية لعدة دقائق

وهي تتساءل إن كان بإمكانه أن يتحول الى اللون الأخضر وله اغصان واوراق . ولكن كل ما فعله انه جلس دون حراك بصورة رائعة . وعندما تحدث خفض صوته برفة وبالكاد كانت تسمعه ولكنها سمعته تقول :

« إن بناء الأعشاش هو جزء من الربيع وأؤكد أن الأمر يسير بنفس الطريقة في كل عام منذ بدء الخليقة . فالطيور لها طريقتها التي تفكر بها في صنع الأشياء ويجب أن لا نتدخل . لأننا سنفقد صديقاً في الربيع بسهولة اكثر من أي وقت آخر إذا أصبحنا فضوليين . »

قالت ماري : « إذا تحدثنا عنه فإنني لا استطيع مقاومة النظر اليه بقدر ما أستطيع من الرقة . لذا يجب أن نتحدث عن شيء آخر . يجب أن اخبرك شيئاً . »

قال ديكون : « إنه يفضل أن نتحدث عن شيء آخر . ماذا تريدين أن تقولي لي ؟ »

همست ماري « حسناً ـ هل تعرف شيئاً عن كولن ؟ »

أدار ديكون رأسه لينظر إليها وسألها :

« ماذا تعرفين عنه . »

اجابت ماري : « لقد رأيته ، وكنت أتحدث معه كل يوم في هـذا الاسبوع . فهو يريدني أن أذهب إليه . ويقول بأنني جعلته ينسى انه مريض ويمكن أن يموت . »

ظهر الارتياح على وجه ديكون فعلاً عندما اختفت الدهشة من وجهه المستدير . وقال : « أنا سعيد لذلك . إنني بالفعل سعيد . لقد أصبح الأمر أكثر سهولة بالنسبة لي لأنني أعرف أنه لا يجب أن أقـول شيئاً عنه ولا أحب أن أخبىء الأشياء . »

قالت ماري : « الا تحب أن تخبىء الحديقة ؟ »

اجابها : « لن اخبر احداً عنها ابداً . ولكنني قلت لأمي ، قلت لها : « أمي لدي سر يجب أن أحتفظ به . وهو ليس بالأمر السيء ، وأنت تعلمين ذلك وهـذا ليس أسـوأ من إخفـاء مكان عش الطائر . وأنت لا تعارضين ذلك أليس كذلك ؟ »

كانت ماري ترغب دوماً في ان تسمع أخبار أمه فسألته دون خوف مما ستسمعه :

« ماذا قالت ؟ »

ابتسم ديكون ابتسامة عريضة لطيفة وأجابها :

« إنها كما هي ، راحت تدلك رأسي قليلاً وضحكت ثم قالت : حسناً يا بني تستطيع الاحتفاظ بكل الأسرار التي تحبها . فأنا أعرفك منذ أثني عشر عاماً . »

سأل ماري : « وكيف عرفت اخبار كولن ؟ »

« الجميع يعرفون أن السيد كريڤن له صبي صغير سيكون مشلولاً ويعرفون أن السيد كريڤن لا يحب أن يتحـدث عنه أحـد . والجميع يتأسفون من أجل السيد كريڤن لأن السيدة كريڤن كانت سيدة شابـة جميلة وكانا يحبان بعضهما كثيراً . وكلمـا ذهبت السيدة ميدلوك الى ثوابت فإنها تتوقف عند كوخنا وتتحدث مع أمي أمامنا لأنها تعرف بأننا تربينا على الثقة . ولكن كيف عرفت أنت بأمره ؟ لقد كانت مارثا مضطربة جداً عندما جاءت البيت في المرة الماضـية . وقالت أنك سمعت بكـاءه وكنت تسألين أسئلة وهي لا تعرف ماذا تجيبك . »

قامت ماري بسرد قصتها عندما كانت الريح تعصف فأيقظتها وكذلك عن الأصوات الخافتة البعيدة وصوت التذمر الذي قادها الى الأسفل في الممرات المظلمة حاملة شمعتها ، وانتهى بها المطاف بأن فتحت بـاب الغرفة ذات النور الخافت والسرير المنحوث في الزاوية . وعندما قامت بوصف الوجه الصغير الأبيض مثل العاج والعينين الغريبين ورموشهما السوداء هز ديكون راسه وقال :

« عيناه مثـل عيني أمـه ، إلا أن عينيها كانتا تبتسمان دوماً كمـا يقولون . ولهذا يقولون بأن السيد كريڤن لا يستطيع رؤيته عندما يكون مستيقظاً لأن عينيه تشبهان عيني امه ، ومع ذلك فهو يبدو مختلفـا جـداً بسبب وجهه البائس . »

همست ماري : « هل تظن بأنه يريد موته ؟ »

« لا ، ولكنه كان يتمنى لو أنه لم يولد أبداً . وتقول أمي بأن ذلك هو أسوأ شيء في العالم بالنسبة للطفل . فلم يكن هناك أحد يتمنى ان يتحسن ويكبر .والسيد كريڤن مستعد لشراء أي شيء يمكن شراؤه بالمال للصبي المسكين ، ولكنه يفضل أن ينسى وجوده على الأرض وذلك لسبب واحد وهو أنه يخاف أن ينظر إليه يوماً ما فيجده أحدب . »

قالت ماري : « إن كولن نفسه يخاف ذلك مما يجعله لا يجلس ابداً ، ويقول أنه يفكر دوماً إذا شعر أن هناك كتلة فإنه سيصبح مجنوناً وسيصرخ حتى يموت . »

قال ديكون : « يجب أن لا يفكر بهذه الطريقة ، لأن أي فتى يفكر هكذا فلن يكون أحسن . »

كان الثعلب مستلقياً على العشب بالقرب منه وينظر الى الأعلى يطلب مداعبته بين الحين والآخر . فانحنى ديكون الى الأسفل وراح

يداعب رقبته بلطف ويفكر لعده دقائق بصمت . ثم رفع راسه ونظر حوله في الحديقة وقال :

« عندما دخلنا الحديقة لأول مره كان كل شيء يبدو رماديا . انظري حولك الآن إنها تشبه تقريبا الحاجز الشفاف الأخضر » .

صاحت ماري « ماذا ! إن الحائط الرمادي يتبدل وكأن ضبابا أخضر يزحف فوقه . إنه يشبه الغطاء الرقيق الأخضر » .

قال ديكون : « نعم وسيصبح أكثر خضرة حتى يتلاشى اللون الرمادي . هل تعلمين بماذا أفكر ؟ » .

قالت ماري بشوق : « أعلم بانه شيء جميل ؛ وأعتقد أن الأمر يتعلق بكولن » .

« كنت أفكر انه إذا خرج وجاء الى هنا ، فلن يراقب تلك الكتل التي ستنمو في ظهره بل سيراقب تفتح البراعم على أشجار الورد . وربما تحسنت صحته . لقد كنت أفكر لو استطعنا أن نجعل مزاجه أفضل بحيث يخرج الى هنا ويستلقي تحت الأشجار في عربته » .

قالت ماري : « كنت أنا أيضاً أفكر بذلك تقريباً في كل مرة تحدثت فيها معه . وقد تساءلت إن كان يؤتمن على سر ، وإن كان بالإمكان خروجه الى الحديقة دون أن يرانا أحد . كما فكرت أن تقوم أنت بدفع الكرسي . لقد قال الطبيب أنه بحاجة الى هواء منعش . وإذا رغب أن نخرجه نحن الى الهواء فلن يتجرأ أحد على عدم إطاعته . وهو لن يخرج للهواء إذا طلبوا منه ذلك وربما سيكونوا سعداء إذا خرج معنا .

كان ديكون يفكر كثيراً وهو يحك ظهر الثعلب . ثم قال :

« إنني أراهن بأن سيكون أفضـــل . يجب أن لا نفكر بموضوع لـو انه لم يولد أبداً ، فنحن لسنا سوى طفلين نراقب كيف تنمو الحديقة . وسيكون هو ثالثنا . صبيان إثنان . وبنت واحدة يراقبون قدوم الربيع إنني أراهن بأن هذا سيكون أفضل من دواء الطبيب » .

قالت ماري : « إنه يستلقي في غرفته منذ زمن بعيد وهو في خوف دائم من ظهره مما جعله غريب الأطوار . إنه يعرف أشياء كثيرة مـن الكتب ، ولكنه لا يعرف أي شيء آخر . وهو يقول بأنه مريض لدرجة تجعله من الصعب أن يلاحظ الأشياء . ويكره الخروج خارج المنزل ، وكذلك يكره الحدائق والبساتين . ولكنه يحب أن يسمع عـن هـذه الحديقة لأنها سر لم أجرؤ على إخباره الكثير عنهـا ، ولكنه قال بأنه يريد رؤيتها » .

قال ديكون : « سنحضره الى هنا يوماً ما بالتأكيد ، وأنا أستطيع دفع عربته جيداً . هل لاحظت كيف كان أبو الحناء وزوجته يعملان ونحن جالسين هنا ؟ انظري إليه وهو يقف على ذلـك الغصن ويفكر بالمكان الأفضل لكي يضع الغصن الصغير الذي يحمله بمنقاره » .

صفر ديكون صفرة نداء صغيرة فأدار أبو الحناء رأسه ونظر إليه

متسائلاً والغصن لا يزال في منقاره ، تحدث ديكون إليه كما يفعل بن ديذرستاف ، ولكنه حديث ديكون كان نصيحة صديق .

قال له : « أينما وضعت الغصن فسيكون جيداً . فأنت تعرف كيف تبني عشك حتى قبل خروجك من البيضة . تابع عملك أيهـا الصبي . فليس لديك وقت لتصنيعه » .

قالت ماري وهي تضحك مسرورة : « آه ! إنني أحب سماعك وأنت تتحدث إليه ! إن بن ديذرستاف يؤنبه ويجعله أضحوكة . ولكن

ابا الحناء يقفز حوله ويبدو وكأنه يفهم كل كلمة وانا اعلم بأنه يحب ذلك ويقول بن ديذرستاف بأنه مغرور للغاية ويجب ضربه بالحجارة وعدم الاهتمام به » .

ضحك ديكون أيضاً وتابع حديثه الى أبي الحناء .

« انت تعرف بأننا لن نزعجك . فنحن الاثنان اقرب ما نكون الى المخلوقات البرية . ونحن أيضاً نبني عشنا باركك الله . ولكن انظر لا تعلمنا ماذا نفعل » .

وبالرغم من عدم إجابة ابي الحناء لأن منقاره كان مشغولاً ، فقد عرفت ماري بأنه عندما طار بعيداً وهو يحمل غصنه الصغير الى زاويته في الحديقة ، فإن سواد عينه التي تلمع كقطرة الندى كانت تقول بأنه لن يفصح عن سرهما مهما كلف الأمر .

* * *

## ١٦ ـ ماري تقول «لن أفعل ذلك ؟»

لقد كان لديهما الكثير مـن العمل في ذلك الصباح : فتأخرت ماري في العودة الى البيت ، كما كانت في عكلة من امرها كي تعود للعمل حتى أنها لم تتذكر كولن إلا في اللحظة الأخيرة .

قالت ماري إلى مارثا أخبري كولن أنني لن أستطيع رؤيته لأنني مشغولة جداً في الحديقة ، كانت مارثا خائفة قليلاً ، فأجابت :

حسناً ولكن ياآنسة ماري ، من المحتمل أن يخرج عن طوره إذا قلت له ذلك .

لا أستطيع البقاء لأن ديكون ينتظرني ، ثم ركضت بعيداً .

وفي الحقيقة كان النصف الثاني من النهار أكثر جمالاً والعمل اكثر من الصباح . فقد تم تعشيب الأعشاب الضارة كلها تقريباً ، كما تم تقليم معظم الورود والاشجار وكذلك صنعت حفر حولها . فقد أحضر ديكون مجرفته وقام بتدريب ماري على استخدام أدواتها ، وكان من الواضح أن هذا المكان يشبه البرية ومن الصعب أن يكون كالحديقة التي يعتني بها البستاني ولكنه سيكون مثل برية تنمو فيها الاشياء قبـل انتهاء فصل الربيع .

قال ديكون : « سيكون هناك براعم تفاح وكرز فوق رأسنا » . وكان يعمل بكل قوته « وسيكون هناك أيضاً أشجار دراق وخوخ مزهرة أمام الجدران ، وسيصبح العشب مثل سجادة مليئة بالأزهار .

كان الثعلب الصغير والغراب سعيدين ومشغولين مثلهما ، كما كان أبو الحناء وزوجته يطيران جيئة وذهابا مثل خيوط البرق الرفيعة. وكان الغراب ينشر جناحيه الأسودين أحياناً ويطير فوق رؤوس أشجار الحديقة . وفي كل مرة كان يعود فيها يقف قرب ديكون ويصيح عدة مرات وكأنه يسرد مغامراته ، فيحدثه ديكون كما يحدث أبا الحناء . وفي إحدى المرات عندما كان ديكون مشغولاً جداً ولم يرد عليه ، طار الغراب سناج وحط فوق كفه وراح ينقر له أذنه بمنقاره العريض . وعندما أرادت ماري أن تستريح قليلاً جلس ديكون معها تحت شجرة . وبعد أن أخرج مزماره من جيبه وبدأ يعزف برقة أنغاماً قصيرة وغريبة ظهر أمامه فوق الجدار سنجابان وهما ينظران ويستمعان .

قال ديكون « لقد أصبحت أقوى مما كنت عليه ، وستتغيرين أكثر حتماً » وكان ينظر إليها وهي تحفر .

كان وجه ماري متورداً بسبب التمرين والمعنويات المرتفعة .

قالت وهي مبتهجة : « إن وزني يزيد يوماً بعد يوم . ويجب على السيدة ميدلوك أن تحضر لي ثياباً ذات قياس أكبر . وتقول مارثا أن شعري أصبح أكثر كثافة ولم يعد منسدلاً وقاسياً .

كانت الشمس قد شارفت على المغيب وقد نشرت أشعتها الذهبية الغامقة تحت الأشجار عندما افترق الاثنان . فقال لها ديكون :

« غداً سيكون يوماً جميلاً وسآتي للعمل مع مطلع الشمس » .

قالت ماري : « وأنا كذلك » .

ركضت عائدة إلى البيت بالقدر الذي تسمح به قدماها كانت تريد أن تخبر كولن عن الثعلب الصغير والغراب وماذا فعل فصل الربيع . وهي على يقين أنه سيحب الاستماع لذلك . ولكن عندما فتحت باب غرفتها لم تجد مايسرها ، لقد وجدت مارثا تقف بانتظارها بوجه كئيب.

فسألتها : « ماذا حدث ؟ » وماذا قال كولن عندما اخبرته أنني لا أستطيع الذهاب إليه ؟

قالت مارثا : « حسناً ! كنت أتمنى لو انك ذهبت . لقد كان على وشك أن تنتابه إحدى نوباته وكان علينا أن نفعل له اشياء جميلة ليبقى هادئاً . وهو يراقب الباب طوال الوقت .

اطبقت ماري شفتاها . ولم تكن لتكترث للناس اكثر من كولن ، ولم تجد مبرراً لصبي مدلل كي يتدخل بالأشياء التي تحبها جداً . لم تكن تعرف شيئاً عن الرافة بالناس المرضى والعصبيين والذين لايعرفون كيف يضبطون أمزجتهم ، وأنه لا حاجة لجعل الآخرين مرضى وعصبيين أيضاً . فعندما كان ينتابها الصداع في الهند ، كانت تفعل ما بوسعها لترى بقية الناس لديهم صداع أيضاً او اي شيء آخر سيء . وكانت تشعر انها على حق تماما ولكنها الآن بدأت تشعر أن كولن مخطىء جداً .

عندما دخلت الغرفة لم يكن كولن جالساً على اريكته ، بل كان ممدداً على ظهره في سريره ولم يلتفت نحوها وقت دخولها . لقد كانت بداية سيئة ، مشت ماري بخطا سريعة نحوه وهي في مزاج متصلب ، وقالت له :

« لماذا لم تنهض » ؟

أجابها دون أن ينظر اليها : « لقد نهضت في الصباح عندما فكرت انك ستأتين وأجبرتهم أن يعيدوني الى السرير بعد الظهر . كان ظهري يؤلمني وكذلك رأسي ، لقد كنت متعباً . لماذا لم تأتِ ؟ »

قالت ماري : « كنت أعمل في الحديقة مع ديكون . »

قطب كولن جبينه وتنازل أن ينظر إليها . وقال :

« لن أسمح لهذا الفتى أن يأتي الى هنا إذا ذهبت وبقيت من بدل ان تاتي لتتحدثي معي . »

كادت ماري أن تفقد صوابها دون أن تحدث ضجة . نقد تجهمت واصبحت مشاكسة ولم تعد تهتم ماذا يمكن ان يحدث

« إذا صرفت ديكون فلن آتي الى الغرفة مرة أخرى أبداً . »

قال كولن : « ستأتين إذا أردت أنا ذلك . »

أجابت « لن افعل ذلك . »

قال كولن : « سأجبرك وسيجروك جراً . »

قالت ماري بعنف : « هل سيفعلون ذلك يا سيد مهراجا ! يمكنهم أن يجروني الى هنـا ، ولكنهـم لا يستطيعون إجبـاري على الكلام . فسأجلس واطبق أسناني ولن أخبرك شيئاً واحداً . وحتى لن أنظر إليك . بل سأحدق بالأرض . »

كان الاثنان زوجاً متناغماً وهما يحدقان ببعضهما . ولو كانا ولدين صغيرين من الشـارع لقفز أحدهمـا على الآخر ونشبت بينهما معركة عنيفة . ولكن في الوضع الراهن تابعا ما يمكن أن يحدث ،فصاح كولن :

« أنت أنانية ! »

قالت مـاري : « وأنت ماذا ؟ الأنانيون هـم الذين يقولون ذلك . أي شخص لا يفعل ما يريده الآخرون فهو أناني . وأنت أكثر أنانية مني . أنت اكثر صبي أناني رأيته على الاطلاق . »

قال كولن بحدة : « أنا لست أنانياً ! أنا لست أنانياً مثل ديكون اللطيف ! فهو يدعك تلعبين بالقذارة ، بينما يعرف أنني أنا وحدي . إنه هو الأناني ، إن أعجبك ذلك ! »

كانت عينا ماري تقدحان شرراً ، وهي تقول .

إنه ألطف من أي ولد آخر في هذا الوجود ، إنه ــ إنه كالملاك ! ربما كان هذا الكلام يبدو سخيفاً ولكنها لم تهتم .

كشر كولن بوحشية « ملاك لطيف ! إنه ليس إلا صبي من كوخ في السبخة ! »

تلعثمت ماري : « إنه افضل من مهراجا عادي . إنه أفضل ألف مرة » .

وبما أنها كانت هي الأقوى فقد بدات تنتصر عليه . والواقع أنه لم يسبق له أن تشاجر مع احد مثله في حياته ، وبصورة عامة فقد كان ذلك افضل له رغم أن كليهما لم يدركا تلك الحقيقة .

أدار كولن رأسه على وسادته واغلق عينيه فخرجت دمعة كبيرة سالت على خده . لقد بدأ يشعر بالحزن والأسف على نفسه ــ وليس على أي شخص آخر .

وقال : « لست أنانياً مثلك ، لأنني مريض دوماً ، وأنا على يقين أن كتلة تكبر في ظهري . إضافة الى أنني سأموت » .

قالت ماري وهي تناقضه : « لن تموت ! » .

فتح عينيه جيداً بسخط . فهو لم يسمع أبداً مثل هكا الكلام من قبل . وفي الحال شعر بالغضب . وبقليل من السرور ، إذا استطاع الإنسان أن يجمع الحالتين معاً بنفس الوقت .

قالت ماري غاضبة : « إنني لا أصدق ذلك ! إنك تقول ذلك لكي تنال عطف الناس . وأعتقد أنك فخور بهذا . إنني لا أصدق ذلك ! ولو كنت صبياً لطيفاً لربما كان ذلك صحيحاً ــ ولكنك كريه جداً » .

ورغم ظهره المريض ، فقد جلس كولن في سريره بطريقة لا تنم عن المرض وصرخ :

« اخرجي من الغرفة » ثم امسك وسادته ورماها بها . ولكنه لم يكن قوياً بصورة كافية ليقذفها بعيداً ، فسقطت الوسادة على قدميها ؛ ولكن الضيق كان واضحاً على وجه ماري مثل كسارة البندق . فقالت له : « إنني ذاهبة ولن اعود ! »

مشت ماري نحو الباب ، وعندما وصلت إليه استدارت وتكلمت مرة اخرى قائلة :

« كنت سأخبرك بكل الأشياء الحلوة ، لقد جلب ديكون معه الثعلب والغراب ، وكنت سأحدثك عنهما . ولكنني الآن لن أقول لك شيئاً ! »

وخرجت من الباب وأغلقته خلفها ، واكثر ما أدهشها أنها وجدت المربية تقف وكأنها كانت تستمع ، والأكثر غرابة في الأمر — أنها كانت تضحك . لقد كانت شابة ضخمة وجميلة ، ولا تصلح أن تكون مربية مدربة إطلاقاً باعتبار انها لا تتحمل المرض فقد كانت دوماً تجد الأعذار لكي تترك كولن في عناية مارثا أو أي شخص آخر يمكن أن يحل محلها . لم تكن ماري تحبها إطلاقاً ؛ لقد وقفت بكل بساطة تحدق بها بينما كانت المربية تضحك ومنديلها على فمها .

سألتها ماري : « ما الذي يضحكك ؟ »

قالت المربية : « عليكما أنتما الاثنتان ، إن أفضل شيء بالنسبة لمريض مدلل هو أن يواجهه شخص آخر مدلل مثله » وراحت تضحك ومنديلها على فمها ثانية : « ولو كانت عنده أخت صغيرة مشاكسة فإن ذلك سيريحه تماماً » .

سألت ماري : « وهل سيموت ؟ »

اجابت المربية : « لا أدري ، ولا يهمني الأمر . إن نوبات الهستريا والانفعال هي نصف مرضه » .

سألت ماري : « وما هي نوبات الهستريا ؟ »

« ستعرفين إذا حدثت له نوبة بعد ذلك. وعلى كل حال فقد قدمت له سبباً للهستريا وأنا سعيدة بذلك » .

عادت ماري الى غرفتها ، ولكنها فقدت الشعور الذي كان لديها عندما عادت من الحديقة . لقد كانت غاضبة وخائبة الأمل ولكنها لم تكن آسفة على كولن . لقد كانت تتطلع الى أشياء عظيمة وكثيرة ، كما كانت تحاول اتخاذ قرار فيما إذا كان ممكننا إيداعه سراً كبيراً . وبدات تفكر ان ذلك ممكناً ، أما الآن فقد غيرت رأيها كلياً . فلن تخبره بشيء مطلقاً ، ويمكنه البقاء في غرفته دون أن يستنشق هواءً منعشاً ابداً ويموت إذا رغب بذلك ، فهذا يليق به ! كانت غاضبة جداً وقاسية ، لدرجة أنها نسيت موضوع ديكون تقريباً لعدة دقائق وكذلك الغطاء الأخضر الزاحف من العشب والريح اللطيفة التي تأتي من السبخة .

كانت مارثا بانتظارها ، لقد حل محل الاضطراب الذي كان يبدو على وجهها الاهتمام والفضول. كانت هناك علبة خشبية على الطاولة وقد انزاح غطاؤها وكانت مليئة بربطات أنيقة .

قالت لها مارثا : « لقد ارسلها لك السيد كريفن ، ويبدو وكأنه في داخلها كتباً مصورة » .

تذكرت ماري سؤاله لها عندما ذهبت الى غرفته « هل تريدين أية دمى ـ ألعاب ـ كتب ؟ » .

فتحت إحدى الربطات وهي تتساءل إن كان قد أرسل لها دمية ، وماذا ستفعل بها إن كان قد أرسل لها الدمية . ولكنه لم يفعل ذلك لقد أرسل لها عدة كتب جميلة مثل تلك الكتب الموجودة لدى كولن ، إثنان

منهما عن الحدائق وهـي مليئة بالصـور . كانت هناك لعبتـان أو ثلاث ومحفظة جميلة صغيرة الكتابة وعليها إشارة ذهبية وقلم ذهبي ومحبرة .

كل شيء كان جميلاً مما جعل سعادتها تطرد غضبها خارج رأسها . فهي لم تكن تتوقع أن يتذكرها أبداً ، وبدأ قلبها الصغير يشـعر بالدف تمامـاً .

فقالت : « أستطيع الكتابة أكثر من رسـم الحروف ، وأول شيء سأكتبه بهـذا القلم هي رسـالة الى السـيد كريفـن أعبر فيهـا عـن امتناني له » .

ولو كانت على علاقة طيبة مع كولن لركضـت إليه لتطلعه علـى الهدية فوراً ولكي ينظرا معاً الى الصور ويقرآ بعض الكتب عن الحدائق وربما يحاولان اللعب معاً ، وبذلك يمتع نفسه ولن يفكر أبداً بالموت ، أو ان يضع يده على عموده الفقري ليرى فيما إذا كانـت عليه كتلة . لقد كانت لديه طريقة لافتعال الأشياء لم تستطع احتمالها . مما ولّد لديها شعوراًمخيفاً وغير مريح لأنه هو نفسه يبدو دوماً خائفاً ، وقال هو نفسه أنه إذا شعر ولو بكتلة صغيرة يوماً ما فهذا يعني أن حدبته قد بدأت تكبر . لقد سمع السيدة ميدلوك تهمس للمربية بذلك ، وفكر بالأمر سراً حتـى ثبتت الفكرة في رأسه ــ كما قالت السـيدة ميدلوك أن ظهر والده بـدأ ينحني بهذه الطريقة عندما كان طفلاً . ولم يخبر أحداً سـوى ماري بأن معظم نوباته ــ كما يسمونها ــ تنبع من خوفه الداخلي الرهيب . لقـد حزنت ماري من أجله عندما أخبرها ذلك .

قالت ماري لنفسها : « إنه دوماً يبدأ بالتفكير بهذا الموضوع عندما يغضب أو يكون متعباً ، وهو اليوم غاضب . وربما كان يفكر بذلك طوال بعـد الظهر » .

فجلست ساكنة وهي تنظر الى السجادة تفكر : « لقد قلت أننـي لن أعود ثانية على الاطلاق» ــ ترددت ماري وهي تقطب حاجبيها ــ «ولكن ربما ــ ربما فقط ــ سأذهب لأرى ــ إن كان يريدني ــ في الصباح. وربما يحاول أن يرمي وسادته باتجاهي ثانينة ــ أعتقد ــ أنني سأذهب . »

# ١٧ ـ نوبة الغضب

كانت ماري قد استيقظت باكراً في الصباح وعملت بجد طوال النهار ، فأحست بالتعب والنعاس ولما احضرت مارثا العشاء تناولته وكانت سعيدة بالذهاب الى السرير . وعندما وضعت رأسها على الوسادة راحت تدمدم لنفسها :

« سأخرج الى الحديقة قبل تناول الإفطار وسأعمل مع ديكون ، وبعد ذلك ـ أظن ـ انني سأذهب لرؤيته » .

لكنها استيقظت عندما سمعت أصواتاً فظيعة وظنت أن الوقت صار منتصف الليل ، وخلال لحظات قفزت من سريرها . ما هذا ؟ ما هذا ؟ وفي الدقيقة التالية شعرت أنها تعرف مصدر الصوت . كانت الأبواب تفتح ثم تغلق وكان هناك أصوات أقدام تمشي بسرعة في الممرات وشخص يبكي ويصرخ بنفس الوقت يبكي ويصرخ بطريقة مخيفة .

قالت ماري : « إنه كولن . لقد أصابته إحدى النوبات التي تسميها المربية هستريا . كم يبدو ذلك فظيعاً » .

وبينما كانت تستمع لصرخات النحيب ، لم تستغرب أن يخاف هؤلاء الناس فيتصرفون حسب هواه بدلاً من أن يستمع إليهم . وضعت ماري يديها على أذنيها وشعرت وكأنها مريضة وبدأت ترتجف .

« لا أدري ماذا أفعل ـ لا أدري ماذا أفعل » ، وتابعت كلامها « لا أستطيع تحمل ذلك » .

وعندما تساءلت فيما إذا كان سيكف عن البكاء والصراخ لو تجرأت وذهبت إليه ، تذكرت كيف أخرجها من الغرفة وفكرت بإمكانية أن تسوء حالته فيما لو رآها . وحتى عندما ضغطت يديها بشدة على اذنيها لم تستطع منع الصوت الفظيع . كانت تكره سكان البيت وتخاف منهم وهذا الأمر جعلها تغضب فجأة وكأنها هي نفسها ستصيبها نوبة فتخيفه كما اخافها . لم تكن معتادة على مزاج أحد سوى مزاج نفسها ، فأبعدت يديها عن اذنيها وقفزت وضربت الأرض بقدميها وصاحت :

« يجب أن يوقف كولن عن حده ! لا بد أن يسكته أحد ! لا بد أن يضربه أحد ! » .

في تلك اللحظة سمعت صوت أقدام تركض في الممر ، ثم فتح بابها ودخلت المربية . ولكنها لم تكن تضحك هذه المرة أبداً . بل كانت صفراء اللون ، فقالت بسرعة كبيرة :

« إنه في حالة هستريا . وسيؤذي نفسه . ولا أحد يستطيع أن يفعل له شيئاً . تعالي وحاولي معه كالاطفال المهذبين ، إنه يحبك » .

قالت ماري « لقد طردني من غرفته هذا الصباح » وهي تضرب قدمها بعصبية .

وفي الواقع فقد أعجبت المربية ضربة قدمها ، والحقيقة هي أنها كانت خائفة أن تجد ماري تبكي وقد خبأت رأسها تحت اغطية السرير .

قالت المربية : « هذا صحيح . أنت ذات أخلاق حسنة . اذهبي إليه وأنبيه ، قدمي له شيئاً جديداً يفكر به . اذهبي أيتها الطفلة بأسرع ما يمكنك . »

لم تستوعب ماري إلا فيما بعد بأن الموضوع كان مضحكاً بقدر ما كان مخيفاً ــ لقد كان مضحكاً لأن جميع الكبار كانوا يخافون أن يطلبوا من طفلة صغيرة لأنهم يظنون بأنها سيئة مثل كولن نفسه .

ركضت ماري عبر الممر ، وكلما اقتربت من صوت الصراخ كلما زاد غضبها . لقد كانت تشعر بنفس شريرة عندما وصلت أمام الباب ، الذي فتحته بيدها وركضت عبر الغرفة نحو السرير .

وقالت وهي تصرخ « انت توقف ! انت توقف ! إنني أكرهك ! الجميع يكرهونك ! وأتمنى لو أن الجميع يهربون من البيت ويدعونك تصرخ وحدك حتى الموت ! عندئذ ستصرخ وحدك وتموت خلال دقيقة . وأتمنى أن تفعل ذلك . »

ولو كانت ماري طفلة لطيفة حنونة ، فإنها لن تفكر ولن تقول مثل

هذه الكلمات ، ولكن الذي حدث أن الصدمة التي أصابته لمجرد سماع كلماتها كانت أفضل علاج ممكن لجنون هذا الصبي الذي لم يتجرأ أحد على كبحه أو معارضته .

كان مستلقياً على وجهه ويضرب وسادته بيديه ، وبالفعل فقد قفز تقريبا واستدار بسرعة باتجاه الصوت الصغير الغاضب وكان وجهه يبدو مخيفاً ، أبيض وأحمر ومنتفخاً ، كان يشهق ويختنق ، ولكن المتوحشة الصغيرة ماري لم تعِرْه أدنى اهتمام ، بل قالت له :

« إذا صرخت صرخة أخرى فسأصرخ أنا أيضاً ــ وإنني أستطيع ان أصرخ بصوت أعلى من صوتك وسأخيفك ، سأخيفك ! »

وبالفعل فقد توقف عن الصراخ لأنها أخافته . فصراخها جعله يختنق ، وكانت الدموع تنسكب على وجهه وهو يرتجف .

وقال وهو يشهق وينتحب : « لا أستطيع التوقف ! لا استطيع ـ لا أستطيع ! »

صاحت ماري : « بل تستطيع ! إن نصف آلامك هي بسبب الهستريا والغضب ـ فقط هستريا ـ هستريا ـ هستريا ! » وكانت تضرب بقدمها في كل مرة تكرر فيها كلمتها .

قال كولن بصوت مختنق : « لقد شعرت بتلك الكتلة ـ شعرت بها . وكنت أعلم ذلك . وسيكون لي حدبة في ظهري وبعدها سأموت ، ثم بدأ يتلوى ثانية واستدار على وجهه وبدأ ينتحب ويتنهد ولكنه لم يصرخ .

عارضته ماري بعنف : « انت لم تشعر بكتلة الهستريا هي التي تصنع الكتل . لا يوجد شيء في ظهرك الكريه ! لا يوجد سوى الهستريا ! استدر ودعني أراها . »

لقد أعجبتها كلمة هستريا ، وشعرت وكأن لها تأثيراً عليه . وربما كان هو مثلها ولم يسمعها من قبل . وبدأت تعطي أوامرها : « أيتها المربية تعالي الى هنا وأرني ظهره دقيقة ! »

كانت كل من المربية والسيدة ميدلوك ومارثا يقفن مجتمعات قرب الباب يحدقن بها وأفواههن نصف مفتوحة . لقد شهقت النسوة الثلاث أكثر من مرة من الخوف . فتقدمت المربية وكأنها خائفة وكان كولن ينتحب بنفس متقطع يعلو ويهبط .

قالت ماري مترددة بصوت منخفض : « ربما هو ـ ربما لن يدعني أرى . »

ولكن كولن سمعها وقال لاهثاً : « دعوها ترى ! عندئذ سترى ! »

وعندما كشف ظهره كان نحيلاً وبائساً وتستطيع أن تعد كل عظم من عظام القص وكل فقرة من عموده الفقري ، ومع ذلك لم تقم ماري

بتعداد عظامه عندما انحنت فوقه وهي تفحصها بوجهها الصغير المتوحش والوقور . لقد كانت ماري فظة جداً ومن الطراز القديم ؛ حتى أن المربية أدارت وجهها جانباً لكي تخبىء انقباض فمها . وكانت هناك دقيقة صمت واحدة ، وحتى كولن حاول أن يلتقط أنفاسه عندما كانت ماري تنظر من أعلى الى أسفل عموده الفقري وبالعكس بتمعن كامل وكأنها طبيب شهير من لندن .

واخيراً : « لا يوجد ولا كتلة واحدة ، لا يوجد كتلة ولا حتى بحجم راس الدبوس ــ ولا يوجد سوى كتلة عظام العمود الفقري وتستطيع أن تتلمسها لأنك نحيل . أنا نفسي لدي كتلة عظام العمود الفقري ، التي كانت ناتئة مثــل عظامك حتى صرتُ أكثر امتــلاءً ، ولكنني لم أمتلىء لدرجة تجعل العظام تتغطى كلها . ولا يوجد كتلة ولو بقدر حجم الدبوس وإذا قلت ذلك مرة أخرى فسأضحك . »

لم يعرف أحــد مدى تأثير هــذه الكلمات . التي قيلت بصــورة غاضبة ، على كولن إلا هو نفسه .

ولو كان هناك أحد يتحدث إليه عن مخاوفه السرية ــ أو لو تجرأ هو نفسه على سؤال بعض الأسئلة ــ أو لو كان لديه أصدقاء اطفال ، ولم يستلق على ظهره في ذلك البيت الواسع المغلق ، وهو يتنفس جواً مثقلا بمخاوف الناس . ومعظمهم جاهلون وقد ملوا منه ــ لوجد أن معظم خوفه ومرضه كان بسببه هو . ولكنه كان مستقلياً دوماً ويفكر بنفسه وبآلامه وضجره من الساعات والأيام والسنوات . والآن جاءت تلك الفتاة الصغيرة الغاضبة القاسية تصر وبعناد أنه ليس كما يظن أبداً. لقد شعر كولن بالفعل وكأنها تقول الحقيقة .

تجرأت المربية وقالت : « لم أكن أعلم انه يفكر بكتلة على عموده الفقري . ظهره ضعيف لأنــه لا يحاول الجلوس . لقــد كان بإمكاني أن أخبره بعدم وجود كتلة على ظهره . »

شعر كولن بغصة فأدار وجهه ليراها وقال بصورة تثير الشفقة :
« هـ ـ هـل تستطيعين ؟ »

« نعم يا سيدي . »

ثم ادار وجهه ثانية ، ولكنه وبسبب انتهاء نوبة البكاء استلقى لمدة دقيقة وهو ساكن رغم الدموع الكثيفة التي كانت تنهمر على وجهه وتبلل وسادته . وبالفعل فقد كانت الدموع تعني أنه أصبح في وضع مريح جداً . ثم استدار ونظر الى المربية مرة أخرى ، ومن المستغرب أنه عندما كان يتحدث إليها لم يكن مثل المهراجا الصغير ، فقال :

« هل تعتقدين ـ أنني ـ سأعيش حتى أصبح كبيراً ؟ »

لم تكن المربية ذكية ولا رقيقة القلب ، ولكنها كانت تستطيع أن تردد بعض كلمات أطباء لندن . « ربما تعيش إذا فعلت ما يطلب منك أن تفعله ، لا أن تستسلم لمزاجك . ولا بد أن تبقى فتراة طويلة في الهواء الطلق . »

مرت نوبة غضب كولن شعر بعدها بالضعف والإرهاق بسبب البكاء ، وربما كان هذا هو السبب الذي جعله لطيفاً . فمد يده نحو ماري ، ولحسن الحظ كانت موجة غضبها هي الأخرى قد مرت وأصبحت أكثر ليونة أيضاً فمدت يدها له في منتصف الطريق ، وبذلك كان هناك نوع من التسوية . فقال لها « سأ ـ سأخرج معك يا ماري ، ولن أكره الهواء الطلق إذا استطعنا أن نجد ـ » وتذكر بالوقت المناسب أنه يتوقف عن قول « أن نجد الحديقة السرية » وأنهى كلامه : « أحب أن أخرج معك إذا جاء ديكون ودفع بالكرسي . وكذلك أريد أن أرى ديكون والثعلب والغراب . »

أعادت المربية ترتيب السرير المقلوب والوسائد . ثم صنعت فنجاناً من مرق لحم البقر قدمته الى كولن وآخر الى ماري التي كانت سعيدة جداً بتناوله بعد أن غضبت وانسحبت كل من السيدة ميدلوك ومارثا وهما مسرورتان . وبعد أن أصبح كل شيء مرتباً وهادئاً شعرت المربية أن عليها الانسحاب هي الأخرى وبسرور . لقد كانت امرأة شابة تتمتع بصحة جيدة وتكره فكرة إيقاظها من نومها ، فقد كانت تتثاءب وفمها مفتوح وهي تنظر الى ماري التي قامت بجر أريكتها بالقرب من السرير ذي القواعد الأربع وهي تمسك بيد كولن . فقالت لها :

« يجب أن تعودي لتنامي . وسينام هو بعد قليل ـ إذا لم يكن منزعجاً كثيراً . وبعدها سأنام أنا في الغرفة المجاورة . »

همست ماري الى كولن : « هل تحب أن أغني لك تلك الأغنية التي تعلمتها من مربيتي الهندية ؟ »

سحب كولن يد ماري بلطف وأدار عينيه المتعبتين نحوها وهو يستعطفها وأجاب :

« آه ! نعم . يا لها من أغنية رقيقة . وسأنام بعد دقيقة . »

قالت ماري للمربية المتثائبة : « سأدعه ينام ، بإمكانك الذهاب إذا أردت . »

قالت المربية في محاولة منها للمعارضة : « إذا لم ينم خلال نصف ساعة عليك استدعائي . »

أجابت ماري : « جيد جداً . »

خرجت المربية من الغرفة خلال دقيقة ، وحالما خرجت سحب كولن يـد ماري مرة اخرى وقال : « كنت سـأقول ولكنني توقفت في الوقت المناسب . لن اتكلم الآن لأنني سأنام ، ولكنك قلت أن لديك أشياء حلوة كثيرة تريدين أن تقوليهـا لي . هل ـ هـل تعتقدين أنك وجدت ما يرشدك الى طريق الحديقة السرية ؟ »

نظرت ماري الى وجه المسكين الصغير المتعب وعينيه المنتفختين . فرقّ قلبها ، وأجابت :

« نعـ ـم ، أعتقد ذلك . وإذا نمت الآن فسأخبرك غداً . »

قال ويده ترتجف « آه يا مـاري ـ آه يا مـاري ! إذا استطعت الدخول إليها اعتقد أنني سأعيش حتى أصبح كبيراً ! ألا تعتقدي أنك تستطيعين ، بدلاً من اغنية المربية الهندية ، أن تخبريني وبنعومة ، كما فعلت أول يوم ، عن الأشياء التي تتخيلينها داخل الحديقة ؟ فأنا متأكد بأن هذا سيجعلني أنام . »

اجابت ماري : « نعم ، اغلق عينيك . »

أغلق كولن عينيه واستلقى بهدوء وامسكت ماري بيده وبـدأت تتحدث ببطء وبصوت منخفض جداً .

« أعتقد انها مهجورة منذ زمن بعيد ـ وقد نمت بطريقة عشوائية وأعتقد أن الورود قد تسلقت وتسلقت حتى انها امتدت من الأغصان والجدران وزحفت على الأرض ـ تماماً مثل الضباب الرمادي الغريب. بعضها قد مات ، ولكن الكثير منها لايزال حياً ـ وعندما سيأتي الصيف سيكون هناك ستائر وينابيع من الورود . أعتقد أن الأرض مليئة بالنرجس وزهرة الثلج والسوسن والنيلوفر التي تشق طريقها عبر الظـلام ، والآن بدأ الربيع .. ربما ربما » .

كانت نبرة صوتها الرقيقة قد جعلته اكثر واكثر هدوءاً ، وقد لاحظت ذلك فتابعت :

« ربما كانت تعرج من بين العشب ــ ربما كان هناك عناقيد من الزعفران الأرجواني والذهبي ــ حتى الآن . وربما كانت الأوراق قد بدأت بالتفتح ــ وربما تحول اللون الرمادي وبدأ يزحف ــ ويزحف ــ مكانه غطاء أخضر يغطي كل شيء . والطيور تأتي لترى ذلك ــ لأنها ــ في مكان آمن وهادىء ــ وربما ــ وربما ــ وربما استطاع أبو الحناء وهي تقول ذلك بكل هدوء ورقة « أن يجد زوجة له ــ ويبني عشه » .

وهكذا نام كولن .

# ١٨ ـ يجب أن لا نضيع الوقت

في صباح اليوم التالي لم تستيقظ ماري باكراً بالطبع . وتأخرت في نومهـا لأنهـا كانت متعبـة . وعندما احضرت مـارثا طعام الإفطـار اخبرتها أنه رغم هدوء كولن التام إلا انه مريض وحرارته مرتفعـة كما يحدث له في كل مرة بعد نوبة البكاء . وكانت ماري تتناول إفطـارها ببط وهي تستمع .

واضافت مارثا « يقول كولن أنه يستأذنك لكي تذهبي إليه . بأسرع ما تستطيعين ، كم هو غريب كيف اعتاد عليك . لقد كنت عنيفة معه البارحة بالتأكيد ــ أليس كذلك ؟ ولا يوجد أحد يتجرأ على فعل ذلك . تقول أمي بأن أسوأ شيئين بالنسبة لطفل هو أن لا يعطي الحرية أبداً أو أن يترك على هواه دوماً . ولا تعلم أمي أيهما أسوأ من الآخر . أمـا انت فقد كنت في مزاج جيد . ووقد قال لي كولن اليوم عندما دخلت غرفته أرجوك اطلبي من الآنسة ماري لو تكرمت أن تأتي حتى تتحدث معي » . تصوري أنه قال من فضلك ! هل ستذهبين إليه يا آنسة ؟

قالت ماري سأركض لأرى ديكون أولا ، لا سأذهب لأرى كولن أولا وأخبره ــ إني أعرف ماذا سأقول له ، وكأن فكرة مفاجئة قد خطرت لها

عندما دخلت ماري غرفة كولن كانت قبعتها على رأسها . فبدت عليه خيبة الأمل للحظة . كان في سريره ووجهه ابيض بصورة تدعو للأسف ووحول عينيه دوائر بيضاء .

قال لها : « أنا سعيد لقدومك ، رأسي يؤلمني وكذلك جسمي كله لأنني متعب . هل ستذهبين الى مكان ما ؟ »

تقدمت ماري وانحنت على السرير . وقالت له :

« لن أغيب طويلا،سأذهب الى ديكون،ولكنني سأعود يا كولن انه — انه امر يتعلق بالحديقة السرية .

بدا وجه كولن يلمع وارتد لونه قليلا وصاح .

آه ! هل هذا صحيح ؟ لقد حلمت بها طوال ليلة امس . لقد سمعتك تقولين شيئاً عن اللون الرمادي الذي يتحول الى اخضر . كما حلمت انني اقف في مكان يمتلىء بأوراق خضراء صغيرة وفيه طيور أعشاش في كل مكان ، لقد كانت تبدو لطيفة وهادئة جداً . سأستلقي وأفكر بها الى أن تحين عودتك .

وخلال خمس دقائق كانت ماري مع ديكون في الحديقة . لقد جاء مع الثعلب والغراب ثانية ، كما أحضر معه هذه المرة سنجابين اليفين .

قال لها : لقد أتيت هذا الصباح راكباً على الفرس ، إنه فرس صغير يقفز جيداً ! كما وضعت هذين السنجابين في جيوبي . هذا هنا واسمه بندق والآخر هناك واسمه صدفة .

عندما قال بندق قفز أحد السنجابين على كتفه الأيمن ، وعندما قال صدفة قفز السنجاب الثاني على كتفه الأيسر .

عندما جلسا أرضاً فوق العشب كان الثعلب يلتف حول نفسه عند اقدامهما والغراب فوق الشجرة يستمع بهدوء وبندق وصدفة يحومان بالقرب منهما ، شعرت ماري أنه من الصعب جداً مفارقة هذه المتعة ، ولكن عندما بدأت تقص قصتها فإن تعابير وجه ديكون جعلتها تغير رأيها تدريجياً . لقد لاحظت بأنه صار أكثر حزناً على كولن منها . وراح ينظر الى السماء وكل ما يحيط به . وقال :

استمعي فقط الى الطيور ــ وكأن العالم مليء بها وهي تصفر وتغرد. انظري إليها وهى تندفع في كل مكان واصغى إليها وهي تنادي بعضها البعض . وكأن العالم كله ينادي : « تعالوا لقد اتى الربيع » . وكما ترين فالأوراق تتفتح ــ ويا إلهي الروائح الطيبة في كل مكان ! وراح ديكون يستنشق الهواء بأنفه السعيد المرفوع للأعلى . وهذا الصبي المسكين مستلق في غرفة مغلقة ، ولا يرى الا القليل . مما يدفعه للتفكير بأشياء تجعله يصرخ . حسناً ! يجب أن تأتي به الى هنا ــــ حتى يرى ويسمع ويستنشق الهواء ويمتص جسمه أشعة الشمس . يجب أن لا نضيع الوقت بالنسبة له .

عندما يكون ديكون مهتماً بأمــر ما فإنه يتحــدث بلهجة يوركشاير العريضة ، رغم انه كان يحاول تعديل لهجته في مرات أخــرى حتى تستطيع ماري أن تفهمه . ولكنها كانت تحب لهجته العريضة . وفي الواقع ، كانت تحاول أن تتعلمها هي نفسها . ولهذا لم تتحدث إلا قليلا الآن ، وأجابت بلهجة يوركشاير . « نعم ــ يجب أن لا نضيعه فعلا ، وسأخبرك ما سنفعله أولا . كانت ماري تتابع حديثها وديكون يبتسم مكشراً لأنه عندما كانت تحاول الطفلة الصغيرة أن تلوي لسانها لتتحدث بلهجة يوركشار فقد أسعده ذلك كثيراً ، لقد أصبح مولعاً بك كثيراً . ويريد أن يراك مع الثعلب والغراب . وعندما سأعود اليوم الى البيت سوف أسأله إن كان بإمكانك أن تأتي غداً صباحاً وهذه المخلوقات معك وبعد ذلك بفترة عندما تتفتح أوراق وبراعم أكثر ، سوف نخرجــه وستقوم أنت بدفع كرسين ، وسنأتي به الى هنا .

وعندما توقفت كانت فخورة بنفسها فهذه أول مرة تتحدث حديثاً طويلا بلهجة يوركشاير واستطاعت أن تتقنها .

ضحك ديكون وقال : « يجب أن تتحدثي بلهجة يوركشاير الى السيد كولن ، وسوف يضحك ، والضحك جيد للمريض . وتقول أمي بأن

ضحك نصف ساعة كل صباح يمكن أن يشفي فتى أصيب بحمى التفوئيد » .

أخذت ماري تضحك ايضاً وتقول سأتحدث اليه اليوم بلهجة يوركشاير .

بلغت الحديقة ذروتها ، حتى أنها أصبحت فيها كل يوم وكل ليلة تبدو وكأن السحرة يمرون بها ويسحبون الجمال من الأرض والأغصان والزرع . لقد كان من الصعب مغادرتها وخاصة وأن بندق قد زحف نحو ثوب ماري وصدفة زحفت الى أسفل جذع شجرة تفاح فجلستا تحتها وهما ينظران إليها وعيونهما في حيرة ، ولكن ماري عادت الى البيت وعندما جلست بالقرب من سرير كولن بدأ يشم كما فعل دكون ولو أننه لم يكن يشم بطريقة شخص خبير .

صاح كولن بفرح « رائحتكمثل مثل رائحة الأزهار والأشياءالطازجة ما هذه الرائحة ؟ إنها باردة ودافئة وطيبة كل ذلك مرة واحدة .

قالت ماري : إنه هواء السبخة ، الذي يأتي عندما أكون أنا ودبكون جالسين تحت الشجرة ومعه الثعلب قبطان والغراب سناج والسنجابين وبندق وصدفة ، إنه الربيع في الخارج والشمس كلها تعطي هذه الرائحة الرائعة .

قالت تلك بلهجة يوركشاير العريضة بقدر ما تستطيع وبإتقان وكأن واحداً من أهالي يوركشاير يتكلم . فبدأ كولن يضحك ويقول :

« ماذا تفعلين ؟ لم أسمعك من قبل تتحدثين بهذه الطريقة . كم هي مضحكة . »

أجابت ماري « إنني أتحدث اليك قليلا مثل أهل يوركشاير ، فأنا لا أستطيع أن أتحدث كثيراً مثلما يفعل ديكون ومارثا ، ولكن كما ترى

استطيع ان أحورها قليلاً . الا تفهم هـذه اللهجة قليلاً عندما تسمعها فأنت نفسك ولدت ونشأت في يوركشاير ! حسناً ! استغرب كيف انك لا تخجل من نفسـك .

وبدات هي الأخرى تضحك ايضاً ، وضحك الاثنان معاً . حتى أنهما لم يستطيعا التوقف ، لقد ضحكا حتى صارت الغرفة تحـدث صدى . وعندما فتحت الباب السيدة ميدلوك وهي تهم بالدخول تراجعت الـى الممر ووقفت تستمع وهي مذهولة .

وبدات تحدث نفسها بلهجة يوركشاير لأن أحـداً لا يسمعها وكانت مندهشة ! حسناً اقسم أن احداً لم يسمع مثل ذلك ! وهل يوجد إنسان على سطح الأرض يستطيع أن يصدق ذلك !

كان لدى ماري الكثير لتتحدث عنه . ويبدو أن كولن لا يمل مـن سماع قصص ديكون والقبطان وسناج وبندق وصدفـة والفرس الذي يدعي القفر . فذهبت ماري الى الغابة مع ديكون لترى الفرس . كان فرساً نحيلاً صغيراً أشعث ، يعيش في السبخة ، وفوق عينيه خصـل كثيفة من الشعر وله وجه جميل وأنف ذو ملمس مخملي . كان نحيلاً لأنه كان يعيش على عشب السبخة ، ولكنه قـوي وصلب . وكأن عضـلات اقدامه الصغيرة قد صنعت من نوابض فولاذية . رفع الفرس رأسه عندما راى ديكون وراح يئن برقة ومشى نحوه ثم وضع رأسه على كتف ديكون، وهمس ديكون في اذنه فأجابه بأنات ونفخات وصهيل . وقد أمره ديكون أن يرفع حافره الأمامي الصغير ويقدمه الى ماري ليطبع قبلة على خدها بأنفـه المخملي .

سأله كولن : « وهل يفهم فعلاً كل ما يقوله ديكون ؟ » .

أجابت ماري : « يبدو انه يفهم . ويقول ديكون أنه يفهم كـل شيء إذا كنت صديقاً له بالتأكيد ، ولكن يجب أن تصادقه حتماً » .

استلقى كولن بهدوء قليلا وكانت عيناه الرماديتان الغريبتان تحدقن بالحائط . ولكن ماري لاحظت أنه كان يفكر .

ثم قال اخيراً : « اتمنى لو كنت صديقاً مع المخلوقات، ولكنني لست كذلك . فأنا لست صديقاً مع اي شيء . ولا أستطيع تحمل الناس » .

سألت ماري : « ألا تستطيع ان تتحملني ؟ »

اجاب : « نعم أستطيع ، إنه شيء مضحك ، بل إنني أحبك . »

قالت ماري : « لقد قال بن ويندرستاف انني مثله ، كما أنه يراهن بأننا نحن الاثنين لنا نفس الطباع الكريهة . وأعتقد أنك انت أيضاً مثله . فنحن الثلاثة متشابهون ـ أنت وأنا وبن ويذرستاف . لقد قال أنه لا يوجد لدينا شيء يلفت النظر وان طباعنا فظة كمظهرنا ، ولكنني لا أشعر الآن أنني فظة كما كنت قبل أن أعرف أبا الحناء وديكون » .

« هل كنت تشعرين أنك تكرهين الناس ؟ »

أجابت ماري من دون أية عاطفة : « نعم ، كان من الممكن أن أكرهك لو رأيتك قبل ان ارى أبا الحناء وديكون » .

مد كولن يده ولمسها . ثم قال :

« ماري ، كنت اتمنى لو أنني لم أتحدث عن إبعاد ديكون . لقد كرهتك عندما قلت أنه يشبه الملاك ، وضحكت عليك ، ولكن ـ ولكن ربما كان كذلك » .

وافقت ماري صراحة : « حسناً ، لقد كان من المضحك قول ذلك ، لأن أنفه مرفوع الى الأعلى ، وله فم كبير وثيابه كلها مرقعة ، ويتكلم بلهجة يوركشاير العريضة ، ولكن ـ ولكن إذا جاء ملاك الى يوركشاير وعاش في

السبخة ــ وإذا كان هنالك ملاك في يوركشاير ــ فإنني أعتقد انه سيفهم الأشياء الخضراء وسيعرف كيف يجعلها تنمو وكيف يتحدث الى المخلوقات البرية كما يفعل ديكون . إنهم يعرفون انه صديق لهم بالتأكيد » .

قال كولن : « لا يهمني إذا نظر الي ديكون . إنني أريد رؤيته » .

أجابت ماري : « يسرني أن تقول ذلك . لأنه ، لأنه ــ » .

وفجأة خطر لها أن الوقت حان لكي تخبره . كان كولن يعلم بأن شيئاً جديداً سيأتي . فصرخ كولن بشوق : « لأنه ماذا ؟ »

كانت ماري قلقة جداً حتى انها نهضت من على أريكتها واقتربت منه وامسكت بكلتا يديه . واخذت تناشده : « هل يمكنني أن أثق بك ؟ لقد وثقت بديكون لأن الطيور تثق به . فهل يمكنني أن أثق بك بالتأكيد ــ بالتأكيد ؟ »

كان وجهها مهيباً جداً بحيث أجاب على الفور تقريباً «نعم ــ نعم».

«حسناً ، سيأتي ديكون ليراك غداً صباحاً وسيجلب معه مخلوقاته».

صاح كولن بسرور : « يا إلهي ! يا إلهي » .

تابعت ماري قائلة : « ولكن هذا ليس كل شيء » كان وجهها مهيباً وفيه إثارة « ما سأقوله سيكون أفضل . يوجد باب للحديقة وقد وجدته . إنه في الجدار تحت اللبلاب » .

ولو كان كولن ولداً قوياً ويتمتع بصحة جيدة فلربما صاح كما يصيح طرزان . ولكنه كان ضعيفاً وعصبياً ، فصارت عيناه أكبر وأكبر والتقط أنفاسه وصاح وهو شبه منتحب :

« آه ! ماري هــل أستطيع رؤيتها ؛ هــل يمكنني دخولها ؟ هــل سأعيش حتى اراها ؟ » ثم أمسك بيدها وجرها نحوه .

قالت ماري دون مبالاة « بالطبع ستراها أو بالتأكيد ستعيش حتى تدخلها ! لا تكن سخيفاً ! »

كانت ماري هادئة جداً وطبيعية وطفولية بحيث جعلته يثوب لنفسه عندما بدأ يضحك من تصرفاته ، وبعد بضع دقائق كانت ماري تجلس على أريكتها ثانية وهي تخبره هذه المرة عن حقيقة الحديقة السرية وليس عن تصوراتها عنها ، لقد نسي كولن آلامه وتعبه وهو يستمع إليها مبتهجاً .

وأخيراً قال لها « إنها تماماً كما تخيلت صورتها . ويبدو وكأنك قد رايتها . هل تعلمين أنني قدرت ذلك عندما أخبرتني عنها أول مرة » .

ترددت ماري حوالي دقيقتين ثم قالت الحقيقة بجرأة :

« كنت قد رأيتها ـ لقد دخلتها ، ووجدت المفتــاح ودخلتها منــذ أسابيع . ولكنني لم أتجرأ أن أخبرك ـ لم أتجرأ لأنني كنت خائفة ألا اثق بك ـ بصورة مؤكدة ! »

## ١٩ ـ لقد حان الوقت

تم إخبار الدكتور كريفن صبيحة النوبة التي أصابت كولن . وكان يجري طلبه دوماً على الفور عند حدوث أمر كهذا ، وعندما يأتي كان يجد أمامه صبياً مستلقياً على سريره وهو يرتجف ومتجهم الوجه وعصبياً لدرجة أنه على استعداد للانفجار في نوبة بكاء لأقل كلمة . وفي الحقيقة كان الدكتور كريفن يخشى ويكره صعوبات مثل هذه الزيارات . وفي هذه المرة لم يصل ميسلثويت مانور إلا بعد الظهر .

سأل السيدة ميدلوك عندما وصل وكان قلقاً «كيف حاله؟ سينفجر أحد عروقه يوماً ما في إحدى هذه النوبات . إن هذا الصبي نصف مجنون من عصبيته وتفكيره بنفسه » .

أجابت السيدة ميدلوك : « حسناً يا سيدي ، لن تصدق عيناك عندما ستراه . لقد استطاعت تلك الطفلة البشعة الفظة ذات الخصال السيئة مثله أن تسحره . ولا أحد يعرف كيف فعلت ذلك . الله وحده يعلم . فهي ليس لديها ما يشغلها ، ونادراً ما تسمعها تتكلم، ولكنها فعلت ما لم يتجرأ على فعله أي واحد منا . لقد ركضت نحوه البارحة كالقطة الصغيرة وضربت قدمها بالأرض وأمرته بالتوقف عن الصراخ فأخافته بعض الشيء وبالفعل فقد توقف ، وبعد ظهر اليوم ـ حسناً ـ اصعد الآن يا سيدي . فلن تصدق » .

كان المنظر الذي رآه الدكتور كريفن عندما دخل غرفته مريضه مثيراً للدهشة فعلاً بالنسبة له . فعندما فتحت السيدة ميدلوك باب الغرفة

سمع صوت ضحك وثرثرة . كان كولن على أريكته مرتدياً رداء غرفة النوم ويجلس مستقيماً وهو ينظر الى صورة في أحد الكتب عن الحدائق ويتحدث الى الطفلة البشعة ولكنها في تلك اللحظة لم تكن كذلك أبداً لأن وجهها كان يلمع سروراً .

كان كولن يقول : « تلك الزنابق الطويلة ذات اللون الأزرق ـ سوف نزرع منها الكثير ، وتسمى العايق » .

صاحت الآنسة ماري « ديكون يقول أنها تكبر وتصبح ضخمة . ويوجد منها مجموعات الآن ».

بعد ذلك رأى الطفلان الدكتور كريفن فتوقفا . وبدت ماري ساكنة تماماً ، كما بدا كولن خائفاً .

قال الدكتور كريفن « يؤسفني ما سمعته عن مرضك ليلة البارحة يابني » . كان عصبياً بعض الشيء . فهو رجل تغلب عليه العصبية .

أجاب كولن وكأنه مهراجا ( انني أفضل الان ـ أفضل بكثير . واذا كان الطقس جيدا فسأخرج بعد يوم أو اثنين الى الخارج في الكرسي . انني بحاجة للهواء الطلق .

جلس الدكتور كريفن الى جانبه وجس نبضه ونظر اليه باستغراب وقال :

( يجب أن تكون يوماً جيداً جداً ، ويجب أن تنتبه لكي لا تتعب نفسك ) .

قال المهراجا الصغير ( الهواء الطلق لن يتعبني ) .

وبما أنه سبق لهذا الجنتلمان الصغير أن صرخ عالياً وبغضب في مناسبات سابقة على أن الهواء الطلق يسبب له الرشح والموت ، فليس

من الغريب ان يجفل الطبيب بعض الشيء ويقول له : ( ظننت أنك لا تحب الهواء اللطيف ) .

أجاب المهراجا ( لا احبه عندما اكون وحدي ، ولكن ابنة عمتي ستأتي معي ) .

اقترح الدكتور كريفن ( والمربية بالطبع ؟ ) .

أجاب ( لا ، لن تكون المربية معي ، وقالها بطريقة رائعة ، فتذكرت ماري الامير الهندي الشاب ومنظره بالجواهر والزمرد ، واللؤلؤ التي تغطيه وأحجار الياقوت على يده السمراء الصغيرة التي يلوح بها ليأمر الخدم كي يتقدموا منه ويقدموا فروض الطاعة ثم يتلقوا اوامره .

( ابنة عمتي تعرف كيف تعتني بي . انني أشعر بتحسن عندما تكون معي . لقد جعلتني أشعر بالتحسن ليلة البارحة . وأعرف صبيا قوياً جداً سيدفع عربتي ) .

شعر الدكتور كريفن بالانزعاج . فاذا سنحت الفرصة لهذا الصبي المتعب المجنون بالتحسن ، فانه هو نفسه سيخسر الفرصة ليرث ميسلثويت ، ولكنه لم يكن رجلا عديم الضمير ، بالرغم من ضعفه ، ولم يكن ينوي أن يجره الى خطر فعلي . فقال له :

( يجب أن يكون ولداً قوياً وثابتاً ، ولابد ان اعرف شيئاً عنه . من هو ؟ وما اسمه ؟ )

وفجأة تكلمت ماري ( انه ديكون ) . كان شعورها هو أن كل من يعرف السبخة يجب أن يعرف ديكون وكانت محقة بذلك . فقد لاحظت أن وجه الدكتور كريفن قد بدا عليه الارتياح خلال دقيقة فابتسم ابتسامة مريحة .

ثم قال ( آه ! ديكون . اذا كان ديكون فستكون في مأمن تماماً . إن ديكون قوي مثل فرس السبخة ) .

قالت ماري وهو موثوق أيضا ، ثم تحدثت بلهجة يوركشاير : انه اكثر الاولاد ثقة في يوركشاير ، وكانت قد نسيت نفسها وراحت توجه الكلام الى كولن .

ضحك الدكتور كريفن فوراً وقال لها « هل علمّك ديكون هذهاللهجة»

قالت ماري ببرود ( انني أتعلمها وكأنها لغة فرنسية . انهـا تشبه اللهجة المحلية في الهند . والكثير من الناس المجدين يحاولون تعلمهـا . لقد أحببتها وكذلك كولن . )

قال ( حسناً ، حسناً ، اذا كانت تلك اللهجة تسركما فهي لن تؤذيكما أبداً ، هل تناولت دواءك البارحة يا كولن ؟ )
أجاب كولن ، لم اتناوله بادىء الامر ، وبعد أن جعلتني ماري هادئاً اخذت تحدثني لكي انام ـ بصوت منخفض ـ عن الربيع الـذي بـدأ يزحف الى الحديقة .

أجاب الدكتور كريفن ( هذا يبدو لطيفاً ولكنه كان أكثر اضطرابا من قبل ، وهو ينظر بطرف عينه الى الآنسة ماري وهي تجلس على كرسيها وتنظـر الى السـجادة بصمت « وحتماً أنت الآن أفضـل ولكن يجب أن تتذكر » .

قاطعه المهراجا ثانية : « لا أريد أن أتذكر ، فعندما أستلقي وحيداً وأتذكر تبدأ الالام في كل جسمي وأفكر في أشياء تجعلني أبدأ بالصراخ لانني أكرهها . اذا كان هناك طبيب في أي مكـان يستطيع أن ينسيني مرضي عوضاً عن أن أتذكره فسآتي به الى هنا »، وراح يلوح بيده النحيلة التي كان يجب أن تغطى كلها بالخواتم الملكية المصنوعـة من الياقوت . « ان ما جعلني أشعر بالتحسن هو أن ابنة عمتي جعلتني أنسى ذلك » .

كانت هذه المرة أقصر فترة لبقاء الدكتور كريفن بعد نوبة الغضب . ففي السابق كان يضطر للبقاء فترة طويلة وان يقوم بعمل اشياء كثيرة . ولكن هذا المساء لم يعط اية ادوية ولم يترك اية تعليمات جديدة ، كما انه لم ير أية مشاهد ، كريهة . وعندما نزل الى الطابق الاسفل كان يفكر كثيراً ، وعندما تحدث الى السيدة ميدلوك في غرفة المكتبة شعرت انه الرجل الاكثر حيرة .

فاندفعت قائلة : « حسناً يا سيدي ، هل تصدق ما حدث ؟ » .

قال الطبيب : « إنه بالتأكيد وضع جديد ، ولا يمكن أن ننكر أن الوضع الآن أفضل من السابق » .

قالت السيدة ميدلوك : « أعتقد سوزان ساورباي على حق ــ أعتقد ذلك ، لقد توقفت أمام كوخها البارحة وأنا في طريقي الى ثوايت، وتحدثت معها وقالت لي : « حسناً يا سارة آن ، يحتمل أن لا تكون طفلة جميلة أو جيدة ، ولكنها في كل الأحوال طفلة والأطفال بحاجة الى اطفال » . لقد كنت أنا وسوزان ساورباي في المدرسة معاً » .

قال الدكتور كريفن : « إنها أفضل ممرضة لمريض عرفتها . فعندما أراها في ذلك الكوخ أعلم أنه لا يزال هناك فرصة لإنقاذ مريضي » .

ضحكت السيدة ميدلوك . فقد كانت مغرمة بسوزان ساورباي . ثم قالت بطريقة غير مباشرة : « إن سوزان لها طريقتها الخاصة ، أليس كذلك ! لقد كنت أفكر طوال صباح اليوم بشيء واحد قالته لي البارحة . قالت : « في إحدى المرات أعطيت درساً للأولاد بعد أن تشاجروا . فقلت لهم : « عندما كنت في المدرسة قالت لنا معلمة الجغرافيا إن الأرض مدورة كالبرتقالة ، وقد تعلمت قبل أن أبلغ العاشرة ، أن البرتقالة ليست كلها ملكاً لشخص واحد . ولا يحق للواحد أكثر من جزء من ربعها ، وربما يأتي وقت لا توجد فيه أرباع كافية . ولكن ولا واحد منكم سيمتلك

البرتقالة كلها ، وإذا ظن كذلك فسيجد نفسه مخطئاً ولن يعرف ذلك قبل ان يمر بمراحل صعبة » . وتقول : « أن ما يتعلمه الأطفال من الأطفال الآخرين هو أنه لا يوجد مبرر لأن يستحوز احدهم على البرتقالة كلها — والقشرة وما فيها . وإذا فعل ذلك فمن المحتمل أن لا يحصل ولا حتى على البذور وهي ذات طعم مر ولا يستطيع أكلها » .

قال الدكتور كريفن وهو يرتدي معطفه « إنها امرأة عاقلة » .

أنهت السيدة ميدلوك حديثها قائلة وهي سعيدة جداً : « حسنا ، لديها طريقتها لتقول ما تريد ، أقول لها أحياناً « حسناً يا سوزان ، لو كنت امرأة غير ذلك ولا تتحدثين لهجة يوركشاير بهذه الطريقة ، فقد مرت مناسبات لا بد أن أقول فيها انك امرأة ذكية » .

في تلك الليلة نام كولن دون أن يستفيق ولا مرة ، وفي الصباح عندما فتح عينيه ، ظل مستلقياً وهو صامت ، وكان يبتسم دون أن يدري — كان يبتسم لانه كان يشعر براحة لا توصف . فهناك متعة حقيقية فعلاً في أن يكون المرء مستيقظاً . ثم استدار ومدد يديه ورجليه بصورة مترفة . لقد شعر وكأن السلاسل المحكمة التي كانت تقيده قد انحلت وجعلته حراً . لم يكن يدري ان الدكتور كريفن قال بأن أعصابه قد ارتاحت وهدأت . وبدل من أن يستلقي وهو يحدق بالحائط ، ويتمنى لو أنه لم يستيقظ ، كان رأسه مليئاً بالخطط التي وضعها هو وماري بالأمس ، وكذلك بصور الحديقة وديكون ومخلوقاته البرية . جميل أن يكون هناك أشياء يفكر بها الانسان . وبعد حوالي عشرة دقائق من استيقاظه سمع صوت أقدام عبر الممر ، وكانت ماري تقف أمام الباب . وبعد دقيقة كانت وسط الغرفة ، ثم ركضت نحو سريره وهي تحمل معها نفحة من الهواء النقي الممتلئة برائحة الصباح .

صاح كولن « لقد كنتِ في الخارج ! لقد كنتِ في الخارج ! هناك تلك الرائحة الطيبة للأوراق ! » .

كانت ماري تركض وشعرها منسدل يطير ، وهي مشرقة بسبب الهواء المطلق ووجنتاها مزهرتان رغم أنه لم ير ذلك .

قالت ماري وكأن نفسها قد انقطع لأنها كانت مسرعة : « الطقس جميل جداً ! إنك لم تر في حياتك جمالاً مثله ! لقد أتى ! أعتقد أنه أتى

في ذلك الصباح ، ولكنه كان آتيا . وقد وصل الآن ! لقد جاء الربيع ! ديكون يقول هذا ! » .

صاح كولن « هل أتى ؟ » ورغم أنه لا يعرف شيئاً عن الربيع ، فقد شعر أن قلبه يدق . وقد جلس في سريره بالفعل . وأضاف وهو يبتسم لسببين : للسعادة الغامرة ولتصوراته الخاصة به :

« افتحي النافذة ، ربما نسمع الأبواق الذهبية ! » .

ورغم أنه كان يضحك ، إلا أن ماري وصلت الى النافذة خلال ثانية . وخلال ثانية أخرى فتحت النافذة على مصراعيها فاندفع منها الهواء الطلق والعذب والروائح وأغنيات العصافير .

قالت ماري : « هذا هو الهواء المنعش ؛ استلقي على ظهرك وخذ نفسا عميقا . وهذا ما يفعله ديكون عندما يستلقي في السبخة . ويقول بأنه يشعر بالهواء داخل عروقه يهبه قوة ، فيشعر وكأنه يستطيع أن يعيش الى الأبد والى الأبد . استنشق واستنشق » .

كانت ماري تكرر ما قاله لها ديكون ، ولكنها استطاعت أن تتحسس تصورات كولن .

قال لها : « الى الأبد وإلى الأبد ! هل يجعله هذا الهواء يشعر بذلك ؟ » ثم فعل كما قالت له ، لقد تنفس بصورة عميقة وكرر ذلك حتى شعر أن شيئاً جديداً تماماً يحدث له .

كانت ماري تقف ثانية الى جانب سريره . وهي تتحدث على عجل .

أنواع الزرع المختلفة تشق طريقها خارج التربة ، هناك أزهار تتفتح وبراعم في كل مكان والغطاء الأخضر غطى اللون الرمادي كله تقريباً ؛ والعصافير في عجلة من أمرها وهي تبني أعشاشها خشية أن تتأخر كثيراً ؛

حتى ان بعضها يتشاجر مع بعضها الآخر من أجل الأماكن في الحديقة السرية . وأغصان الورود تبدو غضة ، غضة الى أبعد حد ، وهناك زهرة الربيع والغابات ، والبذور التي زرعناها قد كبرت ، كما أن ديكون قد اتى مع ثعلبه وغرابه والسنجابين والخروف الذي ولد حديثاً .

توقفت قليلاً لتلتقط انفاسها ثم تابعت . اما الخروف الصغير فقد وجده ديكون قبل ثلاثة أيام مستلقياً الى جانب أمه التي ماتت بين شجيرات الوزال في السبخة . ولم يكن هذا أول خروف يتيم يجده ديكون ، لذلك فقد كان يعرف ما يجب أن يفعله . لقد أخذه الى الكوخ ملفوفاً بسترته ثم تركه مستلقياً الى جانب النار وراح يرضعه الحليب الدافىء . كان حملاً ناعماً وفي وجهه براءة الطفولة وأقدامه تبدو طويلة بالنسبة لجسمه . لقد حمله ديكون عبر السبخة على يديه ومعه زجاجة الحليب في جيبه وكذلك السنجابين . » ثم أخبرته . كيف جلست تحت الشجرة كانت قدماه الدافئتين متدليتين على حضنها فتكون لديها شعور غريب بالسعادة . وتابعت حديثها « ــ حَمَلٌ ــ حَمَلٌ ! حمل حي يجلس في حضنك كالطفل الرضيع . »

كانت تصف ذلك الى كولن بسعادة كبيرة وهو يستمع ويسحب نفساً طويلاً ، عندما دخلت المربية ، التي فوجئت لرؤية النافذة مفتوحة وكم جلست في الغرفة وهي تختنق في كثير من الأيام الدافئة لأن مريضها كان على يقين أن النوافذ المفتوحة تسبب الرشح .

فسألته : « هل أنت متأكد يا سيد كولن أنك لا ترتجف برداً ؟ »

اجاب كولن : « كلا ، إنني أتنفس الهواء النقي بصورة عميقة وهذا يجعلني قوياً . وسأتناول إفطاري وأنا جالس على الأريكة ، وستتناول إبنة عمتي الافطار معي . »

خرجت المربية وهي تخبىء ابتسامتها لكي تعطي تعليماتها بتهيئة طعام الإفطار للاثنين . كانت المربية تجد في غرفة الخدم مكاناً للتسلية

اكثر من غرفـة المريض . فالجميع الآن يريدون سماع اخبار الطابـق العلوي . لقد كان هناك الكثير من الهزل حول ذلك الناسك الشاب الكريه الذي يصفه الطباخ على انه : « قد وجد سيدته التي تناسبه . » وقد مل الخدم من نوبات غضبه . وكان رئيس الخدم ، وهو من اسرة عريقة ، قد عبر عن رأيه في أكثر من مرة بأن المريض سيكون افضل بكثير إذا تم جلده جيداً .

وعندما جلس كولن على اريكته وأمامه على الطاولة طعام الافطار لاثنين ، أعطى تعلماته الى المربية وكأنه مهراجا . « سيأتي صبي ومعـه ثعلب وغراب وسنجابين وحمل صغير لرؤيتي هذا الصباح . أريدهم ان يصعدوا الى هنا فور وصولهم . لا تلعبوا مع الحيوانات في غرفة الخدم ولا تحتفظوا بها هناك . اريدها هنا .

شهقت المربية شهقة قصيرة ثم حاولت إخفاءها بالسعال وأجابت :

« نعم يا سيدي . »

وأضاف كولن ملوحاً بيـده : « سأخبرك ما يجب أن تفعليـه . ويمكنك أن تخبري مارثا لتأتي بهم الى هنـا . فالصبي هو أخو مارثـا واسمه ديكون ، إنه ساحر للحيوانات . »

قالت المربية : « أتمنى أن لا تعض تلك الحيوانات . »

قال كولن بصورة صارمة : « قلت لك أنه ساحر ، والحيوانات المسحورة لا تعض أبداً . »

قالت ماري : « هناك سحرة للأفاعي في الهند ، ويستطيعون أن يضعوا رؤوس أفاعيهم في أفواههم . »

ارتعدت المربية وقالت : « يا إلهي ! »

تناول الاثنان إفطارهما وكان نسيم الصباح ينسكب عليهما . فأكل كولن بصورة جيدة وكانت ماري تراقبه باهتمام كبير ثم قالت له :

« سيزداد وزنك مثلي تماماً ، كنت لا احب تناول الإفطار عندما كنت في الهند ، اما الآن فإنني بحاجة إليه دوماً . »

قال كولن : « وانا كنت بحاجة للافطار هذا الصباح . وربما كان الهواء المنعش هو السبب . متي تعتقدين أن ديكون سيأتي ؟ »

لن يتأخر بالحضور وخلال عشرة دقائق تقريباً . رفعت ماري يدها وقالت :

اسمع : هل سمعت صوت غراب ؟

استمع كولن للصوت ، إنه أبشع صوت في العالم يمكن أن يسمعه إنسان داخل البيت ، كاك ــ كاك أجابها نعم .

قالت ماري : هذا هو سناج ؟ استمع ثانية ! هل سمعت ثغاءً ــ ثغاءً صغيراً ؟

صاح كولن وكله بهجة آه ، نعم !

قالت ماري : هذا هو الخروف الرضيع ، إنه قادم .

كانت جزمة ديكون ، التي يرتديها عندما يخرج للسبخة ، سميكة وغير مصقولة وخشنة ، وكان يحاول السير بهدوء في الممر ولكن حذاءه صار يحدث ضجة وهو يسير عبر الممرات الطويلة . كان كل من ماري وكولن يستمع لصوت خطواته حتى وصل إلى الباب المؤدي إلى ممر غرفة كولن المفروش بالسجاد .

فتحت مارثا الباب معلنة « من فضلك يا سيدي ، من فضلك يا سيدي هذا هو ديكون ومخلوقاته » ، دخل ديكون مبتسماً أحلى

ابتسامات الواسعة . وهو يحمل الحمل الرضيع على يديه والثعلب الصغير الأحمر يهرول إلى جانبه ، وقد جلس بندق على كتفه الأيسر وسناج على يمينه ، كما خرج راس صدفة وكفاها من جيب سترته .

جلس كولن ببطء وراح يحدق ويحدق ـ مثلما كان يحدق عندما راى ماري أول مرة ، ولكن نظرته الآن كانت نظرة استغراب ومتعة . والحقيقة هي أنه على الرغم من كل شيء فقد سمع ماجعله لايفهم أبداً ماذا يشبه ذلك الصبي مع ثعلبه وغرابه والسنجابين والخروف وكلها قريبة منه بهذا الشكل ، وصداقته معها . بحيث تبدو وكأنها جزء منه . لم يكن كولن قد تحدث الى صبي في حياته ، لقد كانت السعادة والفضول يغمرانه بحيث لم يفكر في أن يتكلم .

ولكن ديكون لم يشعر بالاحراج أو الخجل إطلاقاً . لم يشعر بالخجل لأن الغراب لم يعرف في بادىء الأمر لغته بل راح يحدق به ولم يتحدث معه في أول مرة تقالا . فالحيوانات هي دوماً هكذا حتى تتعرف إليك .

مشى ديكون حتى وصل إلى أريكة كولن حيث وضع حمله الصغير بهدوء في حضنه ، فاستدار الحيوان الصغير نحو ردائه المخملي الدافىء وبدأ يستكين ويستكين داخل الرداء وينطح جانب كولن براسه ذي الشعر المجعد وبنعومة . عندئذ ليس بإمكان أي صبي إلا أن يسأل ، صاح كولن:

ماذا يفعل ؟ وماذا يريد ؟

قال ديكون : إنه يريد امه وكان يضحك ويضحك ، لقد أتيت به الى هنا وهو جائع بعض الشيء لأنني أعرف انك تحب رؤيته وهو يأكل .

انحنى ديكون قرب الاريكة وأخرج زجاجة الحليب من جيبه وقال :

تعال أيها الصغير ، ثم أدار راسه الصغير المجعد بيده السمراء اللطيفة ، هذا ماتبحث عنه . وستجد فيها أكثر مما تجد في المعاطف

المخملية الحريرية . خذها الآن ، ودفع بطرف الزجاجة المطاطي في فمه وبدأ الحمل يرضع بنشوة ونهم شديدين .

بعد ذلك لم يعد هناك أي أمر مستغرب . وبعد قليل نام الحمل وتوالت الأسئلة ، فأجاب عليها ديكون جميعها . واخبرهما كيف وجد الحمل تماما مع إشراقة الشمس قبل ثلاثة ايام بالضبط فقد كان يقف في السبخة يستمع إلى القبرة ويراقبها وهي ترتفع أكثر وأكثر في السماء ، حتى اصبحت بقعة صغيرة في أعالي السماء .

وكنت سأضيعها لولا صوتها ، وأنا أتساءل كيف يمكن للمرء أن يسمعها ، بينما تبدو وكأنها ستخرج من العالم خلال دقيقة ـ وفي تلك اللحظة فقط سمعت شيئاً آخر من بعيد بين شجيرات الوزال .

كان ثغاءً ضعيفاً ؛ فعرفت أنه حمل صغير جائع ، عرفت أنه لن يكون جائعاً لولا أن فقد أمه بطريقة ما ، ولهذا رحت أبحث عنه . آه ! وعندما وجدته صرت أدخل وأخرج من بين شجيرات الوزال وأدور حولها ولكن يبدو أنني أخذت مساراً خاطئاً . وأخيراً رأيت شيئاً أبيض قرب صخرة في راس السبخة ، فصعدت إليها ووجدت الحمل الصغير وهو نصف ميت بسبب البرد .

وبينما كان ديكون يتحدث طار سناج بهدوء خارج النافذة وراح يصيح وكأنه يتحدث عن المنظر في الخارج . بينما راح كل من بندق وصدفة يقومان بنزهات داخل الأشجار الضخمة يركضان إلى أعلى وأسفل الجذوع والأغصان . والتف قبطان حول نفسه بالقرب من ديكون الذي جلس على سجادة الموقد .

كانوا ينظرون الى الصور في كتب الحدائق ، وكان ديكون يعرف كل الأزهار وأسماءها المحلية ، ويعرف بالضبط أياً منها كان ينبت في الحديقة السرية .

قال ديكون : لا اعرف اسمها ، وهو يشير إلى زهرة كتب تحتها « زهرة الحوض » ولكننا نسميها نحن « الحمامة » وتلك السمكة وهما تبتان بصورة برية عند السياج . ولكن هذه الزهرات هي زهرات حدائق وهي أكبر وأعظم . وهناك بعض المجموعات الكبيرة من زهرة الحمامة في الحديقة . وسيكون منظرها مثل حوض من الفراشات البيضاء وهي تهتز عندما تكون في الهواء الطلق .

قال كولن : ساذهب لأراها ، ساذهب لأراها !

قالت ماري بصورة جدية وبلهجة يوركشاير : نعم يجب أن تفعل ذلك ، وأن لا تضيع الوقت بهذا الخصوص .

# ٢٠ ـ سأعيش الى الأبد ـ الى الأبد ـ الى الأبد

كان الأطفال ملزمون على الانتظار اكثر من اسبوع ففي البداية مرت ايام فيها ريح شديدة وبعد ذلك كان كولن مهدداً بالاصابة بالرشح ؛ وقد أدى تتابع هذه الأمور الى غضب كولن دون شك ولكن كان هناك تخطيط دقيق وغامض لقد كان ديكون يأتي كل يوم تقريباً ، ولو لبضع دقائق ، ليخبر عما كان يحدث في السبخة والممرات وأطراف السياج والجداول . اما الأشياء التي كان يتحدث عنها فهي عن بيوت القضاعة والغرير وفأر الماء إضافة الى أعشاش الطيور وفئران الحقل وجحورها. وكيف يعمل عالم تحت الأرض بقلق وشوق مثيرين ، بالاضافة الى استماعهم الى ادق التفاصيل من ساحر الحيوانات كل هذا كان كافياً ليجعلهم يهتزون من شدة الاثارة .

قال ديكون : إنها مثلنا ، والفارق هو أن عليها أن تبني بيوتها في كل عام ، مما يجعلها مشغولة ، وتعمل بجد لإنجازها . »

وعلى أية حال فإن الأمر الذي استغرق وقتاً هو التحضيرات التي يجب أن تجري قبل نقل كولن الى الحديقة بسرية تامة . لقد كان من المفروض أن لا يرى أحد الكرسي الدوار وماري بعد أن ينعطفوا عند زاوية معينة من مكان وجود الشجيرات ، ثم يدخلون باتجاه الجدار المقابل للجدران المغطاة باللبلاب ، في كل يوم يمر كان شعورهم يزداد ثباتاً بأن الغموض الذي يكتنف الحديقة هو أحد أعظم الأمور الساحرة ، ولا شيء يجب أن يعكر ذلك ، ولا أحد يجب أن يشك بوجود سر لديهم . والجميع يجب أن يتأكدوا أنه يخرج مع ماري وديكون فقط لأنه أحبهم ولا يعارض

ني أن ينظروا إليه . لقد جرت بينهم أحاديث طويلة وممتعة عن خطتهم للسير . كان عليهم أن يذهبوا من ذلك الممر وينزلوا من الآخر ويعبروا ممراً ثالثاً ثم يلتفوا بين أحواض الزهر المحيطة بالنافورة وكأنهم يشاهدون النباتات التي نمت في الأحواض والتي سبق أن رتبها رئيس البساتنة السيد روش . كان هذا الأمر يبدو معقولاً ويمكن القيام به دون أن يفكر أحد أن هناك أمراً غامضاً وبعد ذلك ينعطفون باتجاه ممرات الشجيرات ويضيعون أنفسهم حتى يصلوا الى الجدار الطويل . لقد كان الأمر جدياً ومنسقاً كالخطط الحربية التي وضعها أكبر ضباط زمن الحرب .

كانت الشائعات عن اشياء جديدة ومثيرة تحدث في جناح المريض، بالطبع ، تتسرب الى غرفة الخدم والاسطبلات وبين البساتنيين في الخارج ، ومع ذلك فقد فوجيء السيد روش في أحد الأيام عندما تلقى اوامر من غرفة السيد كولن مفادها أن عليه الذهاب الى جناح كولن دون أن يراه أحد لأن المريض يريد التحدث معه .

فقال روش لنفسه « حسناً ، حسناً » ثم قام بتغيير معطفه على عجل « ماذا يجب أن أفعل الآن ؟ فإن جلالته ـ الذي كان يرفض أن ينظر إليه أحد ـ يستدعي الآن رجلاً لم يره في حياته . »

كان السيد روش فضولياً بعض الشيء . فهو لم ير الصبي من قبل أبداً ، وقد سمع العديد من القصص المبالغ فيها عن نظراته غير المريحة وطباعه المجنونة . وأكثر ما سمعه كان عن احتمال موته في أية لحظة . إضافة الى العديد من الأوصاف الخيالية التي وصفه بها أشخاص لم يروه من قبل ، مثل الظهر الأحدب والأطراف الضعيفة .

قالت السيدة ميدلوك : « الأمور تتغير في البيت يا سيد روش » بينما كانت تصعد معه من الدرج الخلفي الى الممر المؤدي الى الغرفة الغامضة .

اجابها : « نأمل ان تكون الامور بتحسن نحو الافضل يا سيدة ميدلوك . »

وتابعت حديثها قائلة : « على الاقل لن تسير نحو الاسوا ، ومع ان كل شيء يبدو غريبا ، فإن من يقم بواجباته سيجد نفسه محمياً . ولا تعجب يا سيد روش إذا وجدت نفسك وسط مجموعة متوحشة حيث يتواجد ديكون اخو مارثا ساوربای في البيت أكثر من تواجدنا نحن الاثنين . »

كانت ماري تعتقد ضمناً أن هناك ضرباً من السحر بالنسبة الى ديكون وعندما سمع السيد روش اسمه ابتسم ابتسامة رقيقة تماماً وقال :

« سواء كان في قصر باكنغهام أم في أسفل منجم للفحم ، فإنه ليس وقحاً ، وهو فتى لطيف . »

من المفيد أن روش قد تهيأ نفسياً وإلا لارتعد عندما فتح باب الغرفة ، ورأى غراباً كبيراً جاثياً على كرسي منحوت وهو يعلن دخول زائر ويصيح عالياً « كاك — كاك » . ورغم تحذيرات السيدة ميدلوك فقد اضطر السيد روش للتراجع لأنه وجد من غير المناسب ان يقفز الى الوراء .

لم يكن المهراجا الصغير في سريره ولا على أريكته . بل كان جالساً في كرسي عادي والحمل الصغير يقف الى جانبه ويهز ذيله على طريقة الخراف الرضيعة ، بينما كان ديكون جاثياً على ركبتيه يرضعه الحليب من الزجاجة . والسنجاب فوق ظهر ديكون المحني لقضم بندقة . والطفلة الصغيرة القادمة من الهند تجلس على الكرسي الكبير تنظر حولها .

قالت السيدة ميدلوك : « هذا هو السيد روش يا سيد كولن . »

استدار المهراجا الصغير . وراح يفحص خادمه ــ او على الأقل هذا ما شعر بـه رئيس البساتنيين ثم قال : « آه ، أنت روش أليس كذلك ؟ لقد طلبتك لكي اعطيك بعض الأوامر الهامة . »

اجاب روش « جيد جداً يا سيدي » وكان يتساءل فيما إذا كان سيتلقى تعليمات من اجل قطع كل اشجار السنديان الموجودة في الحديقة او لنقل بستان الفاكهة الى الحدائق التي فيها ماء .

قال كولن : « سأخرج بعد ظهر هذا اليوم بالكرسي ، وإذا وجدت ان الهواء الطلق يناسبني فمن المحتمل أن أخرج كل يوم ، وعندما اخرج يجب أن لا يتواحد أحد من العاملين في الحديقة بالقرب من الجدار الطويل الموازي لجدران الحديقة . لا أحـد يجب أن يتواجـد هناك . سأخرج حوالي الساعة الثانية وعلى الجميع البقاء بعيداً الى أن اسمح بعودتهم الى عملهم .

اجاب السيد روش « حسناً يا سيدي » وكان مرتاحاً للغاية حين سمع بأن أشجار السنديان ستبقى وأن بستان الفاكهة في مأمن .

قال كولن وهو يستدير نحو ماري : « ماري ، مـا العبارة التي تقولينها عندما تنهين حديثك وتريدين من الناس أن ينصرفوا ؟ »

أجابت ماري : تقول « تستطيع استئذاني بالانصراف . »

لوح المهراجا بيده وقال :

« تستطيـع استئذاني بالانصراف . ولـكن تـذكر ان الأمـر مهم جداً . »

أكد الغراب بصوت خشن « كاك ــ كاك » ولكن بأدب .

قال السيد روش : « حسناً سيدي ، شكراً لك سيدي . » ثم رافقته السيدة ميدلوك الى خارج الغرفة .

وعندما صار في الممر ، وبما انه ذو طبع مرح ، ابتسم حتى كاد أن يضحك وقال :

« يا إلهي ! له طريقة متعالية اليس كذلك ؟ حتى ليظن واحدنا ان اسرة ملكية كاملة تتمثل في شخصه ـ الأمير كونسورت وعائلته » .

احتجت السيدة ميدلوك ! آه ! لقد سمحنا له أن يدوس علينا كلنا منذ أن صارت له قدم يطأ بها ، وهو يعتقد أننا قد خلقنا لذلك .

أبدى السيد روش رأيه «ربما أقلع عن ذلك فيما لو كتبت له الحياة».

قالت السيدة ميدلوك « هناك شيء واحد يعطي الأمل بالتأكيد إذا كتبت له الحياة وبقيت تلك الطفلة الهندية هنا ، بأنني أراهن أنها ستعلمه بأن البرتقالة ليست ملكاً له وحده كما تقول سوزان ساورباي . ومن المحتمل ان يعرف مقدار حجمه . »

وفي داخل الغرفة كان كولن متكئاً على وسائده وهو يقول : « الآن كل شيء أصبح آمناً ، وسأراها بعد ظهر اليوم ، بعد ظهر اليوم سأكون هناك » .

عاد ديكون الى الحديقة مع مخلوقاته وبقيت ماري مع كولن ولم تفكر بأنه كان متعباً ، ولكنه كان هادئاً جداً قبل أن يأتي طعام الغداء وكذلك عندما كانا يأكلان . استغربت ماري ذلك وسألته :

« كم هي واسعة عيناك ، وعندما تفكر تصبحان واسعتين كالصحن بماذا تفكر الآن ؟ »

أجابها « لا استطيع التوقف عن التفكير كيف سيكون » .

سألت ماري مقاطعة « الحديقة ؟ »

قال لها « الربيع ، لقد كنت أفكر بأنني لم أره من قبل . ونادراً ما كنت اخرج ، وعندما كنت اخرج لم اكن انظر الى شيء ولم أفكر أيضاً بشيء » .

قالت ماري « وانا أيضاً لم ارَ الربيع في الهند لأنه لا يوجد ربيع » .

وبما أن كولن كان منطوياً على نفسه ومريضاً فقد كان خياله أوسع من ماري ، وهو على الأقل قد امضى وقتاً طويلا ينظر الى الكتب والصور

لقد شعرت بنفسي انني غريب تماماً عندما دخلت صباح هذا اليوم وانت تقولين « لقد أتى ! لقد أتى ! » بدا الأمر وكأن الأشياء تأتي في مركب ضخم ومعها نفحات كبيرة من الموسيقى ولدي صورة في أحد الكتب تشبه ذلك ــ جموع من الناس الظرفاء والأطفال يضعون اكاليل الزهور والأغصان المزهرة ، والكل يضحكون ويرقصون وهم يعزفون على قيثاراتهم . ولهذا قلت « ربما سنسمع الأبواق الذهبية » وطلبت منك أن تفتحي النافذة .

قالت ماري « كم هو أمر مضحك ! هذا هو الربيع بالفعل . وإذا بدات الأزهار والأوراق والأشياء الخضراء والطيور والحيوانات البرية ترقص كلها معاً ، فكم سيكون هناك أزدحام ! إنني متيقنة بأنها سترقص ووتغني وتعزف على القيثارة وهذه هي نفحة الموسيقى .

ضحك الاثنان ليس لأن الفكرة كانت مضحكة، بل لأنهما احبا الفكرة .

بعد وقت قصير كانت المربية قد جهزت كولن للخروج . وقد لاحظت أنه بدلا من أن يستلقي مثل قطعة الخشب عندما كانت تلبسه ثيابه ، فقد جلس وبذل بعض الجهد بنفسه وكان يتحدث ويضحك طوال الوقت مع ماري . ثم قالت للدكتور كريفن الذي جاء ليتفقده « هذا يوم جيد بالنسبة له ، إن معنوياته جيدة وهذا سيجعله أقوى » .

قال الدكتور كريفن بعد دخوله « سآتي مرة اخرى بعد الظهر . ولا بد أن ارى فيما إذا كان الخروج للهواء سيناسبه . ثم قال بصوت منخفض . اتمنى ان يقبل بخروجك معه » .

أجابت المربية بصورة حازمة ومفاجئة . « افضل ان اتخلى عن مهمتي في هذه اللحظة يا سيدي على أن ابقى وانفذ الاقتراح . »

قال الدكتور لم اكن اقصد الاقتراح ، وكان عصبيا بعض الشيء سنحاول هذه التجربة . إنني أثق بالصبي ديكون حتى لو كان معه طفل مولود حديثاً .

قام أقوى الخدم بحمل كولن الى الأسفل ووضعه على الكرسي الدوار الذي كان ينتظر ديكون بجانبه . وبعد أن قام أحد الخدم بتهيئة الأغطية والوسائد لوح المهراجا بيده له وللمربية وقال : « إني آذن لكما بالانصراف فاختفى الاثنان سريعاً ، ولا بد من الاعتراف أنهما ضحكا كثيراً عندما وصلا الى البيت .

بدأ ديكون يدفع الكرسي الدوار ببطء وثبات . ومشت ماري الى جانبه . وانحنى كولن الى الخلف رافعاً رأسه الى السماء . كانت القبة السماوية تبدو عالية جداً والغيوم البيضاء الصغيرة كالطيور البيضاء العائمة وهي تنشر اجنحتها تحت زرقتها اللامعة . كانت الرياح تمر بنفحات كبيرة آتية من السبخة وهي مفعمة للغاية بعذوبة رائحة البرية الواضحة . كان كولن يرفع صدره باستمرار لكي يستنشق هذا الهواء وعيناه الواسعتان تبدوان وكأنهما اللتان تستمعان وتستمعان عوضاً عن اذنيه .

ثم قال « يوجد الكثير من أصوات الغناء والطنين والنداء ، ما هذه الرائحة التي تأتي مع دفعات الريح ؟

أجاب ديكون « إنه الوزال الذي يتفتح في السبخة . آه ! فالنحل اليوم لديها يوم رائع » .

لم يكن هناك اثر لإنسان خلال الطريق الذي سلكوه . وفي الحقيقة فقد جرى ابعاد كل بستاني او ابن بستاني . ولكنهم كانوا يلتفون من بين الشجيرات وحول احواض النافورة وهم يتبعون تماماً الطريق الذي رسموه لمجرد متعة الفوضى بحد ذاتها . ولكن عندما استداروا اخيراً الى الممر الطويل الموازي لجدران اللبلاب ، وبسبب شعورهم بالإثارة لمفاجأة قريبة ولاسباب مثيرة للفضول لم يستطيعوا تبريرها . أخذ الأطفال الثلاثة يتحدثون همساً .

تنفست ماري وقالت ، هذه هي . وهنا كنت أمشي جيئة وذهاباً واتساءل .

صاح كولن ، هل هي تلك ؟ وبدأت عيناه تبحثان في اللبلاب بفضول كبير ثم همس ، ولكنني لا ارى شيئاً . وليس هناك باب .

قالت ماري ، هذا ما اعتقدته انا ايضاً .

ثم كانت هناك فترة صمت وسكون رائع بينما كان الكرسي يتابع سيره .

قالتماري « هذه هي الحديقة حيث كان بين ويذرستاف يعمل . »

قال كولن « هذه ؟ »

ثم قالت ماري بسرور واتزان ، وهي تشير الى ما تحت شجيرة الليلك الكبيرة ! وهناك جثم ابو الحناء فوق كومة التراب لكي يطلعني على مكان المفتاح .

بعد ذلك جلس كولن وصاح : أين ؟ أين ؟ وكانت عيناه واسعتانمثل الذئب في قصة ريد رايد نج عندما شعر ريد رايد نج هود بأنه يجب أن يقدم تعليقاً . وقف ديكون دون حراك وكذلك الكرسي الداور .

قالت ماري وهي تمشي نحو الحوض بالقرب من اللبلاب : « وهـذا هو المكان حيث أخذت بالتحدث إليه عندما بدأ يناديني من أعلى الحائط . وهذا هو اللبلاب الذي أزاحته الريح » . ثم امسكت مـاري بالستارة الخضراء المعلقة .

شهق كولن قائلاً : « آه ! هذه هي ؟ »

« وهذه هي القبضـة ، وهذا هو الباب . ادفعه يا ديكون ، ادفعـه الى الداخل بسرعة ! »

قام ديكون بدفعه دفعة قوية ثابتة رائعة . ولكن كولن سقط بالفعل الى الخلف فوق وسائده ، رغم شهيقه وهو مسرور ، وقد غطى عينيـه بيديه وبقي كذلك حتى صاروا في الداخـل وتوقف الكرسي وكأنـه بفعل سحر واغلق الباب . ولم يرفع يديه عن عينيه إلا بعد ذلك ، ثم بدأ ينظر حوله وحوله كما فعل ديكون وماري . وفوق الجدران والأرض والأشجار والأغصان المتدلية والعرائش ، وكذلك الى الغطاء الأخضر مـن الأوراق الصغيرة الزاحفة والعشب تحت الأشجار والجرار الرمادية تحت المظلات، وهنا وهناك وفي كل مكان لمســات ونثرات ذهبية وقرمزيـة وبيضــاء ، والأشجار باللون الزهري أو الأبيض،كانت هناك اجنحة ترفرف وأصوات أبواق خافتة حلـوة وطنين وروائح وروائح . وكانت الشمس تتســاقط دافئة على وجه كولن كاليد ذات اللمسة الحلوة . وقد وقفت ماري ومعها ديكون مستغربين ومحدقين به . لقد بدا غريباً جـداً ومختلفاً لأن لونـاً مزهراً قد زحف بالفعل نحوه ـ نحو وجهه العاجي ورقبته ويديه وكـل جســمه .

صاح كولن : « سأكون افضل ! سأكون افضل ! يا ماري ! ديكون! سأكون افضل وسأعيش الى الأبد الى الأبد ! »

## ٢١ ـ بن ويذرستاف

من اغرب الأمور المرتبطة بالحياة في هذا العالم هي انــه بين الحين والآخر يتأكد لدى الانسـان شعور انه سيعيش الى الأبـد .. الأبـد .. الأبـد . ويعرف الانسان هذا احياناً عندما يستيقظ وقت الفجر ويخرج ويجلس وحده وهو ينظر بعيداً الى الأعلى ويراقب السماء الشاحبة وهي تتبدل ببطء فتتدفق منها اشياء رائعة ليست معروفة حتى يصيح الشرق صيحة واحدة فيتوقف قلب الإنسان في لحظة شروق الشمس المهيبة الثابتة والتي تحدث كل صباح منذ آلاف وآلاف وآلاف السنوات . عندئذ يدرك الإنسان تلك الحقيقة لمدة دقيقة أو ما شابه. ويشعر الإنسان بذلك أحياناً عندما يقف وحده في غابة عنـد الغروب حيث الصمت الذهبي العميـق ينتشر من خلال الأغصان وكأنه يقول ببطء ويكرر ويكرر شيئاً لا نستطيع سماعه مها حاولنا . وفي أحيـان اخرى فـإن الزرقة الحالكة الهادئة الواسعة وملايين النجوم التي تنتظر وتراقب تؤكد لنا ذلك ، أو ان سماع صوت موسيقى بعيدة أو ان نظرة من عيني شخص ما تجعل هذا الأمـر حقيقيـاً .

لقد كان الأمر كذلك بالنسبة الى كولن عندما رأى لأول مرة سمع وشعر بالربيع وهو داخل الجدران الأربعة للحديقة المختبئة . ويبدو أن العالم كلـه بعد ظهـر ذلك اليوم كان قـد كرس نفسه ليكـون متكاملاً وجميلاً ، متألقاً وناعماً بالنسبة للفتى . وربما جاء الربيع بعناية إلهيـة محضة ، فقد جمع كل شيء يمكن أن يجمعه في المكان الواحد . لقد توقف ديكون أكثر من مرة بينما كان يعمل ووقف دون حراك والاستغراب المتزايد في عينيه ، وهو يهز رأسه بنعومة ويقول :

« آه ! شيء عظيم ، إنني قد بلغت إثني عشر عاما . وبدأت بالعام الثالث عشر ، وقد مر عليَّ العديد من أمسيات الأيام . ولكن يبدو لي وكأنني لم أرَ مثل هذا اليوم العظيم » .

وقالت ماري : « نعم . إنه يوم عظيم » وتنهدت فرحة « إنني أراهن أنه أعظم يوم في العالم » .

وقال كولن بطريقة حالمة وبلهجة يوركشاير :«هل تظنان بأن ماحدث بهذا الشكل كان كله من أجلي ؟ »

صاحت ماري بإعجاب :« يا إلهي ! تتحدث قليلاً بلهجة يوركشاير . إنك تتحسن بسرعة ـ نعم ـ تتحسن بسرعة » .

ثم ساد جو من الفرح .

ثم قاما بسحب الكرسي ووضعاه تحت شجرة الخوخ التي كانت مزهرة بيضاء كالثلج وتعج بأصوات النحل الموسيقية .

لقد كانت مثل مظلة الملك ، بل كالمظلة السحرية الملكية . وهناك أيضاً أشجار كرز مزهرة بالقرب من أشجار التفاح ذات البراعم الزهرية والبيضاء وقد تفتح بعضها هنا وهناك . وبين الأغصان المزهرة للمظلة قطع من السماء الزرقاء كالعيون الرائعة .

كان ديكون وماري يعملان قليلاً هنا وهناك ، وكولن يراقبهما وهما يأتيانه ببعض الأشياء ليراها .

براعم تتفتح وبراعم لا تزال مغلقة وقطع من غصن صغير بدأت أوراقه تخضر ، وريشة نقار الخشب سقطت على الأرض ، وقشرة بيضة طائر فقست بصورة مبكرة ، ثم قام ديكون بدفع الكرسي ببطء حول الحديقة ، متوقفاً في كل دقيقة لكي يرى كولن روائع الربيع تخرج من

الأرض أو تتدلى من الأشجار . لقد شعر كولن وكأنه يطوف في مملكة ملك وملكة سحريين ويطلع على الثروات الغامضة فيها .

قال كولن : « لا ادري إن كنا سنرى أبا الحناء ؟ »

أجاب ديكون : « سوف تراه كثيراً بعد قليل . فعندما ستفقس بيوضة . سيكون مشغولا وهو يروح ويجيء . ستراه يطير رائحا وغادياً وهو يحمل الديدان التي تساوي حجمه وستستمع الى اصوات كثيرة تخرج من العش عندما يصل إليه فيرتبك ولا يستطيع التمييز بين الأفواه الممدودة وفي أي منها سيلقي القطعة الأولى . فالمناقير الفاغرة تحتج من كل صوب . وتقول أمي عندما ترى ما يفعله أبو الحناء لكي كملأ مناقير صغاره بأنها تشعر وكأنها سيدة لا عمل لها . وتقول أيضاً بأنها قد رأت صغار الطائر عندما كانت تتلقى طعامها كقطرات العرق وهي لا تزال لا تستطيع الرؤية » .

هذا الحديث جعل الأطفال الثلاثة يضحكون مسرورين حتى انهم اضطروا الى وضع أيديهم على أفواهم ، لقد تذكروا بأن أصواتهم يجب أن لا تكون مسموعة ، وكان كولن قد تلقى التعليمات قبل عدة أيام بضرورة الحديث همساً وبصوت منخفض . لقد احب موضوع الغموض كثيراً ؛ ولكن في غمرة السعادة فإن من الصعب الضحك بصوت منخفض .

إن كل دقيقة من بعد ظهر ذلك اليوم كانت مليئة بالأشياء الجديدة و في كل ساعة كانت الشمس تصبح ذهبية أكثر . وقد أعيد الكرسي الى مكانه تحت المظلة ، وجلس ديكون فوق العشب واخرج قيثارته في اللحظة التي رأى فيها كولن شيئاً لم يلاحظه من قبل ، وقال :

« الشجرة الموجودة هناك قديمة جداً ، أليس كذلك » ؟

نظر ديكون الى الشجرة والعشب الأخضر ، وكذلك ماري ، ثم كانت لحظة صمت قصيرة .

اجاب ديكون « نعم » وكان صوته المنخفض رقيقاً جداً .

وحدقت ماري بالشجرة واخذت تفكر .

ثم تابع كولن « اغصانها رمادية تماماً ولا توجد ورقة واحدة عليها . إنها ميتة تماماً اليس كذلك » ؟

فاعترف ديكون « نعم ، ولكن الورود المتسلقة عليها ستغطي كل الاغصان الميتة قريباً عندما ستمتلىء بالأوراق والأزهار . وعندئذ لن تبدو ميتة . وستكون أجمل الاشجار » .

كانت ماري لا تزال تحدق بالشجرة وتفكر .

قال كولن « يبدو وكأن غصناً كبيراً قد كسر ، إنني استغرب كيف تم ذلك » .

أجاب ديكون « لقد كسر منذ سنوات . حسناً ! » ثم وضع يده فجأة على كولن وقال « انظر الى أبي الحناء ! إنه هناك ! انه ذاهب الى زوجتـه » .

كان كولن بطيئاً في رد فعله ولكنه استطاع أن يرى وميض الطائر ذي الصدر الأحمر وهو يحمل شيئاً بمنقاره . فقد اندفع عبر الغطاء الأخضر باتجاه الزاوية ثم اختفى عن الأنظار . فانحنى كولن على وسادته وضحك قليلاً ثم قال :

« لقد أخذ لها الشاي . وربما الآن هي الساعة الخامسة . أعتقد انني بحاجة أيضاً الى بعض الشاي » .

وهكذا كان الجميع في مأمن .

قالت ماري الى ديكون بصورة سرية فيما بعد « إنه السحر هو الذي أرسل أبا الحناء . وأنا أعرف بأنه السحر » . لقد كان كلاهما يخاف أن يسأل شيئاً عن الشجرة التي انكسر غصنها منذ عشر سنوات . وتحدث الاثنان بالموضوع وراح ديكون يفرك رأسه وهو مضطرب ، ثم قال : « يجب أن لا تظهر وكأنها لا تختلف عن بقية الأشجار . لأننا لا نستطيع أن نخبره كيف كسرت ، مسكين هذا الصبي . فإذا قال شيئاً عنها فإن علينا ــ علينا أن نحاول الظهور بمظهر مشرق » .

أجابت ماري « نعم ، يجب علينا أن نظهر هكذا » .

ولكن ماري عندما نظرت الى الشجرة لم تكن مشرقة . فتساءلت وتساءلت في هذه اللحظات القليلة فيما إذا كانت هناك أية حقيقة فيما قاله ديكون الذي استمر في فرك شعره الأحمر بطريقة محيرة . ولكن نظرة لطيفة مريحة بدأت تظهر في عينيه الزرقاوين . فقال وهو متردد بعض الشيء :

« لقد كانت السيدة كريڤن سيدة شابة وجميلة . وتعتقد أمي بأنها قد جاءت ميسلثويت عدة مرات لترعى السيد كولن ، كما تفعل كل الأمهات عندما يغادرن الى العالم الآخر . وعليهن العودة كما تلاحظين وربما جاءت الى الحديقة ، وهي التي دفعتنا لكي نأتي الى هنا ونعمل .

ظنت ماري بأنه يقصد بذلك شيئاً ما يتعلق بالسحر . لقد كانت تؤمن بالسحر كثيراً ، وكانت تعتقد ضمناً بأن ديكون يعمل بالسحر ، وبالطبع ، السحر الطيب ، بالنسبة لكل شيء من حوله ولهذا السبب يحبه الناس كثيراً ، وتعتقد الحيوانات البرية أنه صديقها . وكانت تتساءل بالفعل فيما إذا كانت موهبته هي التي جاءت بأبي الحناء في اللحظة المناسبة تماماً عندما سأل كولن سؤاله الخطير . لقد شعرت بأن سحره كان يعمل طوال بعد ظهر ذلك اليوم ، وهو الذي جعل كولن يبدو صبياً مختلفاً تماماً بحيث لا يمكنك الظن أنه انسان مجنون كان يصرخ

ويضرب ويعض وسادته . ويبدو ان اللون العاجي الأبيض قد تغير . فاللون الشاحب الذي كان على وجهه ورقبته ويديه عندما دخل الحديقة لأول مرة لم يتلاشى كلياً ، ولكنه ظهر وكأنه لحم حقيقي وليس عاجاً أو شمعاً .

كان الأطفال يراقبون أبا الحناء وهو ينقل الطعام لزوجته مرتين أو ثلاث ، وقد أوحى لهم ذلك بتناول شاي بعض الظهر ، حتى أن كولن شعر بضرورة ذلك فقال :

« اذهبا واطلبا من أحد الخدم إحضار سلة الى ممر زهر الخلنج ، تأتي بها أنت وديكون الى هنا » .

لقد كانت فكرة مقبولة وتم تنفيذها بسهولة ، وعندما فرش الغطاء الأبيض على العشب مع الشاي الساخن وقطع الخبز المحمص مع الزبدة والكعك ، تناول الاطفال وجبة رائعة حيث كانوا يشعرون بالجوع وقد توقف عدد من الطيور المحلية في مهمة للاستفسار عما يجري ، وهي تبحث عن كسرات من الخبز بنشاط كبير . صعد بندق وصدفة على الشجر وهما يحملان قطعاً من الكعك ، بينما أخذ سناج نصف كعكة كاملة وذهب الى إحدى الزوايا يتفحصها ويقلبها وراح يعطي ملاحظاته حولها ، وأخيراً قرر ابتلاعها مسروراً بلقمة واحدة .

كان النهار يمضي نحو ساعته الأخيرة ، فالشمس كانت تعمق لون خيوطها الذهبية ، والنحل يغادر الى بيوته والطيور خفت حركة طيرانها . وقد جلس ديكون وماري على العشب وأعيد جمع سلة الشاي فأصبحت جاهزة لإعادتها الى البيت ، وكان كولن مستلقياً على وسائده وخصل شعره الكثيفة بعيدة عن جبهته ولون وجهه طبيعي تماماً ، وقال :

« لا أريد أن ينتهي هذا الوقت ، ولكنني سأعود في الغد واليوم الذي يليه ، واليوم الذي يليه » .

قالت ماري « تريد الكثير من الهواء المنعش ، أليس كذلك » ؟

أجابها « لا أريد شيئاً غيره . لقد رأيت الربيع الآن وسأرى الصيف . سأرى كل شيء ينبت هنا . وسأكبر أنا نفسي هنا » .

قال ديكون « إنك ستكبر هنا وسنجعلك تدور في هذا المكان وتحفر مثل أي شخص آخر وخلال فترة وجيزة » .

تورد وجه كولن بشكل واضح وقال « أمشي ! أحفر ! هل سأفعل ذلـك » ؟

كانت نظرة ديكون الى كولن فيها شيء من الحذر ، فلم يسأل هو أو ماري أبداً أي شيء عن موضوع رجليه .

قال ديكون بجرأة « بالتأكيد ستفعل ذلك ، فلك رجلان مثل كل النـاس » .

شعرت ماري بالخوف الى أن سمعت جواب كولن الذي قال :

« لا شيء يؤلمني ، إلا أن ساقيّ نحيلتان وضعيفتان . إنهما تهتزان كثيراً ، ولهذا فإنني أخاف من محاولة الوقوف عليهما » .

عندئذ تنفس كل من ديكون وماري الصعداء .

ثم قال ديكون وقد تجددت إشراقته « عندما تكف عن الخوف ستقف على رجليك ، وستكف عن الخوف بعد فترة قليلة » .

قال كولن « سأكف ؟ » ثم استلقى صامتاً وكأنه كان يفكر بالأشياء .

وبالفعل جلس الثلاثة هادئين تماماً فترة من الزمن . كانت الشمس تغيب في تلك الساعة التي يكون فيها كل شيء ساكناً ، وبالفعل فقد

فضوا بعد ظهر ذلك اليوم كله وهما مشغولان . وبدا كولن وكأنه يستريح بطريقة مترفة . وحتى الحيوانات توقفت عن الحركة واقتربت من بعضها لتستريح قريباً منهم . وقد وقف سناج على غصن منخفض ورفع احدى رجليه واغلق عينيه وكأنه يشعر بالنعاس ، وكانت ماري تفكر وحدها بانه سيبدأ الشخير خلال دقيقة .

ووسط هذا السكون رفع كولن رأسه بصورة مروعة وتساءل بصوت هامس مرتفع ومحذر :

« من هو هذا الرجل » ؟

اندفع كل من ديكون وماري واقفين على قدميهما .

وصرخ الاثنان معاً بصوت منخفض سريع « رجل » ؟

أشار كولن الى أعلى الجدار وهمس بحماس :

« انظرا ! فقط انظرا » !

تحرك الاثنان ونظرا ، كان وجه بن ويذرستاف الساخط يحدق بهما من فوق الجدار وهو يقف على رأس السلم ! وقد راح يلوح بيده الى ماري قائلاً :

لو لم أكن عازباً وكنت أنت ابنتي لضربتك » !

ثم صعد درجة أخرى من السلم وهو يتوعد وكأنه كله ينوي أن يقفز الى الأسفل ليحاسبها ، ولكن عندما اقتربت منه أخذ يفكر بصورة أفضل فوقف على أعلى السلم وهو يهز قبضته نحوها ثم بدأ يلقي خطبة « لم أكن افكر بك كثيراً ، ولم أستطع تحملك عندما رأيتك أول مرة ، فتاة مثل غصن القش هزيلة وذات وجه أبيض كقشدة الحليب ، تسألين

دوما اسئلة وتدسين انفك في اشياء لا تعنيك . ولم ادر كيف احتملتك . ربما بسبب أبي الحناء » .

صرخت ماري وقد استردت انفاسها : « بن ويذرستاف » وكانت تقف دونه وتناديه وهي تلهث :

« بن ويذرستاف إنه أبو الحناء هو الذي أرشدني الى الطريق » .

ويبدو أن بن كان على وشك أن يقع من على الجدار الى الاسفل بالقرب منها مما جعله يخاف .

وراح بن يناديها « انت أيتها الفتاة السيئة تكذبين على لسان ابي الحناء . وهل هو على درجة من الذكاء ليعرف شيئاً . هو الذي أرشدك الى الطريق ! هم ... آه ! انت أيتها الشيطانة الصغيرة » .

واستطاعت أن ترى الكلمات التالية التي خرجت من فمه بسبب فضوله الشديد ... « وفي كل الأحوال فقد دخلت الى هذا المكان » ؟

احتجت ماري بعناد : « إنه أبو الحناء هو الذي أرشدني للطريق ، لم يكن يدري ماذا يفعل ولكنه دلني على الطريق . ولا أستطيع أن أخبرك من هنا وأنت تهز كفك وتتوعدني » .

توقف بن عن تحريك كفه فجأة وخلال لحظة نزل فكه وراح يحدق من فوق رأسها ليرى شيئاً قادماً نحوه فوق العشب .

فعند سماع أول سيل لكلماته تعجب كولن وجلس بادىء الأمر ليستمع وكأنه مسحور . ولكن في منتصف الحديث استرد أنفاسه ونادى ديكون وأمره :

« ادفع بالكرسي الى هناك ، أوقفني قريباً جداً حتى أقف قبالته »!

كان هذا المنظر هو الذي رآه بن ويذرستاف فجعل فكه ينزل . كرسي دوار عليها وسائد فخمة يسير باتجاهه وكأنه عربة رسمية لأن المهراجا الصغير كان مستلقياً بها وهو يعطي اوامره الملكية بعينيه ذات الرموش السوداء ويده البيضاء النحيلة تمتد نحوه بكبرياء . وتوقفت العربة تماما تحت انف بن ويذرستاف . ولم يكن مستغرباً أن يفتح فمه.

سأل المهراجا الصغير « هل تعرف من انا » ؟

كان بن ويذرستاف يحدق بصورة غريبة ! وعيناه الحمراوان ثابتتان على ما يراه أمامه وكأنه يرى شبحاً ! فأخذ يحدق ويحدق ونسي يتفوه بكلمة .

كرر كولن السؤال بلهجة ملكية « هل تعلم من انا ؟ أجب » !

رفع بن ويذرستاف يده المجمدة الى الأعلى ومر بها فوق عينيه وجبينه ثم أجاب بصوت غريب متقطع :

« من انت ؟ نعم أعرف ذلك . إن عيني أمك في وجهك تحدقان بي . الله يعلم كيف أتيت الى هنا . ولكنك مسكين مقعد » .

نسي كولن تماماً موضوع ظهره . وصار لون وجهه قرمزياً فجلس مستقيماً وصاح بغضب « أنا لست مقعداً ! أنا لست كذلك » !

وصاحت ماري وهي ساخطة جداً « إنه ليس مقعداً ، وليس لديه كتلة ولا حتى بحجم رأس الدبوس ! لقد رأيت ظهره ولم أجد شيئاً ولا واحدة » !

مر بن ويذرستاف بيده على جبهته ثانية وراح يحدق وكأنه لم يحدق أبداً بصورة كافية . كانت يده ترتجف وكذلك فمه وصوته . لقد كان عجوزاً جاهلاً لا حيلة له ، ولا يستطيع أن يتذكر سوى ما سمعه .

وقال بصوت خشن « أنت ــ أليس ظهرك منحنياً » ؟

صرخ كولن « لا ! »

قال بن بصوت أكثر خشونة « أنت ــ أليست ساقاك مقوستين ؟ »

لقد طفح الكيل . فالقوة التي كانت تسبب له النوبة عادة قد تحركت فيه بطريقة جديدة . فلم يسبق ان اتهمه أحد بساقين مقوستين ــ ولا حتى همساً ــ والاعتقاد الساذج بذلك الذي ظهر في صوت بن ويذرستاف كان أكثر مما يستطيع ان يتحمله دم ولحم المهراجا . لقد جعله غضبه وكبرياؤه المجروح ينسى كل شيء إلا تلك اللحظة التي جعلته يمتلىء بقوة لم يعرفها من قبل ، قوة ليست طبيعية . فنادى ديكون «تعال هنا» وقد بدأ بالفعل ينتزع الاغطية من على اعضائه السفلية ويحرر نفسه تعال الى هنا ! تعال الى هنا ! في هذه اللحظة ! »

وخلال ثانية صار ديكون الى جانبه . فأمسكت ماري أنفاسها وشعرت أن لونها صار شاحباً . فقالت « يستطيع فعل ذلك ! يستطيع فعل ذلك ! نعم يستطيع فعل ذلك !» كانت ماري تثرثر لنفسها وأنفاسها تتسارع قدر ما تستطيع .

وكان هناك اندفاع قصير ذارتمت الاغطية على الارض وأمسك ديكون بيد كولن ، وصارت الارجل النحيلة خارجا والاقدام النحيلة على العشب وكولن يقف مستقيما ــ مستقيما مثل السهم وقد بدا طويلا بصورة غريبة ــ وراسه الى الخلف وعيناه الغريبتان يخرج منهما الشرر .

ونادى على بن ويذرستاف « انظر الي ، فقط انظر الي ــ أنت ! فقط انظر الي ! »

صاح ديكون « انه صحيح مثلي تماماً . انه صحيح مثل أي صبي في يوركشاير ! »

ان ما فعله بن ويذرستاف بعد ذلك كان غريباً الى أبعد الحدود . فقد شهق وشعر بغصة وفجأة انهمرت دموعه على خديه المتجعدتين وهو يفرك يديه ببعضهما .

وانفجر قائلا « حسناً ! لقد أخبروني كذبا ! انك نحيل مثل لوح الخشب وأبيض كعمود الدخان ولكن ليس هناك عقدة واحدة فيك وستصبح رجلاً . حماك الله ! »

امسك ديكون بيد كولن بقوة ، ولكن الفتى لم يهتز فقد كان يقف مستقيماً اكثر فأكثر وينظر الى وجه بن ويذرستاف ويقول له :

« أنا سيدك عندما يكون ابي غائباً . ويجب أن تطيعني . هذه هي حدبقتي . واياك أن تتجرأ وتتفوه بكلمة عنها ! انزل عن هذا السلم . واذهب الى الممر الطويل وستقابلك الانسة ماري هناك وتأتي بك الى هنا فانني اريد التحدث معك . لم نكن بحاجة اليك . ولكنك الان يجب أن تكون في مجموعة السر . أسرع ! »

كان وجه ويذرستاف النكد لايزال مبللاً بتلك الدموع الغريبة التي انهمرت ، وكأنه لم يعد يستطيع ابعاد عينيه عن كولن النحيل المستقيم وهو يقف على قدميه ورأسه الى الخلف .

وقال بصوت هامس « حسناً أيها الفتى ! يا بني ، ثم تذكر نفسه فجأة فأمسك بقبعة العمل وقال « نعم سيدي ! نعم سيدي ! ثم اختفى مطيعاً الامر وهو ينزل السلم .

# ٢٢ ـ عند مغيب الشمس

عندما اختفى راس بن ويذرستاف عن النظر ، التفت كولن نحو ماري وقال :

« اذهبي وقابليه » ، وطارت ماري فوق العشب باتجاه الباب الموجود تحت اللبلاب .

كان ديكون يراقبه بعينين حادتين ، كانت هناك بقع قرمزية على وجنتيه ومظهره رائع ولم يكن ما يشير الى انه سيسقط .

قال كولن ورأسه لايزال مرفوعا وهو يتحدث بكبرياء « أستطيع الوقوف . »

أجاب ديكون « لقد قلت لك بأنك تستطيع ذلك حالما تتوقف عن الخوف ، وها أنت لا تخاف الان .

قال كولن « نعم توقفت عن الخوف . »

وفجأة تذكر شيئاً كانت ماري قد قالته له فقال بحزم « هل انت تصنع السحر » .

انبسط فم ديكون المتجعد عن ابتسامة مشرقة وقال :

« أنت نفسك تصنع السحر ، وهو نفس السحر الذي جعل تلك النباتات تخرج من الارض ، وراح يطأ بجزمته الغليظة كومة من الزعفران الموجودة بين العشب .

نظر كولن اليها وقال ببطء :

« نعم . فليس هناك سحر اكبر من هذا ــ لا يوجد سحر أكبر »

ثم وقف جالساً بصورة لم يسبق لها مثيل . وقال وهو يشير الى شجرة تبعد عنه عدة اقدام : « سأمشي الى تلك الشجرة . وعندما يأتي بن ويذرستاف الى هنا سأكون واقفا . وأستطيع ان أستند الى تلك الشجرة اذا أردت . وعندما أرغب بالجلوس سأجلس ، ولكن لن أجلس قبل ان اقرر ذلك بنفسي . احضر غطاء من الكرسي .

مشى كولن نحو الشجرة ورغم أن ديكون كان يمسك بذراعه ولكنه كان يمشي ثابتاً بصورة رائعة . وعندما وقف مستندا الى جذع الشجرة لم يكن واضحاً انه كان يستند اليها ، فهو لايزال مستقيماً مما جعله يبدو طويلاً .

عندما دخل بن ويذرستاف من الباب الموجود في الحائط رآه واقفا هناك وسمع ماري تدمدم شيئا ما فقال لها « ماذا تقولين ؟ » وقد سألها بطريقة نكدة لانه لايريد ان ينصرف اهتمامه عن الفتى الطويل ذي الوجه النحيل المتعالى .

ولكن ماري لم تخبره . لقد كانت تقول له :

« تستطيع أن تفعل ذلك ! تستطيع أن تفعل ذلك ! لقد قلت لك بانك تستطيع ! تستطيع ذلك ! » كانت تقول له ذلك لانها تريد أن تضع سحراً وتدع كولن واقفاً على رجليه بهذه الصورة . لم تكن لتتحمل أن يستسلم أمام بن ويذرستاف . وهو لم يستسلم . لقد انتابها شعور مفاجيء حول جمال كولن الرائع رغم جسمه النحيل ووجه كولن عينيه نحو بن ويذرستاف على طريقته المتعالية المضحكة . وراح يأمره .

« انظر إلي! انظر لي جيداً ! هل أنا احدب؟ هل ساقاي منحنيتان؟

لم يستطع بن ويذرستاف من التغلب على عواطفه ، ولكنه استرد نفسه قليلا وأجاب بطريقته العادية : « لست كذلك ! لا لست كذلك أبداً ماذا كنت تفعل بنفسك وأنت مختبيء مما جعل الناس يظنون بأنك مقعد لـم أمـت ! »

قال كولن بغضب « نصف مجنون ؟ ومن قال هذا ؟ »

قال بن « كثير من المجانين . فالعالم مليء بالحمير الذين لا ينهقون سوى الاكاذيب ، فلماذا كنت تغلق على نفسك ؟ »

قال كولن باختصار « الجميع كانوا يظنون أنني سأموت ، وها انا لم أمت ! »

لقد قال كولن كلماته هذه وهو متأكد من نفسه حتى أن بن ويذرستاف راح ينظر اليه من أعلى الى ا سفل وبالعكس .

قال بن وهو مسرور قليلا « أنت تموت ! ليس هناك شيء من هـذا القبيل . فأنت لديك الكثير من الشجاعة . وعندما رأيتك تضع رجليـك على الارض بتلك السرعة علمت بأنك فيصحة جيدة ، اجلس على السجادة قليلا يا سيدي الصغير واعطني تعليماتك .

كان في حديث بن ديندرستاف الكثير من المزيج الغريب بين الرقة المثيرة والتفهم اللاذع لسلوكه . وكانت ماري قد لقنته محاضرة سريعة قدر ما تستطيع عندما سارت معه عبر المر الطويل . والشيء الرئيسي الذي تذكره من حديثها هي قولها أن كولن بدأ يتحسن ــ بدأ يتحسن ، والحديقة هي السبب ويجب أن لا يذكره أحد بشيء عن الحدبة أو الموت .

تنازل المهراجا وجلس على السجادة تحت الشجرة وسأله :

« ماهو عملك في الحدائق ياويذرستاف ؟ » .

اجاب بن العجوز : « اي شيء يطلب مني ، لقد بقيت هنا عربون محبة ــ لأنها كانت تحبني » .

قال كولن : « ومن هي ؟ » .

اجاب بن ديذرستاف « أمك » .

قال كولن : « امي ؟ هذه كانت حديقتها ، اليس كذلك ؟ » وراح ينظر من حوله بهدوء .

نظر بن ويذرستاف ايضاً من حوله وقال : « نعم ، هذه حديقتها ، وقد كانت مولعة بها » . بين كولن « وهي الآن حديقتي ، وأنا مولع بها . سآتي الى هنا كل يوم . ولكن يجب أن يبقى الأمر سراً . وتعليماتي هي ان لا احد يجب أن يعرف اننا نأتي هنا . لقد عمل بها كل من ديكون وابنة عمتي حتى عادت إليها الحياة . وسأطلب منك أن تأتي أحياناً للمساعدة ــ ولكن يجب أن تأتي دون أن يراك أحد » .

تغير وجه بن ديذرستاف وابتسم ابتسامة متحفظة وقال :

« لقد أتيت الى هنا من قبل دون أن يراني أحد » .

تعجب كولن . « ماذا ؟ متى ؟ » .

بدأ بن يفرك ذقنه وينظر حوله « آخر مرة كنت فيها هنا منذ حوالي السنتين » .

صاح كولن : « ولكن لم يدخلها احد منذ عشر سنوات ، لم يكن هناك باب ! » .

قال بن العجوز بتحفظ : « انا لست احداً ، ولم أدخل عبر الباب . لقد اتيت من فوق الجدار . ولكن حمى المفاصل منعتني من ذلك خلال السنتين الماضيتين » .

صاح ديكون : « عليك ان تأتي من اجل بعض التقليم . فأنا لا اعرف كيف جرى تقليمها » .

قال بن ديذرستاف ببطء : « لقد كانت مولعة بها ــ بالفعل كانت مولعة . إنها كانت امرأة جميلة . قالت لي مرة وهي تضحك : « بن ، إذا صدف ان مرضت، أو إذا رحلت عن الدنيا عليك أن تعتني بورودي » ، وعندما رحلت بالفعل كانت الأوامر هي أن لا يدخل أحد الى هنا . ولكنني اتيت بروح من العناد . كنت أدخل من فوق الحائط ــ حتى منعتني حمى المفاصل من ذلك ــ وكنت اعمل فيها قليلاً مرة في السنة ، لأنها اعطت اوامراها هي أولاً » .

قال ديكون : « لو لم تعمل فيها لما كانت غضة كما هي الآن ، فأنا مستغرب » .

قال كولن : « إني سعيد لأنك اعتنيت بها يا ويذرستاف . فأنت تعلم كيف تحفظ السر » .

اجاب بن : « نعم سيدي أعرف ذلك ، وسيكون من الأسهل على رجل لديه حمى المفاصل الدخول من الباب » .

رمت ماري منكاشها فوق العشب قرب الشجرة . ومد كولن يده فالتقطه ، وكان هناك تعبير غريب على وجهه عندما بدأ ينكش التربة . لقد كانت يده النحيلة ضعيفة تماماً ، ولكن وعلى الفور وهم يراقبونه ــ كانت ماري تراقبه باهتمام كبير ــ دفع بطرف المنكاش في التربة وقلبها .

قالت ماري لنفسها : « يمكنك أن تفعل ذلك ! يمكنك أن نفعل ذلك ! » .

كانت عينا ديكون المستديرتان مليئتين بالفضول . ولكنه لم ينطق بأية كلمة أ أما من ويذرستارف فقد كان ينظر والاهتمام واضح على وجهه .

استمر كولن ، ولكن بعد أن قام بقلب قليل من التربة قال بكبرياء موجها كلامه الى ديكون بلهجته المحلية « كما قلت أنت لقد جعلتني امشي حول هذا المكان كما يمشي الجميع . وقد قلت أيضاً بأنك ستجعلني أحفر ، وكنت تقول لي ذلك لكي تسعدني . لقد مشيت منذ اليوم الأول، كما أنني بدأت بحفر التربة » .

فتح بن ويذرستاف فمه ثانية عندما سمعه ، ولكن الأمر انتهى بضحكة وقال :

« حسناً ! هذا يعني أنك تستوعب بسرعة . ولا شك أنك فتى من يوركشاير . فأنت تحفر أيضاً . وما رأيك أن تقوم بزرع شيء ما ؟ أستطيع ان أعطيك وردة في أصيص » .

قال له كولن وهو يحفر باهتمام « اذهب وأحضرها . بسرعة ! بسرعة ! »

وقد جرى كل ذلك بسرعة كبيرة تماماً ، ذهب بن ويذرستاف ، وقد نسي موضوع ألم مفاصلة ، واخذ ديكون المجرفة وحفر حفرة أعمق وأعمق مما تستطيع عمله يدي كولن الضعيفتان . انسلت ماري وخرجت تركض وعادت معها إناء الري . وعندما عمق ديكون الحفرة راح كولن يقلب ويقلب التربة الناعمة . ثم نظر الى السماء وهو متورد ومحمر بسبب هذا التمرين الجديد الغريب . بالرغم من عدم أهميته ثم قال :

« أريد أن أنجز ذلك قبل أن تغيب تماماً ــ تماماً . »

فكرت ماري لربمـا بقيت الشمس دقائق قليلة لهـذا الغرض . وأحضر بن ويذرستاف الوردة في أصيصها من البيت الزجاجي . كان يعرج فوق العشب بأسرع ما يستطيع . فقد بدا هو أيضاً مضطرب . وانحنى الى الأسفل قرب الحفرة وكسر قالب الأصيص ، ثم قال :

« خذها أيها الفتى وضعها في التراب بنفسك تماماً كما يفعل الملك عندما يحرج الى مكان جديد . »

اهتزت اليدان الناحلتان البيضاوان بعض الشيء وازداد تورد كولن اكثر عندما وضع الوردة في القالب وحملها بينما كان بن العجوز يثبت التربة . ثم وضعت الوردة في مكانها وحولها التراب الذي ضغط الى الاسفل وجرى تثبيته . كانت ماري منحنية الى الأمام ويداها علــى ركبتيها . بينما طـار الغراب سناج ثم حط وتقدم ليرى ما يحـدث ، أما بندق وصـدفة فكانا يثرثران حول ذلك من فوق شجرة الكــرز . وأخيراً قال كولن « لقد تم زرعهـا ، والشمس تنحـدر الى نهايتها . ساعدني يا ديكون لأنني أريد أن أكون واقفاً عندما تغرب . فهذا جزء من السحر . »

ساعده ديكون على الوقوف وقد أعطاه السحر ــ أياً كان ــ القوة ؛ عندما انحدرت الشمس الى النهاية وانتهى ذلك المساء الغريب الجميل عندما كان كولن يقف على قدميه الاثنتين ــ وهو يضحك .

# ٢٣ ـ السحر

كان الدكتور كريفن بانتظارهم في البيت لبعض الوقت قبل عودتهم. وقد بدأ يتساءل بالفعل فيما إذا كان من الحمق إرسال احد ليبحث عنهم في ممرات الحديقة . وعندما عاد كولن الى غرفته ، اخذ الرجل المسكين ينظر إليه بصورة جادة ويقول :

« كان يجب أن لا تبقى طويلاً ، ويجب أن لا تتعب نفسك . »

قال كولن انا لست متعباً على الاطلاق ، فالخروج جعلني أفضل . وسأخرج غداً في الصباح وكذلك بعد الظهر . »

أجاب الدكتور كريفن : « لا أدري إن كنت سأسمح لك . لاني اخاف ألا يكون ذلك مفيداً . »

قال كولن بجدية تامة : « لن يكون مفيداً أن تمنعني . أنا سأخرج . »

وحتى ماري استطاعت أن تكتشف خصوصية كولن الرئيسية وهي انه لا يعرف إطلاقاً كم هو وحش صغير فظ بطريقته في إعطاء الأوامر للناس الذين حوله . فقد عاش كل حياته في جزيرة جرداء وكان هو ملك تلك الجزيرة ، ولهذا فقد كون سلوكه الخاص به ولم يجد أحداً ليقارن نفسه به . وحتى ماري فقد كانت هي نفسها مثله فعلاً ، ولكن ما أن وصلت الى ميسلثويت حتى اكتشفت بالتدريج أن سلوكها ليس من النوع المألوف أو المحبب . وعندما اكتشفت ذلك فكرت بأنه من المفيد نقل ذلك

الى كولن . ولذلك وبعد ان خرج الدكتور كريڤن جلست تنظر إليه بفضول لعدة دقائق وكانت تريده أن يسألها لماذا تفعل ذلك وبالفعل فقد سألها :

« لماذا تنظرين إلي ؟ »

« إنني افكر كم أشفق على الدكتور كريڤن . »

قال كولن بهدوء « وأنا كذلك » ولكن بشيء من الرضا . « فهو لن يحصل على ميسلثويت أبداً الآن طالما أنني لن أموت . »

قالت ماري : « إنني مشفقة عليه لهذا السبب بالطبع . ولكني كنت افكر الآن بأنه من المؤسف جداً أن يكون المرء مهذباً مدة عشر سنوات مع فتى كان فظاً على الدوام . فأنا لا يمكنني عمل ذلك أبداً . »

سأل كولن دون ان ينزعج « هل أنا فظ ؟ »

قالت ماري : « لو كنت أنت ابنه وكان هو من النوع الذي يهين لأهانك . »

قال كولن : « ولكنه لا يجرؤ . »

قالت الآنسة ماري : « يجرؤ . » وهي تفكر بالأمر دون اي تحامل « فلم يجرؤ أحد على فعل شيء من هذا القبيل . لقد كنتَ فتى مسكيناً . »

قال كولن بعناد : « ولكنني لن أكون مسكيناً بعد الآن . ولن أدع الناس يظنون ذلك . لقد وقفت على قدمي بعد ظهر اليوم . »

تابعت ماري وهي تفكر بصوت مرتفع : « إن بقاءك على هواك هو الذي جعلت غريب الأطوار . »

سأل كولن : « هل انا غريب الاطوار ؟ »

اجابت ماري : « نعم ، كثيراً ، ولكن يجب أن لا تغضب . » ثـم اضافت بتجرد « لأنني انا أيضا غريبة الأطوار ـ وكذلك بن ويذرستاف ولكنني الآن لست غريبة الأطوار كما كنت قبل ان ابدأ محبة الناس وقبل ان اجد الحديقة . »

قال كولن : « لا أريد ان اكون غريب الاطوار ، ولن أكون كذلك . » ثم قطب وهو مصمم على ذلك . لقد كان فتى فخوراً بنفسه . فاستلقى وهو يفكر قليلاً ، ثم رأت ماري ابتسامته الحلوة التي بدأت تغير كل معالم وجهه تدريجياً .

وقال : « سأتوقف عن اطواري الغريبة إذا ذهبت الى الحديقة كل يـوم . يوجـد سحر في ذلك المكان ـ سحر طيب ـ وأنت تعلمين ذلك يا ماري . إني على يقين من ذلك . »

قالت ماري : « وانا كذلك . »

قال كولن : وحتى لو لم يكن سحراً حقيقياً ، يمكننا أن نتظاهر بذلك . يوجد شيء ما هناك ـ شيء !

قالت ماري : آنه السحر ، ولكن ليس السحر الاسود ، إنه سحر ابيض كالثلج . »

كانوا يسمونه دوماً بالسحر ، وبالفعل يبدو أنه كان يشبهه خلال خلال الأشهر التي تلت ـ تلك الأشهر الرائعة ـ الأشهرالمشرقة ـ والممتعة كم هي رائعة تلك الأشياء التي حدثت في الحديقة !.

فإنك لن تدرك ذلك ولكن اذا كان لديك حديقة فستعلم بأن وصفها سيحتاج الى كتاب كامل لكي تصف كل ما يحدث فيها . ففي بادىء الأمر كانت الأمور وكأن الأشياء الخضراء لم تتوقف عن ايجاد طريق لها من خلال التربة . والعشب والاحواض وهي في شقوق الجدران ، ثم بدأت هذه الأشياء الخضراء تبرعم والبراعم تتفتح بألوان متعددة ، فهنا مظلة زرقاء ، واخرى أرجوانية في كل مسحة تدرج للألوان القرمزية . كانت الحديقة في أوجها مليئة بالأزهار في كل شبر منها وكل فتحة وزاوية . وكان بن ويذرستاف يراقبها ، وقد ساهم هو نفسه في انتزاع الملاط من بين قطع الآجر في الحائط ففسح المجال للنباتات المتدلية الجميلة لكي تنمو . كان هناك زهر السوسن والنيلوفر يخرج بشكل حزم من بين العشب والمظلات الخضراء وأزهار العايق او الجريس الزرقاء والبيضاء الطويلــة .

قال بن ديذرستاف : لقد كانت مولعة بهذه الأزهار ، كانت تحب كل الأشياء التي تتجه نحو السماء الزرقاء ، حيث كانت ترى في زرقتها الفـــرح الدائم .

أما البذور التي رعتها ماري وديكون فقد كبرت وكأن الجنيات قد أولتها عنايتها . وكانت نبتات الخشخاش الملساء من كل الالوان تتراقص بفعل النسمات بسرور وهي تتحدى الأزهار التي تعيش في الحديقة منذ سنوات والتي يمكن أن تتعجب كيف دخل إليها هؤلاء الناس الجدد . أما الورود ــ الورود ! تخرج من الأرض وتتشابك حول جذوع الشجر ثم تتدلى من أغصانها وتتسلق الجدران وتنتشر عليها بأكاليل طويلة متدلية كالشلال ــ إنها تمتلىء بالحياة يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة . وأوراق جديدة وبراعم ــ وبراعم تكون صغيرة ، ثم تنتفخ ، ويعمل فيها السحر فتنفجر وتتفتح وتنشر رائحتها بنعومة تنسكب من حوافها وتملأ هواء الحديقة كلهــا .

لقد راى كولن كل هذا وراقبت كل تغير كان يجري . فكانوا يأتون به كل صباح ليقضي كل ساعة من كل يوم صاحٍ في الحديقة . فيستلقي على العشب يراقب الاشياء وهي تكبر . وقد اكد بأنك إذا راقبت مدة كافية فإنك تستطيع أن ترى البراعم وهي تتفتح .وكذلك تستطيع التعرف على الحشرات المشغولة وهي تدور في جولات مختلفة ليست معروفة ولكنها بالتأكيد جولات جادة ، وهي تحمل في بعض الأحيان قطعاً من القش أو الريش أو الطعام أو تتسلق أوراق العشب وكأنها أشجار تستطلع من رؤوسها البلاد . والخلد يكشف كومة التراب في نهاية جحره ويجد طريقه اخيراً بواسطة مخالبه الطويلة التي تبدو مثل يدي قزم ظل يعمل طوال الصباح . ومسارات النمل والخنافس والنحل والضفادع والطيور والنباتات ، كل هذا اعطاه عالماً جديداً ليستكشفه . وعندما كشف له ديكون عن كل ذلك، إضافة الى الثعالب والقضاعة وابن عرس والسناجب ، لم يعد هناك نهاية للاشياء التي يمكن الحديث عنها أو التفكير بها .

لم يكن ذلك نصف السحر . فإن حقيقة وقوف كولن مرة على قدميه قد جعلته يفكر كثيراً ، وعندما أخبرته ماري عن السحر الذي صنعته فقد أثاره ذلك كثيراً ووافق عليه ، وظل يتحدث عنه باستمرار .

وفي أحد الأيام قال بهدوء بالطبع لابد من وجود الكثير من السحر في هذا العالم ، ولكن الناس لايعرفون ماهو أو كيفية صنعه . وربما كان كافياً لبدء السحر هو ان تقول أن أشياء حلوة ستحدث حتى تجعلها تحدث فعلاً . وسأحاول تجربة ذلك .

في صباح اليوم التالي عندما ذهبوا إلى الحديقة السرية ، طلب كولن فوراً حضور بن ويذرستاف ، فجاء بن مسرعاً قدر ما يستطيع ، فوجد المهراجا يقف على قدميه تحت الشجرة وينظر بجلال ، ولكنه بنفس الوقت يبتسم ابتسامة حلوة .

قال له : صباح الخير يابن ويذرستاف ، أريدكم أنت وديكون والآنسة ماري ان تقفوا في صف واحد وتستمعوا إلي ، لأنني سأقول لكم شيئاً هاماً جداً .

اجاب بن ويذرستاف ووهو يتلمس جبهته « نعم سيدي ! » ( إن إحدى ميزات بن ويذرستاف المختبئة منذ زمن بعيد أنه عندما كان فتى هرب الى البحر وسافر برحلات . ولهذا فإنه يستطيع الإجابة مثل البحارة ) .

وبدأ المهراجا يشرح : « سأقوم بتجربة علمية ، وعندما سأكبر سأقول باكتشافات علمية وسأبداها الآن بهذه التجربة . »

أجاب بن على الفور « نعم ، نعم سيدي! » رغم أنها كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها عن الاكتشافات العلمية العظيمة . »

وكذلك ماري كانت تسمع بذلك للمرة الأولى ، ولكن حتى في هذه المرحلة فقد بدأت تدرك ، انه رغم غرابة كولن ولكنه قرأ عن أشياء فريدة وعديدة وعظيمة ، وكان الى حد ما من النوع الذي يقنع . وعندما يرفع رأسه وتثبت عينيه الغريبتين عليك فإنك ستصدقه . رغماً عنك مع أنه عمره عشر سنوات فقط ، وسيبدأ سنة الحادية عشرة . وفي تلك اللحظة بالذات كان مقنعاً بصورة خاصة لأنه شعر فجأة بسحر إلقاء ما يشبه الخطبة مثل الكبار .

ثم تابع حديثه : « إن الاكتشافات العلمية التي سأقوم بها ستكون عن السحر . فالسحر شيء عظيم ونادراً ما تجد أحداً يعرف عنه شيئاً عدا اناس قليلون في الكتب القديمة ـ وكذلك ماري لا تعرف القليل لأنها ولدت في الهند حيث يوجد هناك فقراء الهنود . اعتقد أن ديكون يعرف قليلاً ولكن ربما كان لا يعرف ذلك . فهو يسحر الحيوانات والناس . وما كنت لأسمح له بالقدوم ليراني لولا أنه ساحر حيوانات .

إنني متأكد بوجود سحر في كل شيء ، والمشكلة هي اننا لا نملك إحساساً جيداً لنتمكن من الإمساك به لصنع أشياء تفيدنا مثل الكهرباء والخيول والبخار . »

لقد بدا حديث كولن مقنعاً لدرجة أن بن ويذرستاف اثاره تماماً وبالفعل لم يستطع أن يبقى ساكناً .

فقال : « نعم ، نعم سيدي » ثم بدأ يقف منتصباً تماماً .

ثم تابع الخطيب حديثه : « عندما وجدت ماري الحديقة . كانت تبدو ميتة تماماً ، ثم بدأت بعض الأشياء تدفع بعضاً خارج التربة وتصنع اشياء من اشياء . ففي هذا اليوم لا ترى شيئاً وفي اليوم التالي تجد تلك الاشياء . لم يسبق لي أن راقبت نباتات من قبل ، وهذا الامر جعلني فضوليا . فالأشخاص العلميون هم دوماً فضوليون وسأكون إنساناً عملياً . إنني اسأل نفسي على الدوام :

« ما هذا ؟ ما هذا ؟ إنه شيء ما . ولا يمكن أن يكون من عدم ! فأنا لا أعرف اسمه، ولهذا أسميه سحراً . لم يسبق لي أن رأيت شروق الشمس ، ولكن ماري وديكون شاهدا اشراقة الشمس ، وبحسب ما قالاه لي فأنا على يقين من أن ذلك سحر أيضاً . ولا بد أن هناك شيء ما يدفعها الى الأعلى من خلال الأشجار والى السماء ، ولدي شعور غريب بالسعادة وكأن شيئاً يندفع وينسحب في صدري ويجعلني اتنفس بسرعة . إنه السحر دوماً هو الذي يدفع ويسحب ويصنع من لا شيء . فكل شيء مصنوع من السحر ، الأوراق والأزهار والطيور والغرير والثعالب والسناجب والناس . وهكذا كل شيء من حولنا ، في هذه الحديقة وفي كل الأماكن . لقد جعلني السحر في هذه الحديقة اقف ، وأنا على يقين أنني سأعيش لأصبح رجلاً . وسأقوم بالتجربة العلمية محاولاً أن أحصل على شيء من السحر فأضعه في داخلي فيدفعني ويسحبني حتى أصبح قوياً ، لا أدري كيف أصنع ذلك ولكنني اعتقد انه

إذا استمر الانسان بالتفكير بالأمر واستدعائه فلربما يحدث ذلك . وربما كان الأمر كذلك بالنسبة لأول طفل حصل على ما يريد . فعندما كنت احاول الوقوف لأول مرة بقيت ماري تقول لنفسها وبأسرع ما تستطيع « تستطيع فعل ذلك ! تستطيع فعل ذلك ! » وفعلت ذلك . كان من واجبي أن احاول بنفسي بالطبع ، ولكن سحرها ساعدني ـ وكذلك سحر ديكون . ففي كل صباح ومساء وغالباً أثناء النهار عندما اتذكر سأقول: « السحر في داخلي ! السحر سيجعلني أفضل ! سأصبح قوياً مثل ديكون ، قوياً مثل ديكون ! » ، وعليكم أن تفعلوا ذلك أيضاً . هذه هي تجربتي . هل ستساعدني يا بن ويذرستاف ؟ . »

قال بن ويذرستاف : « نعم . نعم يا سيدي ! نعم ، نعم ! »

تابع كولن : « إذا استمريت بفعل ذلك كل يوم وبصورة منتظمة كالجنود الذين يتدربون فسنرى ماذا يمكن أن يحدث وهل ستنجح التجربة . إنك تتعلم الأشياء بتردادها والتفكير بها حتى ترسخ في عقلك للأبد ، وأعتقد أن هذا الأمر ينطبق على السحر . فإذا استمريت في استدعائه إليك لمساعدتك فسيصبح جزءاً منك ويعمل عمله . »

قالت ماري : « سمعت مرة أن ضابطاً في الهند أخبر أمي عن فقراء الهنود الذين يقولون كلاماً ويرددونه آلاف المرات . »

قال بن ويذرستاف بصورة جافة : « لقد سمعت زوجة جيم فيتلورث تقول الشيء نفسه آلاف المرات وهي تقول أن جيم وحش سكير ، وبالتأكيد هذا الكلام فيه الكثير من الصحة . بعد ذلك اختفى عن نظرها وذهب بعيداً وراح يشرب كما يشاء . »

قطب كولن حاجبيه معاً وفكر لبضع دقائق ، ثم أشرق ثانية وقال :

حسناً لقد نتج عن ذلك شيء ما . لقد استخدمت السحر بصورة خاطئة حتى جعلته يضربها ولو استخدمته بطريقة صحيحة وقالت شيئاً

جميلاً . فربما لم يسكر للدرجة التي يسكر بها الأمراء وربما جاء لها بقبعة جديدة .

ضحك بن ويلدرستاف وقد ظهر الإعجاب في عينيــه العجــوزين الصغيرتين . وقال :

انت فتى ذكي ومستقيم ياسيد كولن . وفي المرة القادمة عندمــا ارى بيس فيتلورث سأعلمها ماذا يمكن ان يفعله السحر لها ، وستكون مسرورة إذا أعطت التجربة نتائجها وكذلك جيم ، وقف ديكون يستمع للمحاضرة وعيناه المستديرتان تلمعان بفضول ممتع ، وهو يحمل على على ذراعه ارنباً أبيض اللون وله اذنان طويلتان ، ويداعبه بلطف ، بينما استرخت اذناه فوق ظهره وهو مسرور . ثم سأله كولن : هل تعتقد بأن التجربة ستنجح ، وكان يتساءل بينــه وبين نفسه بماذا يكفر ديكون . وكان دوماً يتساءل بماذا يفكر عندما يراه وهو ينظر إليه أو إلى أحــد حيواناته بابتسامته الواســعة السعيدة . ابتســم ديكون الآن وكانت ابتسامته في هذه المرة أكبر من المعتاد واجاب :

نعم ، ستنجح ، وستعمل مثل ما تضع البذور عندما تشرق عليها الشمس . إنها ستعمل بالتأكيد . هل نبدأ الآن ؟

كان كل من كولن وماري يشعران بالسعادة وقد أثارتهما ذكرى فقراء الهنود وأتباعهم المتحمسين ، واقترح كولن أن يجلسوا جميعاً تحت الشجرة وارجلهم متشابكة كالمظلة .

قال كولن : ستكون جلستنا مشابهة للجلوس في معبد ، فأنا متعب واريد الجلوس .

قال ديكون : حسناً ! يجب أن لاتقول انك متعب . فلربما أفسدت السحــر .

استدار كولن نحوه ونظر إليه . بعينيه البريئتين المستديرتين وقال ببطء :

هذا صحيح ، يجب ان افكر بالسحر فقط .

لقد بدا الوضع عظيماً وغامضاً عندما جلسوا بصورة دائرية . فشعر ويذرستاف وكأنه قد دعي الى اجتماع للصلاة . ومن عادته عدم الالتزام بمثل تلك الاجتماعات ، ولكن بما انها كانت رغبة المهراجا فلم يرفضها ، وكان بالفعل أقرب للرضى لأنه استدعي للمساعدة . أما الآنسة ماري فقد كانت مبتهجة بهدوء . امسك ديكون أرنبه بذراعه ، وربما قام ببعض إشارات السحرة التي لم يسمعها أحد ، لأنه عندما جلس على الأرض وشبك رجليه مثل البقية اقترب منه كل من الثعلب والغراب والسنجابين والحمل ببطء واصبحت الحيوانات جزءاً من الدائرة وكل منها في وضعية استراحة وكأنها تلك هي رغبتها . .

قال كولن بوقار : لقد جاءت « الحيوانات » ، إنها تريد مساعدتنا .

كانت ماري تفكر كم كان كولن يبدو وسيما ، فقد رفع راسه عالياً وقد ظن نفسه كاهناً ، وعيناه الغريبتان فيهما نظرة رائعة . وكان الضوء يشع عليه من بين شقوق مظلة الشجرة .

قال كولن : سنبدأ الآن ، هل نتأرجح إلى الامام والوراء ياماري وكأننا دراويش ؟

قال بن ويذرستاف : انا لا استطيع التأرجح ، لانني مصاب بحمى المفاصل .

قال كولن بلهجة الكاهن المتعالية ، السحر سيزيل عنك الحمى ، ولكننا لن نبقى حتى تزول الحمى سنغني فقط .

قال بن بشيء من النكد : « لا أستطيع الغناء ، لقد طردت من جوقة الكنيسة في المرة الوحيدة التي حاولت فيها ذلك . »

لم يضحك احد . لقد كان الجميع في حالة جدية . كان وجه كولن ثابتاً لا يتحرك ، لم يكن يفكر إلا بالسحر . وقال :

« إذن سأغني أنا » ، ثم بدأ وهو يشبه روح فتى غريب « الشمس تشرق ــ الشمس تشرق . وهذا هو السحر . الأزهار تنمو ــ والجذور تتحرك . هذا هو السحر . كوننا نعيش هو السحر ــ أن تكون قوياً هو السحر . السحر في داخلي ــ في داخلي ــ في داخلي . إنه في داخل كل واحد منا . إنه في ظهر بن ويذرستاف . ايها السحر ! ايهـا السحر ! تعال وساعدنا ! » . كرر كولن هذا الكلام عدة مرات وليس مئات المرات، ولكن عدداً كافيا من المرات . كانت ماري تستمع مسرورة . لقد شعرت وكأنه غريب وجميل لقد كانت ترغب أن يتابع ويتابع ذلك . شعر بن ويذرستاف وكأنه في نوع من الحلم المقبول جداً . كان طنين النحل بين الأزهار يختلط مع صوت الغناء فيذوب وكأن النعاس قد غالبه . اما ديكون فقد جلس ورجلاه متشابكتان وأرنبـه نائم على ذراعه ، ويـده الأخرى فوق ظهر الحمل . اما سنلج فقد أبعد السنجاب وجلس بالقرب منه على كتفه وانسدلت اجفانه فوق عينيه . وأخيراً توقف كولن . ثم أعلن :

« والآن سأمشي حول الحديقة » .

امـا بن ويذرستاف فقد غالبه النعاس فانحنى رأسه الى الأمام وبحركة سريعة رفعه ثانية .

قال له كولن « لقد كنت نائماً » .

تلعثم بن قائلاً « لا يوجد شيء من هذا القبيل ــ لقد كان احتفالاً جيداً ــ ولكن يجب ان أخرج من هنا قبل المجموعة » .

قال كولن « أنت لست في كنيسة » .

قال بن وقد استقام « لم أقل ذلك . . من قال هذا ؟ لقد سمعت كل حرف . وكنت تقول أن السحر في ظهري . والطبيب يسمي ذلك حمى المفاصل » .

حرك المهراجا يده وقال :

« لقد كان كلامه سحراً خاطئاً . وستتحسن . وأنا أعطيك الإذن الآن لتذهب الى عملك . ولكن يجب أن تعود غداً » .

قال بن بصوت خشن « أريد أن أراك وانت تطوف حول الحديقة » .

لم يقصد بن بخشونته عدم المحبة ولكن صوته كان خشناً . وفي الواقع فقد قرر انه إذا طرد فسوف يتسلق السلم وينظر من فوق الحائط بحيث يستطيع العودة إذا حصل أي تعثر .

لم يكن المهراجا يعارض بقاء بن وبالتالي بدأ الموكب ينتظم ، وبالفعل كان يشبه الموكب ، لقد وقف كولن في المقدمة وديكون من جهة وماري من الجهة الأخرى .

ومشى بن ويذرستاف خلفهم ، وجاءت الحيوانات بعدهم ، كان الحمل والثعلب الصغير يمشيان بالقرب من ديكون ، والأرنب الابيض يقفز أو يقف ليقضم شيئاً وسناج يتبعهم مثل إنسان وقور يشعر بالمسؤولية .

كان الموكب يتحرك ببطء ولكن بجلال ، وكل بضعة أذرع يتوقف ليستريح . وكان كولن يتكىء على ذراع ديكون ، وبن ويذرستاف يسترق النظر إليه ، ولكن بين الحين والآخر كان كولن يسحب يده ويمشي بضع خطوات وحده ، ورأسه مرفوع طوال الوقت ومظهره يبدو مهيباً وهو يقول باستمرار :

« السحر في داخلي ! السحر يجعلني قويا ! إني أشعر ذلك ! اني أشعر ذلك » !

ويبدو من المؤكد أن هناك شيء كان يشده ويرفعه . لقد جلس على المقاعد تحت المظلات ومرة أو مرتين على العشب ، وتوقف في الممر عدة مرات واستند الى ديكون ، ولكنه لم يستسلم حتى دار حول الحديقة كلها . وعندما عاد الى ظل الشجرة ، كانت وجنتاه متوردتان وبدا عليه الانتصار ، فصاح :

« لقد فعلتها ! لقد نجح السحر ! وهذا هو أول اكتشاف علمي لي ».
وفجأة قالت ماري « ماذا سيقول الدكتور كريفن » ؟

أجاب كولن « لن يقول شيئاً ، لأنه لن يعلم بذلك . وهذا هو اكبر سر على الاطلاق . ولا أحد يجب أن يعرف شيئاً عنه حتى أصبح قوياً لدرجة أستطيع فيها المشي والركض مثل أي فتى آخر . سآتي الى هنا كل يوم في الكرسي وسأعود عليه أيضاً . لا أريد أن يتهامس الناس ويسألون أسئلة ولن أدع أبي يسمع عن الأمر شيئاً حتى تنجح التجربة تماماً» . وبعد ذلك وفي وقت ما عندما يأتي الى ميسلثويت سأمشي الى غرفة مكتبه وأقول : هاأنذا : إنني مثل أي فتى آخر . وأنا بصحة جيدة وسأعيش حتى أصبح رجلاً . لقد تم ذلك من خلال تجربة علمية » .

صرخت ماري « سيظن أنه في حلم ولن تصدق عيناه » .

تورد وجه كولن وهو يشعر بالانتصار ، لقد جعل نفسه يعتقد بأنه سيصبح بصحة جيدة ، وهذا في الواقع هو أكثر من نصف المعركة . ولكنه لم يكن يدرك تلك الحقيقة . والفكرة التي جذبته أكثر من غيرها كانت تصوره لشكل أبيه عندما سيرى أن له ابناً منتصباً وقوياً مثل أبناء كل الآباء .

إن أسوا شيء كان بالنسبة له خلال أيام مرضه الكئيبة التي مرت هو انه كان يكره مرضه وظهره الضعيف ، الأمر الذي كان يجعل أباه يخشى النظر إليه .

قال كولن « سيكون مجبراً على أن يصدق ، فأحد الأشياء التى سأفعلها بعد أعمال السحر وقبل البدء بالاكتشافات العلمية هو أن أصبح رياضيـاً » .

قال بن ويذرستاف « سوف نعلمك الملاكمة خلال أسبوع تقريباً ، وستربح الحزام وتكون بطل انكلترا للجائزة الكبرى » .

قال كولن « ويذرستاف هذا كلام لا يدل على الاحترام ، ويجب أن لا تأخذ حريتك لأنك تعرف السر . وعلى أي حال فإن كثرة أعمال السحر لن تدعني أربح جائزة الملاكمة ، بل سأكون عالماً مكتشفاً » .

اجاب بن « عذراً ــ عذراً يا سيدي » وقد وضع يده على جبهته محيياً « كان يجب أن أعرف أن الموضوع لم يكن هزاراً » ولكن عينيه كانتا تلمعان وضمناً كان مسروراً جداً . وفي الواقع لم يكن يكترث للتوبيخ باعتبار أن التوبيخ كـان يعني أن الفتى قد بدأ يسترد قوته ومعنويـاته .

# ٢٤ ـ دعهمـا يضـحكان

لم تكن الحديقة السرية هي المكان الوحيد الذي عمل فيـه ديكون . فهناك في السـبخة حول الكوخ توجد قطعة أرض يحيط بها جدار منخفض وحجارة خشنة . ولهذا لم يكن كولن وماري يشاهدان ديكون في الصباح الباكر وفي وقت متأخر من الغروب ، لقد كان يعمل هناك ويزرع أو يقلع البطاطا والملفوف واللفت والجزر والأعشاب من أجل أمـه . كان يفعل العجائب مع حيواناته هناك ، ويبدو أنه لم يكن يشعر بالتعب ، كان يصفر أو يغني بعض أغنيات سبخة يوركشايـر وهو يحفر أو يعشب، أو يتحدث الى سناج أو القبطان أو إخوته وأخواته الذين علمهم كيف يساعدونه .

حتى أن السيدة ساورباي قالت :« ما كنا لنشعر بالراحة التي ننعم بهـا الآن حديقة ديكون . فكـل شيء ينمو بفضله ، البطاطا والملفوف التي يزرعها أكبر بمرتين من تلك التي يزرعها الآخرون وطعمها متميز عن كل مزروعات الآخرين » .

وكلما وجدت الأم دقيقد فراغ كانت تحب أن تخرج وتتحدث إليه . وبعد العشاء كان هناك وقت كاف حتى الغروب ويستطيع العمل ، وهذه الفترة كانت فتـرة الهدوء بالنسبة لهـا . فكانت تجلس علـى الجـدار المنخفض الخشـن تنتظر وتستمع للقصص التي جرت أثناء النهار . إنها تحب ذلك الوقت . لم يكن في هذه الحديقة سـوى الخضار ، لقد كـان ديكون يشتري بذور الأزهار بين الحين والآخر لقاء قرش واحد فيزرعها ثم تنبت أزهار حلوة لامعة وذات رائحة طيبة بين شجيرات عنب الثعلب وحتى بين الملفوف ، لقد صنع حدوداً من البليحاء والقرنفل والبنفسج ،

وأشياء أخرى يمكن أن تعيش بذورها عاما بعد عام ، أو تلك التي تستمر جذورها فتزهر في كل ربيع وتنتشر مع الوقت لتصنع مجموعات جميلة. لقد كان ذلك الجدار المنخفض احد اجمل الأشياء في يوركشاير لأنه كـان يكسو أرض السبخة بقفاز الثعلب والسرخس والرشاد الصخري وأزهار السياج في كـل شق حتى انك لا ترى هنـا أو هنـاك سوى القليل مـن الحجـارة .

وكان ديكون يقول لأمه : « الشيء الوحيـد الذي يجب أن يفعلـه الواحد منا لكي تعيش تلك النباتات هو أن يعاملها كصديق » . إنها تماما مثل الحيوانا ت. فإذا عطشت يعطيها الماء ، وإذا جاعت يعطيها قليلاً من الطعام . مثلما نفعل نحن . ولكن إذا ماتت فإنني أشعر بأنني فتى سيىء لأنني قد عاملتها دون رحمة نوعاً ما .

في ساعات الغروب هذه كانت السيدة ساورباي تستمع الى كـل ما يحدث في ميسلثويت مانور . وكانت أول من علم بأن السيد كولن قـد أعجبه الخروج الى البرية مع الآنسة ماري وأن هذا الأمر جعله بصـحة افضل . ولكن وقبل مضي فتـرة طويلـة اتفق الإثنان على أن أم ديكـون تستطيع أن تأتي « الى الحديقة السرية » ، والى حد ما كانت هناك ثقـة بأنها « شخص يؤتمن له » .

وهكذا وفي أحد الأمسيات الجميلة الهادئة أخبر ديكون أمه كامـل القصة ، وبكل تفاصيلها المثيرة بما فيها المفتـاح المدفـون وأبو الحنـاء والضباب الرمادي الذي كان يبدو كالموت ، والسر الذي خططت الآنسة ماري الا تبوح به لأحد ، وقدوم ديكـون وكيف أخبـر بذلك ، وشكوك السيد كولن والمسرحية الأخيرة لتعريفه عن المكان المخبأ بما في ذلك حادثة بن ويذرستاف ووجهه الغاضب وهو يحدق من فوق الجدار ، والقـوة الخفية المفاجئة للسيد كولن التـي جعلت لون وجـه السيدة ساورباي يتغير تماماً عدة مرات .

فقالت : « يا إلهي ! لقد كان مجيء تلك الفتاة الصغيرة الـى مانور شيئا جيداً . فقد قامت بإنقاذ كولن وجعلته يقف على قدميه ! بينما كنا كلنا نفكر بأنه فتى مسكين ومتخلف ، وليس فيه عظم واحد مستقيم » .

سألت الأم أسئلة عديدة وهامة وكانت عيناهـا الزرقاوان تفكران بعمق . ثم تساءلت :

« ماذا سيصنعون في مانور ــ طالما انه اصبح بصحة جيدة ومشرقاً ولا يتذمر ؟ »

اجاب ديكون « لا يعرفون ماذا يصنعون ، ففي كل يوم جديد تبدو نظرات وجهه مختلفة ، ولم تعد حادة كما كانت ، كما زال لونه الشمعي، ولكن عليه أن يتصنع بعضاً من التذمر » .

سألت السيدة ساورباي : « ولماذا ، بحق السماء ؟ »

ضحك ديكون « إنه يفعل ذلك لكي لا يعرفوا ماذا يحدث . فإذا علم الطبيب بذلك فإنه سيكتشف أنه يستطيع الوقوف على قدميه ، وربمـا ارسلو برسالة الى الدكتور كريڤن بهذا الخصوص . اما السيد كولن فإنه سيحتفظ بهذا السر لنفسه . وسيمارس السحر على ساقيه كل يـوم حتى يعود والده وعندئذ سيمشي الى غرفته ليراه بأنه صحيح مثل كـل الأولاد . ولكنه يعتقد هو والآنسـة ماري ان أفضـل خطة هـي الأنين والاضطراب من وقت لآخر لإبعاد الشبهة » .

ضحكت السيدة ساورباي بصوت منخفض ضحكة طويلة قبـل أن ينهي آخر جملة .. ثم قالت :

« حسناً ! هذان الإثنان يستمتعان بوقتهما معاً ، وأنـا واثقة بأن اللعب والتمثيل سيفيدهما وليس هناك أحب مـن التمثيل علـى قلوب الأطفال . فلنستمع الى ما يفعلانه يا ديكون » .

توقف ديكون عن التعشيب وجلس على كعبيه ليخبرها وعيناه تشعان سروراً . وبدأ يشرح : « في كل مرة يخرج بها السيد كولن يجري حمله الى الأسفل ليوضع على الكرسي . وينفجر على الخادم جون إذا لم يحمله بعناية كافية . ويظهر نفسه بأن لا حول له ولا قوة بكل ما يستطيع فلا يرفع راسه حتى نبتعد عن انظار سكان البيت . وعندما يجري وضعه في الكرسي يئن ويضطرب كثيراً » .

فيستمتع الاثنان بالأنين والاحتجاجات ، فتقول ماري : « مسكين كولن ! هل يؤلمك ذلك كثيراً ؟ وهل انت ضعيف بهذا القدر ، مسكين كولن ؟ » ـ ولكن المشكلة هي أنها نادراً ما تستطيع ضبط نفسها وتجنب الانفجار بالضحك . وعندما نصل بأمان الى الحديقة فإنهما يضحكان حتى ينقطع نفسهما وحتى انهما يضعان وجهيهما فوق وسائد كولن كي لا يسمعهما عمال الحديقة » .

قالت السيدة ساورباي : « كلما ضحكا أكثر كلما كان ذلك مفيداً لهما أكثر ! » وكانت هي نفسها لا تزال تضحك ، « فالضحك للطفل سيجعله يتمتع بصحة جيدة وهو أفضل من تناوله الحبوب طوال أيام السنة . وهذان الاثنان سوف يصبحان ممتلئين بالتأكيد » .

قال ديكون : « إنهما يمتلئان بالفعل ، وهما يشعران بالجوع بحيث لا يعرفان كيف يحصلان على طعام كافٍ دون أن يثيرا ضجة . ويقول السيد كولن بأنه يقوم دوماً بطلب طعام إضافي ، حتى أنهم لا يصدقون أنه مريض على الإطلاق . وتقول الآنسة ماري بأنها ستعطيه حصتها ليأكلها ، ولكنه يقول : « إذا بقيت جائعة فستصبحي نحيلة ، وهما الاثنان يزداد وزنهما معاً » .

ضحكت السيدة ساور باي من قلبها عندما علمت بتلك الصعوبة حتى انها انثنت الى الوراء والامام بثوبها الازرق الفضفاض ، وكان ديكون يضحك معها أيضاً .

قالت السيده ساور باي : « سأخبرك ايها الفتى ! لقد خطرت لـي فكرة لمساعدتهما . فعندما تذهب إليهما صباحاً ستأخذ لهما معك دلوآمن الحليب الطازج وسأقوم بخبز كعك الكوخ أو بعضاً من الكعك الحلو مـع الزبيب الذي تحبونه أنتم . ولا شيء افضل من الحليب الطازج والخبز . وبذلك يسدان جوعهما وهما في الحديقة ثم يتناولان الطعام في البيت » .

قال ديكون بإعجاب : « حسناً ! يا أمي ! كم انت رائعة ! إنك دوما تجدين حلا للأشياء ! كانا في حيرة مـن امرهما البارحة . ولـم يكن هناك مجال للعمل دون طلب طعام إضافي ـ فهمـا يشعران بفـراغ مـن داخلهمـا » .

أجابت أمه : « إنهما يكبران هما الإثنان ويستردان صحتهما معاً . فالأطفال امثالهم يشعرون بالجوع كالذئاب الصغيرة، والطعام هو بالنسبة لهم اللحم والدم » . ثم ابتسمت السيدة ساور باي نفس ابتسامة ديكون « حسناً ! ولكنهما يستمتعان معاً بالتأكيد » .

لقد كانت على حق فعلاً ـ إنها الأم المريحة ـ الرائعة ـ وخاصـة عندما قالت بأن التمثيل سيمتعهم. لقد وجد كل من ماري وكولن في ذلك أكبر مصدر مثير للتسلية . وكانت فكرة حماية انفسهما من الشك قـد استوحيت فجأة من المربية اللغز ثم من الدكتور كريڤن نفسه .

فقد قالت المربية في احد الأيام : « شهيتك تتحسن كثيراً يا سيد كولن . لقد اعتدت ألا تأكل شيئاً . وبالتالي كانت هنـاك اشياء كثـيرة لا تعجبك » .

أجابكولن وهو يرى المربية تنظر إليه بفضول فتنبه فجأة بأن عليه عدم الظهور الآن بمظهر جيد : « لا يوجد شيء لا يعجبني الآن أو على الأقل فان الأمور تسير بشكل مقبول بالنسبة لي . إنه الهواء الطلق » .

قالت المربية « ربما كان الهواء » وهي لا تزال تنظر إليه بتعابير غامضة « ولكن يجب أن اخبر الدكتور كريفن بذلك » .

قالت له ماري بعد ان غادرت المربية « هل رأيت كيف كانت تحدق بك وكأنها تفكر انه لا بد من وجود سر ويجب معرفته » .

قال كولن : « لن ادعها تكتشف شيئاً ، ولا احد يجب أن يجد شيئاً » .

وعندما جاء الدكتور كريفن في صباح ذلك اليوم بدت عليه الحيرة أيضاً . وراح يسأل عدداً من الأسئلة ، مما ازعج كولن كثيراً . ثم بين الدكتور كريفن :

« إنك تبقى فترة طويلة في الحديقة ، فأين تذهب ؟ » .

اظهر كولن لا مبالاته المفضلة مع شيء من العظمة بخصوص رأي الطبيب ثم أجاب .

ألن ادع احداً يعرف اين اذهب . إنني اذهب الى مكان أحبه . وقد اعطيت التعليمات للجميع كي يبتعدوا عن طريقي . فأنا لا أريد أن يراني ويحدق بي أحد . وانت تعلم ذلك ! »

« يبدو أنك تبقى خارج البيت طوال اليوم . ولكنني لا اظن أن هذا الأمر قد سبب لك أي ضرر ولا أعتقد ذلك . كما تقول المربية انك تأكل أكثر بكثير مما كنت تأكله في السابق »

قال كولن وقد خطر له الوحي فجأة ، ربما ، ربما كانت هذه شهية غير طبيعية .

قال الدكتور كريفن ، لا أعتقد ذلك ، طالما أن طعامك يناسبك ووزنك يزيد بسرعة ولونك أفضل .

قال كولن : ربما ــ ربما كنت منتفخاً وحرارتي مرتفعة ، وقد أعطى جواً مظلماً وغير مريح . « فالناس الذين سيموتون يكونوا عادة مختلفين»

هز الدكتور كريفن راسه لانه يمسك بمعصم كولن ثم رفع كمه وجس ذراعه . ثم قال وهو يفكر ، ليس لديك حرارة ، وهذا اللحم الـذى يكسوك يدل على الصحة . فإذا استطعنا الحفاظ على ذلك يا بني فلا حاجة لنا للحديث عن الموت . وسيكون والدك سعيداً جداً حين يسمع عن هذا التحسن الملحوظ .

« لن ادعه يعلم » . ثم انفجر كولن غاضباً ! « سوف يخيب أمله إذا ساءت حالتي ثانية ــ وربما تسوء حالتي هذه الليلة بالذات . ربما اصابتني حرارة شديدة . اظن انني بدات اشعر بذلك الآن . لا اريـد أن ترسل رسائل لوالدي ــ لا اريد ــ لا أريد . إنك تجعلني اغضب وانت تعلم بأن هذا الأمر سيء بالنسبة لي . واشعر بسخونة الآن . لا أريد أن يكتب عني أحد ويتحدث كثيراً كما أكره أن يحدق بي الناس »

راح الدكتور كريفن يهدأه « اسكت يا بني . لن يكتب شيء دون إذن فأنت حساس جداً بهذا الخصوص . يجب أن لا نفسد ما تم اصلاحه ».

ولم يضف شيئاً بخصوص الكتابة للسيد كريفن ، وعندما رأى المربية حذرها بصورة خفية بضرورة عدم اخبار المريض بشيء من هذا القبيل . ثم قال لها :

إن الصبي أحسن بكثير بصورة غير عادية . وتحسنه يبـدو غير طبيعي ، ولكنه يفعل الآن وبملء رغبته وحريته ما لم نستطع أن نفعلـه له من قبل . ومع ذلك فما زال نغضب بسرعة ويجب أن لا يقال له شيء يزعجـه .

كان كل من ماري وكولن خائفين وتحدثا كثيراً بحذر . وقررا منذ ذلك الوقت أن يمثلا .

قال كولن متأسفاً « ربما اضطررت ان اتصنع نوبة غضب ولا أريد ذلك ، فأنا لست بائسا الآن لكي افتعل شيئاً كبيراً . وربما لا أستطيع افتعال ذلك إطلاقاً لانني لم اشعر بكتلة في حنجرتي الآن . وانا أفكر دائماً باشياء جميلة بدلا من الأشياء المرعبة . ولكنهم اذا قرروا الكتابة لوالدي ، فيجب ان افعل شيئاً ما . »

قرر كولن أن يأكل كمية طعام أقل ، ولكن لسوء الحظ لم يكن بالامكان تنفيذ تلك الفكرة الرائعة فعندما يستيقظ صباحاً كان يشعر بشهية مذهلة . والطاولة قرب اريكته وعليها طعام الافطار مع الخبز البيتي والزبدة الطازجة والبيض الابيض كالثلج ومربى توت السياج والقشدةوكانت ماريتتناول معهالافطار دوماً.وعندما يتواجد الاثنانعلى الطاولة ــ وخاصة إذا كانت هناك شرائح رقيقة من لحم الخنزيرالساخنة تنشر روائحها المغرية من تحت الغطاء الفضي ــ كانا ينظران الى بعضهما بشيء من اليأس ، حيث كان كولن ينهي حديثه :

اعتقد اننا يجب ان نأكله كله هذا الصباح يا ماري . ونستطيع ان نعيد بعضاً من طعام الغداء والكثير من طعام العشاء .

ولكنهما لم يتمكنا من اعادة أي شيء . فقد كانت الصحون الفارغة المصقولة جيداً التي تعاد حجرة إعدادها تثير الكثير من التعليقات .

وكان كولن يقول دوماً « كنت أتمنى لو أن شرائح لحم الخنزير كانت أسمك وقطعة واحدة من الفطائر ليست كافية لأي واحد ، فأجابت ماري عندما سمعت ذلك لأول مرة .

« إنها كافية لشخص سوف يموت ولكنها ليست كافية لشخص سيعيش . انني أشعر في بعض الاحيان وكأنني أستطيع أن آكل ثلاث فطائر عندما أتنسم رائحة الوزال والخليج من السبخة عبر النافذة .

في ذلك الصباح عندما ذهب ديكون ــ بعد أن استمتعوا في الحديقة حوالي الساعتين ــ الى خلف شجيرة الورد وأحضر إناءيين من القصدير

احدهما مليء بالحليب الطازج الغني بالقشدة ، والآخر فيه كعك حلو صنع في الكوخ وملفوف جيداً بمنديل نظيف ابيض وأزرق بحيث حافظت على حرارتها ، صار هناك هرج للمفاجأة السعيدة . وقالت ماري .

« كم هي رائعة السيدة ساورباي عندما فكرت بذلك ! وكم هي سيدة ماهرة ! يا لها من كعكات لذيذة ! وما الذ الحليب الطازج » .

قال كولن : إن السحر في داخلها مثل ديكون ، وهذا ما جعلها تفكر بطرق لصنع أشياء ــ وأشياء حلوة . انها امرأة سحرية . أخبرها با ديكون بأننا ممتنون لها ــ ممتنون كثيراً .

قال كولن معتاداً على استعمال عبارات فخمة أحياناً . وكان يستمتع بذلك ويحبها كثيراً وبالتالي فقد تحسن كثيراً في أدائها .

« اخبرها بأنها كانت كريمة جداً وامتناننا لا يوصف » .

بعد ذلك نسي كولن عظمته وبدأ بملأ معدته بالكعك وبشرب الحليب من الإناء مباشرة وبجرعات كبيرة وبالطريقة التي يتصرف بها أي صبي صغير جائع مارس التمارين الرياضية غير العادية وتنفس هواء السخة وكان قد تناول إفطاره قبل ساعتين .

كانت هذه الحادثة هي بداية لحوادث متعددة مقبولة من نفس النوع فقد تببه الاثنان فعلا الى أن السيدة ساورباي عليها أن تطعم أربعة عشر فرداً ، وربما لم يكن لديها ما يكفي لإطعام اثنين آخرين ولهذا فقد طلبا منها أن تسمح لهما بارسال بعض الشلنات التي بحوزتهما لشتري لهما بعض الطعام .

قام ديكون باكتشاف جذاب في الغابة الموجودة بالحديقة الكبيرة خارج الحديقة الصغيرة ، حيث رأته ماري أول مرة وهو يعزف على قيثارته للحيوانات البرية ، فقد وجد حفرة عميقة يمكن أن يبني فيها

فرناً صغيراً من الاحجار لشي الطاطا والبيض . وأما البيض المشوي فقد كان وسيلة رفاهية لم يعرفها من قبل ، والبطاطا الحارة جداً مع الملح والزبدة الطازجة مناسبة لملك الغابة — الى جانب كونهـا شهية وتشبع . وتستطيع أن تشتري ما تريد من البطاطا والبيض دون الشعور بأنك تأخذ الطعام من افواه الأربعة عشر فرداً .

في كل صباح جميل كان السحر يعمل ضمن حلقة الطقوس السرية تحت شجرة الخوخ — التي كانت تؤمن مظلة من الأوراق الخضـراء الثيفة بعد ان انتهت فترة إزهارها القصيرة . وبعـد الاحتفال كـان كولن يقوم بتمرينه اليومي على السير . كما كان يمارس خلال النهار وعلى فترات قواه التي اكتشفها مؤخرا . فكانت قوته تزداد يوماً بعد يوم وصار يستطيع المشي بصورة اكثر ثباتاً ويقطع مسافة اكبر . كما أن اعتقاده بالسحر كان يزداد فيكل يوم أيضاً وكانيقوم بالتجربة بعدالاخرى باعتباره كان يشعر باكتسابه القوة ؛ وكان ديكون هو الذي يطلعـه على أفضل الأشياء .

في صباح احد الأيام وبعد فترة غياب قال له ديكون . لقـد ذهبت الى ثوابت بناء على طلب أمي . ورايـت بالقرب مـن فنـدق البقـرة الزرقاء بوب هاوارث ، وهو أقوى رجل في السبخة . إنه بطل المصارعة ويستطيع القفز افضل من أي شاب وكذلك رمي الرمح . لقد ذهب منذ عدة سنوات الى سكوتلندا للمشاركة في الرياضة . وهو يعرفني منذ أن كنت صغيراً وصديق لي ، فسألته بعض الأسئلة . وقـد أعطته الطبقة الأرستقراطية لقب رياضي ، كما فكرت بك يا سيد كولن ، فسألته ، « كيف جعلات عضلاتك تكبر هكذا يا بوب ؟ هل تفعل شيئاً غير عادي كي تصبح قوياً » فأجابني « حسناً نعم أيها الفتى لقد علمني رجل قوي جاء الى ثوابت مرة مع فرقة عرض كيف أدرب ذراعي وساقي وكل عضلة من عضلات جسمي » فقلت له « هل يستطيع شاب ضعيف أن يجعل نفسه أقوى بهذه الطريقة يا بوب ؟ » فضحك وقال « هل أنت الشاب الضعيف ؟ فأجبته « لا ولكنني أعرف شاباً صغيراً بدأت صحته

تتحسن بعد مرض طويل ، واتمنى لو اعرف بعض الحيل بخصوص ذلك لكي اخبره » ولم اذكر له اسماء ولم يسألني هو ايضاً . إنه صديق كما قلت لك ، ثم وقف وقام ببعض التمارين وجربت ما كان يفعله حتى حفظت التمارين عن ظهر قلب .

كان كولن يستمع له وهو مضطرب . ثم صاح :

« هل تستطيع ان تريني ؟ هل هذا ممكن ؟ »

اجاب ديكون وهو يقف « نعم . بالتأكيد ، ولكنه قال بأنه يجب البدء بتمارين قليلة اولا ويجب الحذر من أن تجهد نفسك ؛ ولا بد من الراحة اثناء التمارين واخذ نفس عميق وعدم الاكثار من ذلك .

قال كولن « سأكون حذراً » ! دعني أرى ! دعني أرى يا ديكون ! فانت اكثر الفتيان سحراً في العالم .

وقف ديكون على العشب ثم بدا سلسلة من تمارين العضلات البسيطة والعميقة . وكان كولن يراقبه بعينيه الواسعتين . ويمارس القليل منها وهو جالس . ثم راح يمارس بعضاً منها بتمهل وقد وقف على قدميه الثابتتين . وبدأت ماري تمارسها أيضاً . أما سناج الذي كان يراقب الأداء فقد اضطرب وغادر الغصن الذي كان يقف عليه وبدا يقفز دون توقف لأنه لم يتمكن من أداء تلك التمارين هو أيضاً .

ومنذ ذلك اليوم أصبحت التمارين جزءاً من الواجبات ايومية مثلما كان السحر . حتى استطاع كل من كولن وماري أن يقوما بتمارين أكثر في كل محاولة ، وزادت شهيتهما لهذا السبب ، ولولا السلة التي كان ديكون يضعها كل صباح خلف الشجيرة لكان وضعهما سيئاً . ولكن الفرن الصغير في الحفرة وكرم السيدة ساورباي كانا أمران مرضيان مما ابقى السيدة ميدلوك والمربية والدكتور كريفن دون علم بما يحدث. فاذا كنت

تأكل البيض المشوي والبطاطا والحليب الطازج الدسم والكعك والعسل والقشدة حتى الطفح فلا بد أن تخفف افطارك وتترفع عن عشائك .

فقالت المربية : « إنهما لا يأكلان شيئاً تقريباً ، وسيموتان جوعاً اذا لم يجر اقناعهما بضرورة اخذ بعض الغذاء . ومع ذلك انظروا كيف كيف اصبحا .

تساءلت السيدة ميدلوك بسخط ، انظري ! لقد عجزت معهما لدرجة الموت . إنهما زوج من الشياطين فهما يلتهمان القشور اليوم وفي اليوم التالي يديران انفهما عن أشهى الوجبات التي يمكن أن تغريهما . فمثلا البارحة لم يأكلا لقمة واحدة من الفروج الصغير اللذيذ مع الخبز والصلصة مسكينة تلك المرأة التي قامت باختراع نوع من المهلبية لهما وعندما اعيدت كما هي ، كانت على وشك أن تبكي فهي تخاف أن تلام اذا جاع الاثنان لدرجة الموت .

ثم جاء الدكتور كريفن وراح يتأمل كولن بعناية ، وقد بدت على وجهه تعابير تدل على القلق عندما تحدثت معه المربية وعرضت عليه صينية طعام الافطار التي لم يمسها أحد والتي كانت قد احتفظت بها ليراها ــ ولكن قلقه ازداد عندما جلس الى جانب كولن على الأريكة وقام بفحصه . وكان السيد كريفن قد استدعي الى لندن من أجل العمل ولم ير مريضه منذ حوالي اسبوعين . فعندما يبدأ الصغار باكتساب الصحة فإنهم يكتسبونها بسرعة ، وقد بدأ اللون الشمعي يزول من بشرته ويحل محله اللون الزهري الدافىء ، وكانت عيناه الجميلتان صافيتين ، وقد بدأت الفراغات تحت عينيه وفي وجنتيه وصدغيه بالامتلاء . وخصل الشعر الكثيفة القاتمة بدأت تتعافى وترتفع عن جبينه وقد صارت ناعمة وممتلئة بالحياة . كما أن شفتيه امتلأتا وصار لونهما طبيعياً . وفي الواقع بما أنه كان يتصنع المرض فقد كان منظره مخزياً . أمسك الدكتور كريفن بذقنه وبدأ يفكر به . ثم قال :

« إنني آسف لسماعي انك لا تأكـل شيئاً ، وهذا لن يفيد لأنك ستخسر كل ما كسبته ـ لقد زاد وزنك بصورة مذهلة . وكنت تأكل بصورة جيدة قبل فترة » .

أجاب كولن « لقد قلت لك بأنها لم تكن شهية طبيعية » .

كانت ماري تجلس على كرسيها بالقرب منهما ، وفجأة اخرجت صوتاً غريباً جداً حاولت أن تكبحه بصورة عنيفة وانتهى الأمر بشهقة .

استدار الدكتور كريفن وقال « ماذا في الأمر » ؟

لقد أصبح سلوك ماري قاسياً تماماً ، فأجابت :

« إنها ما بين العطاس والسعال علقت في حنجرتي » ، وكانت تتكلم بلهجة تأنيب ووقار ، « ولم أستطع إيقافها . لقد انفجرت لانني تذكرت آخر حبة بطاطا كبيرة التي أكلتها وكيف أصبح فمك ، وكيف تطاول فمك عندما التهمت قطعة الكعك اللذيذة مع المربى والقشدة عليها » .

سأل الدكتور كريفن السيدة ميدلوك « هل هناك طريقة يستطيع من خلالها أن يحصل فيها هؤلاء الأطفال على الطعام بصورة سرية » ؟

أجابت السيدة ميدلوك « لا يوجد اية طريقة ما لم يكونوا يستخرجون من الأرض أو يقطعون من الشجر ، فهم يبقون في الخارج طوال اليوم ولا يرون أحداً سوى بعضهم البعض . وإذا كانوا بحاجة لشيء مختلف ليأكلونه فما عليهم سوى الطلب لإرساله لهم » .

قال الدكتور كريفن : « حسناً ، طالما أن بقاءهم من دون طعام يتفق معهم فيجب أن لا نزعجهم . فالصبي الآن أصبح مخلوقاً جديداً » .

اجابت السيدة ميدلوك « وكذلك البنت ، لقد بدأت تبدو جميلة تماماً بعد ان امتلأت وتخلت عن نظرتها البشعة الكريهة . لقد بدأ شعرها يصبح اكثر كثافة وصحة وصار لونه فاتحاً . وبينما كانت فتاة صغيرة كئيبة مشاكسة ، فقد أصبحت الآن هي والسيد كولن يضحكان معاً وكأنهما زوج مجانين صغيرين ، وربما كان كان وزنهما يزداد بسبب ذلك »

اجاب الدكتور كريفن « ربما كانا كذلك ، فلندعهما يضحكان » .

## ٢٥ ـ الستارة

استمرت الحديقة السرية تزهر وتزهر ، وتكشف كل صباح عن عجائب جديدة .

ففي عش أبي الحناء بيوض تحضنها زوجته لتبقى دافئة بصدرها الصغير الممتلىء بالريش وبأجنحتها ، في البداية كانت تبدو عصبية وكان أبو الحناء نفسه يشعر بالأرق . وحتى ديكون لم يكن يقترب كثيراً من تلك الزاوية في تلك الأيام ، ولكنه انتظر حيناً بغية أن ينقل الى روح الزوجين الصغيرين بأن كل ما في الحديقة يشبهما ـ ولا يوجد أحد إلا ويتفهم روعة ما يحدث لهما ـ الجمال الرقيق الرائع الذي ينفطر له القلب ووقار البيوض . ولو كان هناك شخص واحد في هذه الحديقة لا يعرف ضمناً . بأنه إذا سرقت بيضة أو ألحق بها اذى فإن العالم كله سيدور حوله ويتحطم وينتهي ـ واذا كان هناك شخص لا يشعر به ويتصرف وفقاً لذلك فلن تكون هناك سعادة حتى في هواء الربيع الذهبي . ولكن الجميع يعلمون ويشعرون بذلك ، وكذلك أبو الحناء وقرينته يعلمان بما يعلمه الجميع .

في بداية الأمر كان أبو الحناء يراقب ماري وكولن بقلق شديد . ولكنه كان يعلم ولسبب غامض أنه لا ضرورة لمراقبة ديكون . فمن النظرة الأولى التي ألقاها ، من عينه السوداء والتي تشبه الندى ، على ديكون عرف أنه ليس غريباً ، وأنه يشبه أبا الحناء ولكن من دون ريش أو منقار . فهو يستطيع أن يتكلم لغته ( وهي لغة مميزة تماماً ولا يمكن خلطها بلغات أخرى ) . والحديث من أبي الحناء الى أبي الحناء هو كأنك

تتحدث بالفرنسية الى رجل فرنسي . وقد كان ديكون يتحدث دوما تلك اللغة الى ابي الحناء نفسه بحيث لا تؤثر هذه اللغة السرية التي يستخدمها على اللغة التي يتحدث بها مع الانسان إطلاقا . لقد ظن أبو الحناء انه كان يتكلم تلك اللغة السرية لأنهما ليسا على درجة من الذكاء تكفي لكي يفهما لغة الطيور ، وكذلك كانت حركاته مثل حركات أبي الحناء . لم يقم أحد منهما بمفاجأة تشكل لهما خطراً أو تهديداً . ولكن اي طائر من طيور ابي الحناء كان يتفهم ديكون ، ولذلك فقد كان وجوده غير مزعج أيضاً .

ولكن من الضروري بادىء الامر مراقبة الاثنين الآخرين . ففي المرحلة الأولى كان ذلك الفتى لا يأتي الىالحديقة على رجليه . لقد كانوا يدفعونه على شيء ما له دواليب ومغطى بجلود بعض الحيوانات . وهذا الأمر بحد ذاته كله يثير الشك . وبعد ذلك عندما بدأ يقف ويتحرك ، كان يفعل ذلك بطريقة غريبة وغير معتادة ، وكان الآخرين كانوا يساعدونه . فقد كان أبو الحناء يختبىء في الشجيرة ويراقب بقلق ورأسه يتحرك من طرف الى طرف . كان يظن أن الحركات البطيئة يمكن أن تعني أنه يتهيأ للانقضاض كما تفعل القطط ، فعندما تتهيأ القطط للانقضاض تزحف على الأرض ببطء شديد . وقد تحدث أبو الحناء بهذا الخصوص كثيراً قبل أيام قليلة ، ولكن بعد ذلك قرر عدم التحدث بهذا الموضوع لأن خوفه كان عظيماً لدرجة أنه يمكن أن يؤذي البيض .

وعندما صار الفتى يمشي وحده ويتحرك بصورة أسرع كان هناك ارتياح كبير . ولكنه ظل لفترة طويلة مصدراً للقلق — أو على الأقل بدت أنها طويلة لأبي الحناء — فهو لا يتصرف مثل بقية الناس ، ويبدو أنه مولع بالمشي ، ولكن له طريقته بالجلوس والاستلقاء ثم الوقوف بصورة مرتبكة ليبدأ من جديد .

وفي أحد الأيام تذكر أبو الحناء أنه عندما كان هو نفسه يتعلم الطيران من أبويه كان يفعل نفس الشيء ، لقد كان يطير بضعة أذرع ثم

يجبر على الاستراحة . وهكذا خطر له أن هذا الفتى يتعلم الطيران ــ أو بالأحرى المشي . وسرد ذلك لزوجته وعندما اخبرها أن البيض ربما يسلك نفس الطريق بعد أن يفقس ارتاحت . بل غمرتها السعادة وهي تراقب الفتى من طرف العش ــ رغم أنها كانت تفكر أن البيض سيكون اكثر مهارة وسيتعلم بصورة اسرع . ولكنها قالت بعد ذلك بتسامح ان الانسان كان على الدوام اقل براعة وابطأ من البيوض . فلا يمكنك ان تراه في الهواء او على رؤوس الاشجار .

وبعد فترة بدأ الفتى يتجول كما كان يفعل الاخرون ، ولكن الاطفال الثلاثة كانوا يقومون بأشياء غريبة . لقد كانوا يقفون تحت الاشجار ويحركون اذرعهم وأرجلهم ورؤوسهم بطريقة ليست مشياً ولا ركضاً ولا حتى جلوساً . لقد كانوا يقومون بتلك الحركات خلال فترات محددة كل يوم . ولم يستطع أبو الحناء تفسير ذلك لزوجته وماذا يفعلون او يحاولون أن يفعلوا . كل ما استطاع قوله هو انه على يقين من أن البيوض لن تقذف بهذه الطريقة ، ولكن بما ان الفتى الذي يستطيع التحدث مثل أبي الحناء بطلاقة كان يفعل الشيء نفسه معهم ، فانهما يستطيعان التأكد من أنه لا يوجد شيء ذو طبيعة خطرة . وبالطبع لم يسمع أبو الحناء أو زوجته . لا باسم بطل الملاكمة بوب هاوارث وتمارينه لجعل العضلات مثل الكتل . فطيور ابي الحناء ليست كالانسان وعضلاتها في تمرين دائم منذ البداية ، وبالتالي فهي تطور نفسها بصورة طبيعية . فاذا كان عليك الطيران للبحث عن كل وجبة تأكلها فان عضلاتك لن تضمر . وعندما بدأ الفتى يمشي ويركض ويحفر ويعشب مثل الاخرين كان العش الموجود في الزاوية ينعم بسلام وأمن كبيرين والخوف على البيض أصبح أمرا منسيا . واذا كانت البيوض في مأمن وكأنها في خزينة المصرف ، فان الحقيقة بانك تستطيع مراقبة اشياء كثيرة مثيرة تجعل الجلوس أفضل مهمة للتسلية .

وحتى في الايام الممطرة لا يمكن القول بأن ماري وكولن كانا يشعران بالملل . ففي أحد الايام التي كان فيها المطر ينهمر بغزارة ودون توقف

وقد بدا كولن يشعر بالارتياح قليلا باعتبار انه كان مجبرا على البقاء فوق اريكته لان الخروج والمشي لم يكن أمرا مأمونا في ذلك اليوم . فنزل وحي على ماري :

قال كولن « بما أنني الان فتى حقيقي وساقاي وذراعاي وكل جسمي مليء بالسحر بحيث لا أستطيع تركها دون حراك وهي بحاجة الى الحركة الدائمة طوال الوقت . فهل تعلمين يا ماري أنني عندما استيقظت هذا الصباح في وقت مبكر تماما ، وقد بدات الطيور تغرد في الخارج . وكل شيء يبدو انه يغرد فرحاً — وحتى الاشجار والاشياء التي لا نستطيع أن نسمعها بالفعل — فشعرت وكأنني يجب أن أقفز من السرير واصيح بنفسي . ولو فعلت ذلك ، تصوري فقط ماذا يمكن أن يحدث ! »

ضحكت ماري بصوت مرتفع وقالت :

« ستأتي المربية وهي تركض وكذلك السيدة ميدلوك ستركض وستكونان على يقين أنك قد فقدت عقلك وسيرسلون في طلب الطبيب .

ضمن كولن نفسه . لقد استطاع أن يتخيل كيف سيكون الجميع وكم سيخافون بسبب صياحه وكم سيندهشون لرؤيته وهو يقف مستقيماً .

قال كولن « أتمنى لو يأتي أبي الى البيت ، لاني أريد أن أخبره بنفسي ، فأنا أفكر بذلك على الدوام — لاننا لا نستطيع الاستمرار بذلك فترة أطول . فلم أعد أحتمل الاستلقاء والتظاهر ، بالاضافة الى ذلك فقد صرت مختلفا وكنت أتمنى لو لم تكن تمطر اليوم .

في تلك اللحظة جاء الوحي الى ماري فقالت بصورة غامضة .

« هل تعرف يا كولن عدد الغرف الموجودة هناك في البيت ؟

اجابها « اعتقد حوالي الالف غرفة » .

قالت ماري « هناك حوالي مائة غرفة لا يدخلها احد . وفي احد الأيام الممطرة ذهبت وشاهدت العديد منها ولم يعرف احد بذلك ، رغم أن السيدة ميدلوك وجدتني تقريبا خارج غرفتي . فقد اضعت الطريق اثناء العودة وتوقفت في نهاية الممر . وكانت تلك المرة الثانية التي اسمع فيها بكاءك .

وقف كولن على اريكته وقال :

« مائة غرفة لا يدخلها احد ، ان هذا الامر يبدو مثل الحديقة السرية تصوري أن نذهب ونراها . فأنت تستطيعين دفع الكرسي . ولن يعرف أحد أين ذهبنا .

قالت ماري « هذا ما كنت افكر به » ولن يتجرأ احد أن يتبعنا ، وهناك أروقة تستطيع أن تركض فيها . ويمكننا اجراء تمارينا . كما توجد غرفة صغيرة فيها خزانة مليئة بالفيلة المصنوعة من العاج . وهناك ايضا غرف من كل الانواع » .

قال كولن « اقرعي الجرس » .

وعندما دخلت المربية أعطى كولن اوامره فقال :

« أريد الكرسي الدوار ، ستذهب الانسة ماري وأنا لنرى القسم الذي لا يستخدم من البيت . وسيقوم جون بدفع الكرسي حتى الرواق ذي اللوحة لان هناك بعض الدرجات . وبعد ذلك عليه أن يذهب ويتركنا وحدنا لحين أرسل في طلبه ثانية .

لقد بددت الايام الممطرة خوفهما في ذلك الصباح . فعندما راح الخادم يدفع الكرسي الى رواق اللوحات ثم تركهما وحدهما تنفيذاً

للاوامر . نظر كل من كولن وماري الـى بعضهما مبتهجين . وعندمـا تأكدت ماري ان جون قد سار في طريق عودته الى قواعده في الطابـق الاسفل ، نزل كولن من على الكرسي . وقال :

« سأبدأ الركض من أول الرواق الى اخره . وبعد ذلك سأقفـز . ثم نقوم باجراء تمارين بوب هاوارث .

نفذ الاثنان كل هذا وغير ذلك من الاعمال . وراحا ينظران الـى اللوحات حيث وجدا تلك الفتاة الصغيرة البشعة التي ترتدي الثـوب المطرز الاخضر وتحمل الببغاء على اصبعها .

وقال كولن : « كل هؤلاء يجب أن يكونوا اقربائي . لقد عاشـوا هنا منذ زمن بعيد . وهذا الببغاء الاول أعتقد انه كان لجدود عماتي. انها تشبهك يا ماري — ولكن ليس كما أنت عليه الان ؛ ولكن كما كنت عندما أتيت الى هنا ، أما الان فأنت أكثر امتلاء وأجمل » .

أجابت ماري « وكذلك أنت » . ثم ضحك الاثنان .

وبعدها ذهبا الى الغرفة الهندية ولعبا بالفيلة العاجية . ووجـدا غرفة الملابس الملونة بألوان الورد ، والحفرة التي تركها الفأر فيالوسادة ولكن الفئران الصغيرة كانت قد كبرت وذهبت بعيدا وبقيت الحفـرة فارغة . ثم شاهدا غرفاً اخرى واكتشفا اشياء اخرى غير التي وجدتها ماري أثناء جولتها الاولى . لقد وجدا ممرات وزوايا جديدة ، وسلالم ودرجات ولوحات قديمة أخرى أحباها وأشياء قديمة تالفة لم يعرفـا استعمالاتها . لقد كان صباحا ممتعا بصورة غريبة ، ان الشعوربالتجول بمكان موجود بنفس البيت ، ولكن بنفس الوقت وكأنك على بعد أميال من الناس الموجودين معك كان شعوراً رائعاً .

قال كولن : « إنني سعيد لانني اتيت ، لم اكن ادري انني اعيش في مثل هـذا البيت القديم الكبير والقريب . سنتجول فيه في الأيـام المطرة . وسنجد على الدوام زوايا واشياء جديدة وغريبة .

في صباح ذلك اليوم كان مـن أهم الأشياء التـي اكتشفاها عندمـا عادا الى غرفـة كولن هي شهيتهما الكبيرة ولم يكن ممكناً إعـادة الغداء دون مساسه .

وعندما حملت المربية الصينية لتعيدها الى الدور الأسفل رمت بها فوق خزانة الصحون في المطبخ حتى يرى كل من السيدة لوميس والطباخ الأطباق والصحون اللامعة ، ثم قالت :

« انظر الى هذا ! فهذا بيت الألغاز ، وهذان الطفلان هما اكبر لغزين فيه » .

قال كبير الخدم جون الشاب : « إذا استمرا هكذا كل يوم فليس من المستغرب أن يتضاعف وزنه مرتين عما هو عليه الآن ، وكما حدث له منذ شـهر مضى . ومـع مرور الزمن يجب أن اتخلى عن مكاني لأني أخشى أن تصاب عضلاتي بأذى » .

وبعد ظهر ذلك اليوم لاحظت ماري أن شيئاً غريباً قد حدث في غرفة كولن . وقد لاحظت ذلك في اليوم السابق ولكنها لم تقل شيئاً لأنها اعتقدت أن التغيير قد تم بمحض الصدفة . وكذلك لم تقل شيئاً اليوم ولكنها جلست ونظرهـا مثبت على اللوحة فوق رف الموقـد ، واستطاعت أن تنظر إليها لأن الستارة كانت قد أزيحت عن لوحة أمه جانباً . وهذا هو التغيير الذي لاحظته .

وبعد أن حدقت لبضع دقائق قـال كولن : « إنني أعرف مـاذا تريدين أن أخبرك ، إنني اعرف دائماً عندما تريدين أن أخبرك شيئاً ما . إنك تفكرين لماذا رفعت الستارة . وسأتركها بهذا الشكل .

سألت ماري « لماذا ؟ » .

أجاب كولن : « لأن ذلك لن يغضبني بعد الآن فهي تضحك . لقد استيقظت منذ ليلتين عندما كان ضوء القمر يسطع ، وشعرت وكأن السحر يملأ الغرفة وكل شيء رائع وبالتالي لم أستطع البقاء في السرير . فنهضت ونظرت من النافذة . كانت الغرفة مليئة بالنور وكان هناك مسحة من ضوء القمر على الستارة . وهذا ما دعاني لأن أذهب وأسحب الشريط . فنظرت الي من أعلى وكأنها كانت تضحك لأنها سعيدة لوقوفي هناك مما جعلني أرغب بالنظر إليها . أريد أن أراها تضحك بهذه الطريقة طوال الوقت . واعتقد ربما كانت إنسانية سحرية » .

قالت ماري : « إنك تشبهها كثيراً حتى أنني أفكر أحياناً انك خيالها على هيئة فتى » .

ويبدو أن تلك الفكرة قد أعجبت كولن فأخذ يفكر بها ثم أجاب ببطء :

« لو كنت خيالها ـ فإن أبي سيحبني كثيراً » .

سألت ماري : « وهل تريده أن يحبك ؟ » .

« لقد كنت أكرهها لأن لم يكن مولعاً بي . ولكن إذا أولع بي أعتقد بأنني سأخبره عن السحر . وهذا يمكن أن يجعله أكثر إشراقاً » .

# ٢٦ ـ إنهـا امـي

كان إيمانهما بالسحر شيئا ثابتا . فبعد تعويذة الصباح كان كولن يلقي عليهما المحاضرات أحياناً .

« أحب أن أفعل ذلك لأنني عندما سأكبر وأقوم باكتشافات علمية عظيمة ، فسأكون ملزماً بإلقاء المحاضرات حولها وبالتالي فهذا تمرين لي . إنني استطيع أن القي محاضرات قصيرة الآن لأنني مازلت صغيراً جداً ، بالإضافة الى أن بن ويذرستاف سيشعر وكأنه في كنيسة وبالتالي سينام » .

أجاب بن : « إن أفضل شيء من إلقاء المحاضرات هو أن الشخص يستطيع أن يقف ويقول ما يشاء دون أن يجيبه أحد . وأنا نفسي أحب أن أحاضر قليلاً أحياناً » .

ولكن عندما بدأ كولن يحاضر تحت شجرته قام بن العجوز بتثبيت عينيه المفترستين عليه تماماً . وراح ينظر إليه نظرة انتقاد ومحبة . ولم تكن المحاضرة هي التي تهمه بقدر تلك الساقين المستقيمتين واللتين تزداد قوتهما يوماً بعد يوم ، وكذلك رأسه الصغير المرفوع تماماً ، وذقنه الحادة ووجنتاه الفارغتان واللتان امتلأتا الآن ، والعينان اللتان بدا يظهر فيهما ذلك النور الذي يذكره بعينين أخريين . وعندما كان كولن يشعر أحياناً ما تعنيه نظرة بن كانت ثقته تزداد بنفسه ويتساءل بماذا يفكر بن ، وفي إحدى المرات التي تأثر بها سأله :

« بماذا تفكر يا بن ويذرستاف ؟ »

فأجاب : « لقد كنت أفكر واستطيع المراهنة أن وزنك قد ازداد هذا الأسبوع ثلاثة أو أربعة أرطال فقــد كنت انظر الى صدغيك وكتفيك واتمنى لو انك تقف على الميزان . »

قال كولن : « إنه السحر والكعك والحليب وأشياء أخرى ترسلها السيدة ساورباي . وكما ترى فإن التجربة العلمية قد نجحت . »

في ذلك الصباح تأخر ديكون عن حضور المحاضرة كثيراً . وعندما جاء كان كولن متورداً بسبب الركض ، وكان وجهه المضحك يبدو اكثر إشراقاً من عادته. وبما انه كان لديهم الكثير من أعمال التعشيب بعدهطول المطر ، فقد انهمكوا في عملهم . لقد كان عليهم أن يعملوا كثيراً بعد تغلغل الأمطــار الدافئــة ، فالرطوبة التي تفيد الأزهــار كانت مفيدة أيضــاً للأعشاب الضارة التي خرجت منها أعشاب صغيرة حادة ورؤوس أوراق يجب اقتلاعها قبل أن تتمكن جذورها في التربة . وقد أصبح كولن ماهراً في اقتلاعها مثل أي شخص آخر ويستطيع أن يحاضر وهو يقوم بهــذا العمل . فقد قال هذا الصباح : « إن السحر يعمل بصورة أفضل عندما تعمل وحدك ، وتستطيع أن تشعر به في عظامك وعضلاتك . وســأقوم بقراءة الكتب عن العظام والعضلات . ولكنني سأكتب كتاباً عن السحر . والآن أفكر بهذا الكتاب وسأستمر باكتشاف الأشياء . »

وبعد أن قال ذلك بوقت قصير رمى كولن بالمالج ووقف على قدميه . وسكت لعدة دقائق ولاحظ الجميع أنه كان يفكر بمحاضرة كعادته دوماً . وعندما وقف منتصباً فقد بدا لكل من ماري وديكون وكأن فكرة مفاجئة وقوية جعلته يفعل ذلك ، فقــد تطاول لأقصى ارتفــاع يستطيعه ورمى بذراعيه بسرور . وكان وجهــه يشع حمرة وعينيه الغريبتان ممتلئتــان بالسعادة . ففي لحظة واحدة أدرك شيئاً ما بصورة كاملة فصرخ :

« ماري ! ديكون ! انظرا إلي فقط ! »

توقف الاثنان عن التعشيب ونظرا إليه .

سأل كولن : « هل تذكران صباح أول يوم أتيت بي الى هنا ؟ »

كان ديكون ينظر إليه بتمحيص . وبما انـه كان ساحراً للحيوانات فقد كان يستطيع رؤية الأشياء اكثر مما يراها معظم الناس . والكثير من هذه الأشياء لم يتحدث عنها أبداً . وقد راى بعضاً منها الآن في هذا الفتى .

فأجابه : « نعم ، لقد فعلنا هذا . »

وكذلك ماري نظرت إليه بتفحص ولكنها لم تقل شيئاً .

قال كولن : « في هذه اللحظة فقط تذكرت كل شيء بنفسي ــ عندما نظرت الى يدي وهي تحفر ــ وكان يجب ان أقف على قدمي لأرى إن كان هذا واقعاً ، وقد كان واقعاً ! إنني بصحة جيدة ــ إنني بصحة جيدة ! »

قال ديكون : « نعم انت بصحة جيدة . »

قال كولن ثانية : « إنني بصحة جيدة ! » ثم اصبح وجهه كـله أحمراً . لقد عرف ذلك من قبل بطريقة ما ، وكان يأمل ويشعر ويفكر بذلك ، ولكن في تلك اللحظة اندفع شيء ما فيه كله ــ إنه نوع من الاعتقاد والادراك المبهجين . ولقد كان قويا بحيث لم يستطع إبعاده .

وصاح بصورة متعالية : « سأعيش الى الأبد ، الى الأبد . الى الأبـد وسأكتشف الآلاف وآلاف مـن الأشـياء ، وسـأكتشف الناس والمخلوقات وكل شيء ينمو ــ مثل ديكون ــ ولن أتوقف عن عمل السحر . إنني بصحة جيدة ! إنني بصحة جيدة ! إنني أشعر ــ أشعر وكأنني أريد أن أصرخ شيئاً ــ شيئاً أعبر به عن الشكر والسعادة ! »

نظر بن ويذرستاف ، الذي كان يعمل بالقرب من شجيرة الورد ، حولـه ، ثم اقترح عليـه بطريقته الجافـة ، تستطيع أن تغني ترتيلة شكر لله » . ولم يكن لدى بن فكرة عن . الترتيل ، ولم يقدم اقتراحه هذا بأي نوع من الاحترام .

أما كولن فقد كان ذا عقل مكتشف ، ولا يعرف شيئاً عـن الترتيل . فسأله : « ما هذا ؟ »

اجاب بن ويذرستاف : « انا اراهن أن ديكون يستطيع أن يغنيها لك . »

اجاب ديكون بضحكته المتفهمة الساخرة : « إنهم يغنوها في الكنيسة . وتقول امي أن القبرات تغنيها أيضاً عندما تستيقظ في الصباح . »

اجاب كولن : « إذا قالت أمك ذلك فهذا يعني أنها أغنية جميلة . فأنا لم اذهب الى الكنيسة أبداً . لقد كنت مريضاً دائماً ! قل هذه الترتيلة يا ديكون . أريد أن أسمعها . »

كان ديكون بسيطاً جداً ولا يتصنع أبداً بهذه الأمور . لقد فهم ما كان يشعر به كولن أكثر مما يفهم كولن نفسه . كان يفهم بشيء من الغريزة الطبيعية تماماً دون أن يدري ذلك ، فانتزع قبعته من على رأسه ونظر حوله وهو يضحك ووجه الكلام الى كولن : « يجب أن تنتزع قبعتك ، وكذلك أنت يا بن ، وعليك أن تقف كما تعلم . » انتزع كولن قبعته وسطعت الشمس لتدفيء شعره الكثيف وهو يراقب ديكون باهتمام . وتسلق بن ويذرستاف على ركبتيه الى الأعلى وانتزع قبعته أيضاً ؛ وعلى وجهه العجوز نظرة حيرة وبعض الامتعاض وكأنه لا يعرف تماماً لماذا يفعل هذا الشيء غير العادي .

وقف ديكون بين الأشجار وشجيرات الورد وبدأ يغني بطريقة بسيطة وواقعية وبصوت فتى قوي وجميل :

**سبحوا اسم الرب مباركاً من الآن والى الأبد**
**يا سامع الصلوات إليك يأتي كل البشر**
**سبحوا الرب العالي فوق السموات مجده**
**سبحوا الآب والابن والروح القدس . آمين**

وعنــدما انتهى ديكون . كان بن ويدرستاف يقف ساكنــاً تماماً وفكاه مطبقان ولكن نظرته المضطربة كانت متجهة نحو كولن . وكان وجه كولن مستغرقا بالتفكير ومعجباً جداً . ثم قال : « إنها اغنية جميلة جداً. لقد أحببتها ؛ وربما كانت تعني ما كنت أعنيه تماماً عندما صرخت أنني شاكر للسحر . » ثم توقف وراح يفكر بطريقــة محيرة . « ربمــا كان الشيئان هما نفسهما . فكيف نستطيع معرفة أسماء الأشياء تماماً ؟ غنِّ ثانية يا ديكون . ولنحاول . ماري أريد أن اغنيها انا أيضاً . إنهــا اغنيتي .

ما هي بدايتها ؟ سبحوا اسم الرب مباركاً من الآن والى الأ بد ؟ »

تم بدأوا يغنوها ثانية ، وقــد رفع كل مــن كولن وماري صوتهما بنغمة موسيقية وبالقدر الذي يستطيعون ، وراح ديكون يغرد عاليــاً وبصورة جميلة ــ وعند السطر الثاني أخذ بن ويدرستاف يتأكد من صفاء صوته ، ثم اشترك معهم عند السطر الثالث بطريقــة متوحشة . وعندما وصلوا الى كلمة « آمين » في النهايــة لاحظت ماري بأن الشيء نفسه قد حدث له عندما وجد أن كولن لم يكن أحدباً ــ كانت ذقنــه ترتعش ، وهو يحدق ويغمز بعينيه وخداه العجوزان مبللتان .

فقال بصوت خشن : « ما كنت أرى أي معنى لهذه الترتيلة من قبل ولكني ربما غيرت رأيي في هذه المرة . ولا بــد من القول أن هــذا سيزيد وزنك خمسة أرطال هذا الأسبوع يا سيد كولن ــ وخمسة اخرى فوقها! رأى كولــن عبر الحديقــة شيئاً جذب انتباهــه فأصبحت تعابيره فيها شيء من الخوف . وقال بسرعة « من القادم الى هنا ؟ من هو ؟ »

لقد اندفع الباب الموجود في جــدار اللبلاب بلطف ودخلت امرأة . كان دخولها عند آخر بيت من الترتيلة فوقفت دون حراك تستمع وتنظر إليهم . كان اللبلاب خلفها وضوء الشمس يتسرب مــن بين الأشــجار وترقط ثوبها الأزرق الطويل ، وكان وجهها الجميل المنتعش يبتسم عبر خضرة الحديقة ، إنها مثل لوحة ملونة بنعومة في أحد كتب كولن . لقــد

كانت لها عينان مليئتان بالحب وكأنها ستحتضن كل شيء ـ كلهم وحتى بن ديذرستاف والحيوانات وكل زهرة مزهرة . ورغم ظهورها بصورة غير متوقعة إلا أنه لم يشعر أحد منهم بأنها دخيلة إطلاقاً . لقد كانت عينا ديكون تشعان كالمصباح فصاح :

« إنها أمي ـ هذه هي ! » ثم ركض نحوها فوق العشب وذهبت معه ماري . وقد شعر كلاهما بنبضهما يزداد سرعة .

قال ديكون ثانية : « إنها أمي ! » وعندما التقوا في منتصف الطريق قال : « انا أعرف انك ترغبين في رؤيتها . ولقد اخبرتها عن مكان الباب المختبيء » .

مد كولن يده بشيء من الخجل الملكي ولكن عينيه كانتا تفترسان وجههـا .

فقال لها : « حتى عندما كنت مريضاً كنت أرغب في رؤيتك أنت وديكون والحديقة السرية . لم اكن أرغب برؤية أحد أو أي شيء قبلكم ».

إن رؤية الوجه المرفوع قد أدى الى تغير مفاجيء في وجهها . فاحمر وجهها واهتزت زوايا فمها وكأن غشاوة غطت عينيها .

ثم انفجرت وهي ترتعش : « حسناً ! أيها الفتى العزيز ! » وكأنها لم تكن تدرك أنها ستقول ذلك . فهي لم تقل « السيد كولن »، بل «الفتى العزيز » وفجأة . كان من الممكن أن تقول ذلك الى ديكون وبنفس الطريقة فيما لو رأت شيئاً في وجهه يهزها . وقد أحب كولن ذلك .

وسألها : « هل انت مندهشة لأنني بصحة جيدة ؟ »

وضعت يدها على كتفه وابتسمت وقد زالت الغشاوة من على عينيها . ثم قالت :

« حسناً ! ها أنا ، أما أنت فإنك تشبه أمك وهذا الذي جعل قلبي يقفز » .

قال كولن وهو محرج قليلاً : « هل تعتقدين ان هـذا سيجعل ابي يحبنـي ؟ »

اجابته وهي تربت على كتفه برقة وسرعة :« نعم بالتأكيد أيها الفتى. لا بد أن يعود الى البيت ، لا بد أن يعود الى البيت » .

قال بن ويذرستاف وهـو يقترب منهـا : «سوزان ساورباي . انظري الى رجلي الفتى من فضلك ؟ لقـد كانتا مثـل عصا الطبل منـذ شهرين . ولقد سمعت سكان البيت يقولون أنهمـا مقوستين وملتويتين معاً . انظري إليهما الآن » .

ضحكت سوزان ساورباي ضحكة مريحة وقالت :

« ستصبحان رجلا فتى قوي بعد قليل . دعه يذهب ليلعب ويعمل في الحديقة ويأكل من قلبه ويشرب الكثير من الحليب المحلـى الجيـد . وبعدها لن يكون هناك رجلان أجمل منهما في يوركشساير بفضل الله » .

ثم وضعت كلتا يديها على كتفي ماري ونظرت الى وجهها الصـغير وكأنها أمها . ثم قالت :

« وأنت لقد كبرت وتحسنت صحتك مثل إليزابيت إيلين . وانني أراهن بأنك تشبهين أمك ايضاً . لقـد أخبرتني مارثـا كما سمعت مـن السيدة ميدلوك أنها كانت امـرأة جميلة . وعندمـا تكبرين ستصبحين كالوردة الحمراء يا صغيرتي ، حماك الله » .

ولم تذكر لها عندما عادت مارثا الى بيتها في يوم إجازتهـا وكيف وصفتها بالطفلة البشعة الشاحبة ، كما قالت بأنهـا لا تثق إطلاقاً بمـا سمعته السيدة ميدلوك وهي تقول : « فليس من المعقول ان امراة جميلة يمكن أن تكون أماً لمثل تلك الطفلة المجنونة » .

لم يكن لدى ماري الوقت الكافي لكي تنتبه الى تغيرات وجهها . كل ما عرفته أنها كانت مختلفة ويبدو أن شعرها صار كثيفاً وينمو بسرعة . ولكن عندما تذكرت زوجـة الموظف البريطاني في الهنـد سابقاً شـعرت بالسعادة لسماعها أنها ربما ستشبهها يوماً ما .

مشت سوزان ساورباي حول الحديقة معهم وأخبروها القصة كلها وشاهدت كل شجيرة وشجرة استعادت الحياة . وكان كولن يمشي من طرف وماري من الطرف الآخر . وكلاهمـا ينظران إليهـا بوجه وردي ومرتاح . وهمـا يشعران ضـمناً بالفضول لشعورهما بالارتيـاح الذي منحتهما إياه السيدة ساورباي . لقد كان شعوراً دافئاً ومدعوماً . ويبدو انها قد فهمتهم كما فهم ديكون « مخلوقاته » . ثم انحنت فوق الأزهـار واخذت تتحدث معها وكأنها أطفال صغار . ثم تبعها سـناج وراح ينادي مرة أو مرتين لها ثم طار فوق كتفها وكأنه كتف ديكون . وعندما اخبروها عن أبي الحناء وكيف يعلم صغاره الطيران اخذت تضحك وفي حنجرتهـا ضحكة الأم الرخيمة ، وقالت :

« أعتقد أن تعليمهم الطـيران يشبه تعليم الاطفـال المشي . ولكنني لا احب أن يكون لي جناحان بدلاً من الرجلين » .

ولانها كانت امراة رائعة على طريقتها الخاصة في كوخهـا والسبخة فقد اخبروها عن السحر . فبعد ان قام كولن بالشرح عن فقراء الهنود ، قال لها : « هل تؤمنين بالسحر ؟ واتمنى لو تؤمنين بذلك » .

اجابت : « نعم أيها الفتى ، ما كنت لأعرف السحر بهذا الاسـم . ولكن ماذا يهم الاسـم ؟ واعتقد أنهم يسمونه اسماً آخر في فرنسـا وغيره في المانيا . ولكنه هو الشيء نفسه الذي يجعل البذور تنتفخ ، والشمس تشرق وهو الذي جعلك فتى أفضل ؛ فهو الشيء الجيد . فالسحر ليس مثلنا نحـن المجانين المساكين حيث ننزعج إذا لم ينادينا أحـد باسمنا . والشيء العظيم النبيل لا يتوقف عند الأمور الصغيرة ، بل يستمر في صنع هذا العالم ــ مثلنا . لا نتوقف عن الاعتقاد بالشيء العظيم فالعالم يمتلىء به ــ ولتسمه ما تشاء . لقد كنتم تغنون له عندما دخلت هذه الحديقة» .

قال كولن وهو يفتح عينيه الجميلتين والغريبتين : « لقد شـعرت بالسعادة ، شعرت فجأة كم أنا مختلف ــ وكم هي أقوى ذراعاي وساقاي ــ وكيف أستطيع أن أحفر وأقف وأقفز الى الأعلى وأريـد أن أنادي لأي شيء يمكن أن يسمعني » .

تابعت السيدة ساورباي :

« لقد سمع السحر عندما غنيتم الترتيلة . فهو سيسمع اي شيء تغنيه . إن ما يهم هو السعادة . حسناً ! ايها الفتى ــ لا تهم أسماء صانع السعادة » . ثم أخذت تربت على كتفيه ثانية بنعومة وسرعة .

كانت سوزان ساورباي قد جلبت معها سلة مليئة بطعام خاص هذا الصباح، وعندما حانت ساعة الجوع احضرها ديكون من مخبئها، فجلست معهم على الأرض تحت الشجرة وأخذت تراقبهم وهم يتناولون طعامهم ويضحكون وهي مسرورة لشهيتهم . كانت روحها مرحة وقد جعلتهم يضحكون بسماعهم كل انواع الحكايات الغريبة ، وراحت تحكي لهم القصص بلهجة يوركشاير العريضة كما علمتهم كلمات جديدة . ولم تستطع التوقف عن الضحك عندما أخبروهاعن صعوباتهم المتزايدة في إظهار أن كولن لا يزال مريضاً جداً .

أوضح كولن : « كما ترين ، فعندما نكون معاً فإننا لا نمتلك منع انفسنا عن الضحك كل الوقت تقريباً ، وهذا ليس سيئاً ابداً . نحاول كبح الضحك ولكننا ننفجر وهذا اسوأ شيء » .

قالت ماري : « إن شيئاً واحداً يخطر لي دوماً ونادراً ما استطيع ابعاده عندما أفكر به فجأة ، فأنا أفكر دوماً لنفترض أن وجه كولن أصبح مستديراً كالقمر عندما يكون بدراً ، فهو الآن ليس كذلك ، ولكنه يزداد امتلاءً كل يوم ــ ولكن لنفترض أنه في صباح أحد الأيام صار هكذا ــ ماذا سنفعل » ؟

قالت سوزان ساورباي : « باركنا الله ، كل ما أراه أنكم تجيدون التمثيل ، ولكن لن يستمر وطيلاً لأن السيد كريفن سيعود الى البيت » .

سأل كولن : « هل تعتقدين انه سيعود ؟ لماذا ؟ »

أجابت : « إذا علم بذلك قبل أن تخبره أنت بطريقتك فلن ينزعج . بينما أنت تخطط لذلك منذ مدة » .

قال كولن : « لن احتمل ان يخبره أحد إنني افكر كل يـوم بطرق مختلفة ، والآن يخطر لي انني اريد فقط أن اركض الى غرفته » .

قالت سوزان ساورباي : « ستكون تلك بداية جيدة له . وأود أن ارى وجهه عندئذ ايها الفتى . اود ذلك ! يجب أن يعود ـ نعم يجب .» .

وكان من بين الأشياء التـي تحدثوا عنها هـي زيارتهما للكـوخ . فوضعوا خطة كاملة لها . كان عليهما ان يذهبا عبر السبخة ويتناولا طعام الغداء في الهواء الطلق بين الخلنج . ثـم يشـاهدا الأطفال الاثني عشر وحديقة ديكون ولن يعودا حتى يشعرا بالتعب .

وأخيراً نهضت سوزان ساورباي لتعود الى البيت لتـرى السيدة ميدلوك .كما حان الوقت لكي يعود كولن على الكرسي الدوار . ولكنه قبل ان يجلس على الكرسي وقف بالقرب من سوزان وثبت عينيه عليها بشيء من الهيام المحير . وفجأة امسك بطرف عباءتها الزرقاء بشدة وقال :

« انت تماماً مثل ـ مثل ما أريد ، وأتمنى لو أنك أمي ـ كمـا انت أم ديكون ! » .

وبنفس اللحظة انحنت سوزان ساورباي وضـمته بذراعيها الـى صدرها تحت عباءتها الزرقاء وكأنه أخو ديكون . ثم انهمرت نقاط سريعة من عينيها وقالت :

« آه . أيها الصبي العزيز ؛ أعتقد أن أمك موجودة في هذه الحديقة بالذات . فلم تكن تستطيع مغادرتها . ويجب أن يعود أبوك إليك ـ يجب أن يعود » .

# ٢٧ ــ في الحديقة

منذ بداية العالم ، وفي كل قرن من القرون الماضية اكتشفت أشياء رائعة . ففي القرن الماضي وجدت أشياء مذهلة أكثر من من أي قرن سبق . أما في القرن الحالي فهناك مئات الأشياء المذهلة جداً والتي ستخرج الى النور بادىء الامر رفض الناس فكرة صنع شيء غريب ، وبعد ذلك بدؤوا يتمنون لو أن هذا الشيء قد تم ، ثم صاروا يبحثون إمكانية تحقيقه ــ وبعد أن تم هذا صار العالم كله يستغرب لماذا لم يتم صنعه منذ قرون مضت . بعض الأشياء التي بدأ الناس اكتشافها في القرن الماضي كانت مجرد افكار ــ أفكار فقط ــ وقد كانت ذات فعالية مثل البطاريات الكهربائية ــ وجيدة مثل ضوء الشمس أو سيئة مثل السم . أن تسمح لفكرة حزينة أو سيئة بالسيطرة على عقلك فهذا خطر كأن تسمح لجرثومة الحمى القرمزية بالدخول الى جسمك . فإذا سمحت لها بالبقاء في جسمك بعد أن دخلت فلربما لن تتمكن أبداً من التغلب عليها طوال حياتك .

وطوال كل المدة التي كان فيها عقل الآنسة ماري مليئاً بالأفكار غير المقبولة عن الاشياء التي لا تحبها والآراء الفاسدة عن الناس وتصميمها على عدم الرضى أو الاهتمام بشيء بقي وجهها اصفر اللون وهي مريضة فاترةالهمة وبائسة .ولكن الظروف كانت بالطبع كريمةمعها رغم انها لم تكن تدرك ذلك إطلاقاً . وقد بدأت تلك الظروف بدفعها في اتجاه مصلحتها ، وذلك عندما بدأ عقلها يمتلىء تدريجياً بطيور أبي الحناء وبأكواخ السبخة الممتلئة بالأطفال وأولئك الناس الذين يعملون في الحديقة ومزاجهم ليس كما ينبغي ، والخادمة البسيطة من يوركشاير ، والربيع والحديقة السرية

التي استردت الحياة يوما بعد يوم . وكذلك فتى السبخة وحيواناته ، فلم يعد لديها مجال للأفكار غير المقبولة والتي اثرت في السابق على كبدها وهضمها فكان وجهها اصفر وتشعر دوما بالتعب .

وطالما أن كولن كان يغلق على نفسه الغرفة ويفكر فقط في مخاوفه وضعفه وكراهيته للناس الذين ينظرون اليه . ويفكر لساعات بالكتلة والموت المبكر فقد كان طفلا نصف مجنون ومصاباً بالهستريا والوسواس ولا يعرف شيئاً عن ضوء الشمس والربيع ، وكذلك لا يعرف بأنه يمكن ان يتحسن ويقف على قدميه ، إذا حاول ذلك . وعندما بدات الأفكار الجديدة الجميلة تدفع بالأفكار القديمة والمختبئة قد بدأ يعود للحياة وبدأ دمه يدور في عروقه بصورة صحيحة ، كما بدات القوة تدب فيه كالطوفان لقد كانت تجربته العلمية عملية تماماً وبسيطة ولم يكن هناك ما يشوبها إطلاقاً . وهناك أشياء مدهشة اكثر بكثير يمكن أن تحدث لأي انسان وهي انه عندما تأتي فكرة غير مقبولة أو غير مشجعة الى فكرة فيجب أن يفكر جيداً في الوقت المناسب فيدفع بها الى الخارج ويستبدلها بفكرة أخرى مقبولة ومشجعة تماماً . فلا يمكن احتواء امرين في مكان واحد .

يا بني ، في المكان الذي ترع فيه وردة

لن يستطيع الشوك ان ينمو

وبينما كانت الحديقة السرية تعود الى الحياة والطفلان أيضاً يستردان حياتهما معها ، كان هناك رجل يتجول بعيداً في أماكن جميلة على شواطىء النرويج وسهول جبال سويسرا ، لقد كان رجلا ملأ عقله منذ عشر سنوات بالأفكار السوداء التي تفطر القلب . لم يكن شجاعاً ، ولم يحاول أبداً ان يصنع أفكاراً أخرى مكان الأفكار السوداء . لقد تجول بين البحيرات الزرقاء وفكر بها ، وعلى أطراف الجبال المغطاة بأزهار الجنطيان ورائحتها تملأ الهواء وتأمل فيها . ولكن حزناً كبيراً قد ملأ قلبه عندما كان سعيداً . وسمح لروحه أن تمتلىء بالسواد ورفض بشدة السماح لأي شعاع نور بالدخول. لقد نسي بيته وتخلى عنواجباته

وعندما كان يسافر كان الظلام يكتنفه ، وكأن رؤية الناس له يمكن ان تؤذيهم وكأنه قد سمم الهواء المحيط بالكآبة . أما الناس الغرباء فكان معظمهم يظنون انه نصف مجنون او انه رجل يخبيء جريمة ما في نفسه لقد كان رجلا طويلا ذا وجه طويل وكتفين منحنتين ، والاسم الذي يسجله دوماً في الفنادق كان ( ارشيبالد كريفن ـ ميسلثويت مانور ، يوركشاير انكترا » .

ومنذ ذلك اليوم الذي رأى فيه الآنسة ماري بمكتبه واخبرها أنها تستطيع الحصول على قطعة ارض سافر طولا وعرضاً،الى أجمل الأماكن في أوروبا ، رغم انه لم يبق في مكان اكثر من ايام قليلة . واختار الأماكن الأبعد والأكثر هدوءاً . لقد راح الى قمم الجبال التي تصل قممها الى الغيوم وورأى تلك الجبال عندما كانت الشمس تشرق وتلامسها بنورها وكأن العالم قد ولد من جديد .

ولكن يبدو ان الضوء لم يلمسه مطلقاً حتى أدرك ولاول مرة منذ عشر سنوات عندما حدث له شيء غريب رهو في واد رائع من غابات تيروليا النمساوية ، كان يمشي في ذلك الجمال الذي يرفع روح أي إنسان خارج الظل . لقد مشى طويلا دون أن يرفع روحه . وأخيراً شعر بالتعب ورمى بنفسه على مفرش من الطحالب قرب جدول ماء . لقد كان جدول ذا ماء صاف يجري فرحاً عبر ممر ضيق من خلال الخضرة الرطبة المعطرة وكان يحدث أحياناً صوتاً يشبه ضحكة خافتة جداً عندما يجري الماء فوق وحول الحجارة . ورأى الطيور تأتي وتغطس رؤوسها لتشرب ثم تنفض أجنحتها وتطير بعيداً . كان ذلك أشبه بالحياة ومع هذا فقد اضاف هذا الصوت الضعيف سكوناً أعمق وبينما كان جالساً يراقب الماء الصافي الجاري بدأ أرشيبالد كريفن يشعر تدريجياً أن عقله وجسمه قد اصبحا هادئين كالوادي نفسه ، وتساءل فيما اذا كان سينام ولكنه لم ينم لقد جلس وراح يحدق بضوء الشمس والماء وبدأت عيناه تريان الأشياء التي تنمو على الضفة . كانت هناك كتلة واحدة من أزهار

أذن الفار الزرقاء بالقرب من الجدول وحتى أوراقها كانت رطبة . لقد وجد نفسه بنظر إليها كما كان ينظر للأشياء منذ سنوات . كان يفكر فعلا كم هي جميلة وكم هي رائعة مئات الأزهار منها . ولم يكن يدري أن مجرد تلك الفكرة البسيطة كانت تملأ عقله ببط ـ ثم تملؤه وتملؤه لدرجة أنها دفعت بالافكار الأخرى جانبا . ولكنه لم يفكر بذلك وحده بالطبع . وكان ربيعاً حلواً وصافياً قد بدأ يتحرك في بحيرة ساكنة فارتفع وارتفع حتى جرف الماء الداكن بعيداً . ولكنه لم يفكر هو بذلك ، وكل مـــا يعرفه هو أن الوادي صار أهدأ وأهدأ عندما جلس وراح يتأمل الزرقـة المشرقة الرقيقة . ولم يدر كم مكث او ماذا كان يحدث له وأخيراً تحرك وكأنه قد استيقظ فنهض ببطء ووقف على بساط الطحالب وهو يسحب نفساً عميقاً وطويلا ويفكر بنفسه . لا بد أن شيئاً ما كان مفيداً في داخله وقد تحرر الآن بهدوء .

قال بصوت هامس وهو يمرر يده على جبينه « ما هذا ؟ إنني أشعر وكأنني ـ لا أزال حياً ! » ليس لدي معلومات كافية عن روعة الأشياء غير المكتشفة لكي اتمكن من توضيح كيف حدث ذلك له . ولا أحد يعرف ذلك بعد ـ إنه لم يستطع أن يفهم نفسه اطلاقاً ـ ولكنه تذكـر تلك الساعة الغريبة بعد عدة شهور عندما عاد الى ميسلثويت ثانية ووجـد بمحض الصدفة فانه في ذلك اليوم نفسه كان كولن قد صرخ وهو يدخل الى الحديقة السرية ، « سأعيش الى الأبد ـ الى الأبد » .

لقد بقي ذلك الهدوء الغريب معه طوال فترة المساء ، فنام نوماً هادئاً ولكن لم يكن طويلا . ولم يكن يدري بأن هذا يمكن أن يستمر . وفي الليلة التالية فتح الأبواب لأفكاره السوداء على مصراعيها فعادت متدافقة ومتزاحمة . فترك الوادي ، وذهب ثانية يتجول . ولكن الغريب في الأمر أن هناك دقائق ـ وأحياناً أنصاف ساعات ـ كانت تنزاح فيها ، دون أن يدري ، الأفكار السوداء ليرتفع ثانية ومن ثم يدرك أنه رجل حي وليس ميتاً . لقد كان يعود ببط شديد الى الحياة مع الحديقة ودون أن يـدري .

وعندما بدأ الصيف الذهبي يتحول الى خريف ذهبي أكثر ، ذهب الى بحيرة كومو . فوجد هناك جمال الحلم . لقد قضى أيامه على زرقة البحيرة البلورية أو كان يمشي داخل خضرة التلال الكثيفة الناعمة أو يطوف حتى يتعب ليتمكن من النوم . ولكنه في تلك الفترة صار ينـام بصورة افضل ، ولم تعد أحلامه مزعجة بالنسبة له .

فقال لنفسه « ربما أصبح جسمي اقوى » .

لقد أصبح اقوى ـ ولكنه وبسبب ساعات الهدوء القليلة ـ عندما كانت افكاره تتغير ـ كانت روحه تزداد قـوة أيضاً . لقد بـدأ يفكـر بميسلثويت ويتساءل حول امكانية عودتـه ، كما يتساءل بين الحـين والحين عن ابنه ويسأل نفسه عن شعوره عندما سيذهب ويقف أمام السرير المزخرف ثانية فينظر الى وجهه وكأنه عاج أبيض منحوت وهو نائم والرموش السوداء المنسدلة على العينين المغلقتين . فكان ينكمش لتلك الفكرة والمعجزة التي حدثت في احد الأيام التي مشى فيها بعيداً وعندما عاد كان ضوء القمر عالياً ويملأ كل العالم بظله الأرجواني والفضي . وكان سكون البحيرة والشاطىء والغابة رائعاً فلم يدخل الفيلا التي كان يعيش فيها بل ذهب الى أحد المصاطب الصغيرة المحاطة بعريشة على ضفة الماء وجلس على مقعده وراح يستنشق كل روائح الليل السماوية لقد كان يشعر بهدوء غريب يكتنفه ويزداد عمقاً حتى نام .

لم يعرف متى نام ، وعندما بدأ يحلم كان حلمه حقيقياً لدرجة لم يشعر بأنه حلم . وتذكر فيما بعد كيف ظن نفسه مستيقظاً وبكامل وعيه لقد ظن انه جلس واستنشق رائحة الورود المتأخرة واستمع الى صوت المياه تضرب عند قدميه وسمع صوت نداء . وكان الصوت عذباً صافياً سعيداً وبعيداً . لعد بدا بعيدا جدا ولكنه سمعه بوضوح وكأنه بجانبه وهو يقـول :

« أرشي ! أرشي ! » ومرة أخرى بعذوبة ووضـوح أكثر من قبـل « أرشي ، أرشي ! » وظن بأنه قفز ووقف على قدميه دون خوف .

لقد كان صوتاً حقيقياً وطبيعياً لدرجة انه سمعه فأجاب :

« ليلياس ! ليلياس ! ليلياس ! اين انت ؟ »

فجاءه الرد كصوت القيثارة الذهبية في الحديقة ، في الحديقة .

وعند ذلك انتهى الحلم . ولكنه لم يستيقظ . فنام بهدوء وعذوبة طوال تلك الليلة . وعندما استيقظ اخيراً كان صباحاً رائعاً ، وكان هناك خادم يقف الى جانبه وينظر اليه . كان خادماً ايطالياً ، وقد اعتاد مثل كل خدم الفيلا ، ان يتقبل أي شيء غريب يفعله سيده الأجنبي بدون سؤال . فلا أحد يعلم متى يخرج أو متى يعود ، وأين يختار ان ينام ، أو فيما إذا كان سيطوف الحديقة أو يستلقي في القارب وسط البحيرة طوال الليل . كان الرجل يحمل صينية وعليها بعض الرسائل ، فانتظر حتى اخذها السيد كريفن . وعندما ابتعد جلس السيد كريفن دقائق قليلة وهو يمسك بها في يده وينظر الى البحيرة . كان سكونه غريباً واضافة لذلك ـ احس وكأن الموضوع القاسي الذي لم يحدث ـ وكأن شيئاً ما قد تغير . لقد كان يتذكر الحلم ـ الحقيقي ـ حلم حقيقي .

قال وهو يسائل نفسه « في الحديقة ! في الحديقة ! ولكن الباب مقفل والمفتاح مدفون عميقاً » .

وعندما نظر الى الرسائل بعد عدة دقائق رأى أن هناك رسالة فوق كل الرسائل بأحرف انكليزية من يوركشاير ، وقد كتب عليها العنوان بخط امرأة ولكنه خط لا يعرفه . ففتحها دون أن يفكر بمن كتبها ، ولكن الكلمات الأولى لفتت انتباهه فوراً :

عزيزي :

انا سوزان ساورباي التي تجرأت وتحدثت إليك في السبخة . لقد تحدثت معك بشأن الآنسة ماري . وسأتجرأ لأتحدث معك ثانية .

أرجوك يا سيدي ، لو كنت مكانك لعدت الى البيت . أعتقد انك ستكون سعيداً إذا أتيت ـ التمس العذر منك يا سيدي ـ ولو كانت زوجتك، موجودة لطلبت هي ذلك منك .

خادمتك المخلصة

سوزان سادرباي

قرأ السيد كريفن الرسالة مرتين قبل أن يعيدها الى غلافها ، وظل يفكر بالحلم وقال لنفسه :

« سأعود الى ميسلثويت ، نعم سأعود فوراً » .

ثم ذهب الى الڤيلا عبر الحديقة وطلب من بيتشر أن يهيىء من أجل عودته الى انكلترا .

وخلال عدة أيام وصل الى يوركشاير ثانية ، واثناء رحلته البرية الطويلة وجد نفسه وهو يفكر بابنه ، باعتبار أنه لم يفكر به أبداً خلال السنوات العشر التي مضت .

لقد كان يتمنى خلال تلك السنوات أن ينساه فقط . والآن ، وبالرغم من عدم وجود نية للتفكير به فإن ذكرياته كانت تتردد باستمرار في ذهنه . لقد تذكر تلك الأيام السوداء التي كان يهيم بها كالمجنون لأن الطفل بقي حياً وأمه قد ماتت . وكان يرفض رؤيته ، وعندما قرر أخيراً الذهاب لرؤيته وجده طفلاً ضعيفاً وبائساً ، حتى أن الجميع كانوا متأكدين من موته خلال أيام . ولكن المدهش بالنسبة لأولئك الذين اعتنوا به أنه قد مرت الأيام وظل على قيد الحياة ، وعندئذ اعتقد الجميع أنه سيكون مشوهاً ومقعداً .

لم يكن الدكتور كريفن يقصد أن يكون أباً قاسياً ولكن لم يكن يشعر أنه أب على الاطلاق . لقد قدم الأطباء والمربيات وأسباب الرفاهية،

ولكنه كان ينكمش لمجرد فكرة وجود الصبي وبالتالي فقد دفن نفسه في تلك المأساة . ولأول مرة وبعد غياب دام سنة عاد الى مسيلثويت ليرى الطفل الصغير البائس وتينك العينين الرماديتين الواسعتين ورموشها السوداء حولها التي تشبه ولا تشبه الى حد كبير تينك العينين السعيدتين اللتين كان يعبدها ، ولذلك لم يكن يحتمل رؤيتهما إلا عندما يكون الطفل نائماً . وكل ما كان يعرفه عنه هو انه كان مريضاً بصورة مؤكدة وانه ذو طباع سيئة هستيرية ونصف مجنون . والطريقة الوحيدة لإبعاده عن إيذاء نفسه هي تركه على هواه في كل شيء .

كل ذلك لم يكن مهماً لكي يستعيده في ذاكرته . لكن وبينما كان القطار يدور به حول الجبال والسهول فإن الرجل الذي عاد للحياة بدأ يفكر بطريقة جديدة ، كان يفكر طويلاً وبصورة ثابتة وعميقة وطويلة لنفسه :

« ربما كنت مخطئاً خلال تلك السنوات العشر الطويلة الماضية . وربما أصبح الوقت متأخراً من أجل عمل أي شيء ـ متأخراً تماماً . وبماذا كنت أفكر » !

وبالطبع فإن البدء بصورة متأخرة جداً هو سحر خاطىء . حتى كولن يمكن أن يقول ذلك . ولكن السيد كريفن لا يعرف شيئاً عن السحر ـ سواءً الأسود منه أم الأبيض . ويجب أن يتعلمه . وتساءل فيما إذا كانت سوزان ساورباي قد تجرأت وكتبت له لأنها أم وقد استوعبت أن الصبي في حالة سيئة جداً . ولو لم يكن تحت سلطان الهدوء الملفت للنظر الذي سيطر عليه لأصبح أكثر بؤساً من أي وقت مضى ولكن هذا الهدوء أعطاه شيئاً من الشجاعة والأمل . وبدلاً من أن يسمح للأفكار الأسوأ فقد وجد نفسه وهو يحاول فعلياً للاعتقاد بالأشياء الأفضل لقد كان يفكر :

« هل من المحتمل أنها رأت بإمكاني أن أجعله بوضع أحسن وأضبطه؟ سأذهب وأراها وأنا في طريقي الى ميسلثويت » .

وبينما كان في طريقه عبر السبخة توقفت عربته امام الكوخ ، فاجتمع حوله سبعة أو ثمانية أطفال كانوا يلعبون في ذلك المكان مجتمعين فراحوا ينحنون برؤوسهم سبع أو ثماني مرات تحية صداقة وادب فأخبروه ان أمهم قد ذهبت الى الطرف الآخر من السبخة في وقت مبكر صباحاً لتساعد امرأة قد ولدت مجدداً . وتبرعوا قائلين : اما ديكون فهو هناك في مانور يعمل في واحدة من الحدائق ، حيث يقضي عدة أيام كل أسبوع هنـاك .

نظر السيد كريفن الى مجموعة الأجساد الصغيرة القوية ووجوههم المستديرة ذات الوجنات الحمراء وكل منهم يتكلم بطريقته الخاصة ، فانتبه الى حقيقة أنهم يتمتعون بصحة جيدة وهم جديرون بالحب ؛ فابتسم لضحكاتهم الودية واخرج من جيبه قطعة نقود ذهبية واعطاها الى اليزابيث ايلين باعتبارها الأكبر ، وقال لهم :

« إذا قسمتم هذه الى ثمانية اقسام فسيكون نصيب كل واحد منكم نصف كراون » .

ثم تابع طريقه وسط ابتسامات وضحكات وانحناءات تحية ، تاركاً وراءه بهجة غامرة وهم يتدافعون بمرافقهم ويقفزون خلفه فرحاً .

كان السير عبر روعة السبخة شيئاً لطيفاً . ولماذا أعطته شعور العائد الى بيته ، وهو على يقين بأن هناك احتمالاً كبيراً بألا يشعر به ثانية ــ هذا الشعور بجمال الأرض والسماء والزهر القرمزي من بعيد ودفء القلب كلما اقترب أكثر من البيت القديم الذي كان مقراً للعائلة منذ ستمائة عام ؟ وكيف غادره آخر مرة وهو يرتجف لمجرد التفكير بالغرفة المغلقة والفتى الذي يعيش في سريره المزخرف ذي القواعد الأربع . هل من الممكن أن يجده وقد تغير قليلاً نحو الأفضل ، وبالتالي يستطيع أن يتغلب على ابتعاده عنه ؟ والى أية درجة كان ذلك الحلم حقيقة ــ كم كان رائعاً وواضحاً ذلك الصوت الذي استدعاه قائلاً « في الحديقة ــ في الحديقة » .

فقال لنفسه « سأحاول ان اجد المفتاح ، وسأحاول فتح الباب . يجب ان افعل ذلك ــ رغم أني لا أعرف السبب » .

وعندما وصل مانور ، لاحظ الخدم الذين استقبلوه كالعادة ، ان

في وضع افضل ، وأنه لم يذهب الى الغرف البعيدة التي يسكن فيها بصحبة بيتشر . لقد ذهب الى المكتبة وطلب السيدة ميدلوك ، التي جاءت إليه قلقة بعض الشيء ومرتبكة . فسألها :

« كيف حال السيد كولن ، يا ميدلوك » ؟

اجابت السيدة ميدلوك : « حسناً يا سيدي ، إنه ، إنه مختلف الآن أستطيع قول ذلك » .

سأل « أسوأ » ؟

احمر وجه السيدة ميدلوك فعلاً وحاولت أن توضح :

« حسناً ، كما تلاحظ يا سيدي ، لا الدكتور كريفن ، ولا المربية ولا انا نستطيع أن نفهمه » .

« ولماذا » ؟

« سأخبرك الحقيقة سيدي . فالسيد كولن يمكن أن يكون افضل ويمكن أن يكون قد تغير للأسوأ . فشهيته لا تصدق ــ وطرقه ــ » .

سألها سيدها « هل أصبح غريب الأطوار أكثر من قبل » ؟ وقد قطب حاجبيه قلقاً .

« نعم يا سيدي . لقد أصبح أكثر غرابة ــ إذا قارنته بما كان عليه . فلم يكن يأكل شيئاً وفجأة بدأ يأكل كثيراً ــ ثم توقف ثانية فجأة ،

وصارت الوجبات تعاد كما هي . ولا نعلم شيئاً ، ربما لم يعتد الخروج من البيت . فالأشياء التي حاولناها كي يخرج بكرسيه تجعل الجسم يرتجف كالورقة . حتى أن الكتور كريڤن لم يستطع تحمل مسؤولية إكراهه على ذلك .

حسناً سيدي ـ ومن دون مقدمات ـ وبعد فترة قصيرة من أسوأ نوبة من نوباته أصر فجأة على الخروج كل يوم مع الآنسة ماري وديكون، حيث يجلب ديكون معه حيواناته . ولن تصدق يا سيدي فهو يبقى خارج البيت من الصباح وحتى المساء » .

أما السؤال التالي فهو : « وكيف يبدو شكله » ؟

« لو كان يتناول طعامه بصورة طبيعية لظننت يا سيدي أنه يزداد سمنة ـ ولكننا نخاف أن يكون ذلك نوعاً من الانتفاخ . فهو يضحك أحياناً بطريقة غريبة عندما يكون وحده مع الآنسة ماري . ولم يكن يضحك أبداً ، ولم يكن أمره محيراً أبداً » .

سأل السيد كريڤن « وأين السيد كولن الآن » ؟

« في الحديقة يا سيدي . إنه دوماً في الحديقة ـ ومن غير المسموح لأي شخص بالاقتراب منهم حتى لا ينظروا إليه » .

وبالكاد سمع الدكتور كريڤن كلماتها الاخيرة ، ثم قال :

« في الحديقة » ؟ وبعد أن صرف السيدة ميدلوك وراح يكرر لنفسه « في الحديقة » !

كان عليه بذل جهد ليسترد نفسه في المكان الذي يقف فيه ، وعندما شعر أنه لا يزال على الأرض ثانية استدار وخرج من الغرفة ، وأخذ طريقه ، كما فعلت ماري من خلال الباب ثم نحو الشجيرات وأشجار

الفار واحواض النافورة . كانت النافورة تدور وتحيط بها احواض من ازهار الخريف الجميلة ، فاستدار عبر الأرض الخضراء نحو الممر الطويل االى جانب جدار اللبلاب . كان يمشي ببطء وعيناه على الممر . فشعر وكأنه قد عاد الى المكان الذي هجره منذ زمن بعيد ، ولا يدري لماذا . وعندما اقترب منه صارت خطواته ابطأ . لم يكن يعرف مكانه تماماً ـ ذلك المفتاح المدفون .

فتوقف ووقف ساكناً وهو ينظر حوله ، وبعد لحظة تقريباً من توقفه بدأ يستمع ويسأل نفسه إن كان يسير في حلم .

كان اللبلاب ينسدل كثيفاً فوق الباب ، وكان المفتاح قد دفن تحت الشجيرات وليس هناك انسان واحد قد مر بهذا المدخل خلال السنوات العشر الوحيدة الماضية ـ ومع ذلك فهناك أصوات داخل الحديقة . صوت ركض وجر أقدام وكأنها تطارد وتدور تحت الأشجار . كانت أصواتاً غريبة منخفضة وخامدة ـ وصرخات فرح وتعجب مخنوقة وكأنها بالفعل ضحكات صغار ، ضحكات أطفال لا تقاوم وهم يحاولون أن لا يسمعهم أحد ، ولكن وخلال لحظة ـ فعندما يصل هياجهم الى أقصاه ـ ينفجرون . بحق السماء ما هذا الحلم الذي هو فيه ـ وبحق السماء ماذا يسمع ؟ فهل فقد عقله وتفكيره لقد سمع أشياء ليست لأذن الانسان ؟ هل هذا ما يعنيه ذلك الصوت البعيد الواضح ؟

وبعد ذلك جاءت اللحظة تلك اللحظة التي لا تقاوم ، عندما نسيت تلك الأصوات أن تكبح جماح نفسها . فصارت الأقدام تركض أسرع فأسرع ـ واقتربت من باب الحديقة ـ كان هناك لهاث صغار سريع وقوي ثم انفجار كبير لأصوات ضحك لم يكن بالامكان ضبطها ـ ثم فتح الباب الموجود في الجدار على مصراعيه وأزيح غطاء اللبلاب الى الخلف وخرج منه فتى بأقصى سرعته دون أن يرى من في الخارج ، فارتمى تقريباً بين ذراعيه .

فتح السيد كريفن ذراعيه تماماً في الوقت المناسب لإنقاذه من السقوط لأنه لم ير أنه قد اندفع نحوه ، وعندما أمسكه وأبعده عنه لينظر إليه بدهشة ، وعندما رآه شهق فعلاً .

لقد كان فتى طويلا ووسيما ، ممتلئا بالحياة وقد جعل الركض لوناً رائعاً يقفز الى وجهه . رمى بخصلة شعره الكثيفة بعيداً عن جبينه ورفع عينيه الرماديتين الغريبتين – عينين مليئتين بضحك الطفولة تحبطهما الرموش السوداء كالحاجز . إن هاتين العينين هما اللتان جعلتا السيد كريفن يشهق .

لم يكن كولن يتوقع ذلك – ولم يكن هذا الذي خطط له – ولم يفكر أبداً في لقاء كهذا .

ومع ذلك أن يخرج مندفعاً – وقد كسب السباق – ربما كان ذلك أمراً أفضل . فشد نفسه الى أقصى طوله . أما ماري التي كانت تركض معه واندفعت خارج الباب أيضاً فقد صدقت بأنه استطاع أن يجعل نفسه أطول مما كان عليه من قبل – وأطول بعدة إنشات .

قال كولن « أبي ، أنا كولن ، لن تصدق ذلك . وبالكاد أصدق انا نفسي ، أنا كولن » .

ولم يفهم ، كما هو حال السيدة ميدلوك ، ما قصده أبوه عندما قال بسرعة :

« في الحديقة ! في الحديقة » !

أجاب كولن بسرعة « نعم » إنها الحديقة التي فعلت ذلك ، وكذلك ماري وديكون والحيوانات – والسحر – ولا أحد يعرف . لقد احتفظنا بذلك لكي نخبرك عندما تعود . انني بصحة جيدة ، وأستطيع منافسة ماري في السباق ، وسأصبح رياضياً .

قال كل ذلك مثل أي فتى صحيح – وجهه متورد وكلماته تتلعثم فوق بعضها فرحاً – حتى أن روح السيد كريفن أخذت تهتز للفرحة التي لا تصدق .

مد كولن يده ووضعها على ذراع أبيه وأنهى كلامه :

«ألست سعيداً يا أبي ؟ ألست سعيداً ؟ سأعيش الى الأبد ، الى الأبد ، الى الأبد » !

وضع السيد كريفن يديه على كتفي الفتى وامسك به . كان واثقاً انه لم يكن ليجرؤ على الكلام لمدة دقيقة ، ثم قال أخيراً :
« خذني الى الحديقة يا بني ، وأخبرني ، كل شيء عنها » .

وهكذا اخذاه الى داخل الحديقة .

كان المكان يمتلىء بالخريف الذهبي والقرمزي والبنفسجي والأرجواني الصارخ ؛ وعلى كل جانب حزم من النيلوفر المتأخر الى جانب بعضها — النيلوفر الأبيض والياقوتي . لقد تذكر جيداً عندما زرعت لأول مرة فاستنتج أن هذا الموسم بالذات هو آخر ايامها التي ستزهر فيها . وأما الورود المتأخرة فقد تسلقت وامتدت وعلقت . وكانت أشعة الشمس تزيد من لون الأشجار المصفرة فتجعل الانسان يشعر وكأنه يقف في معبد مظلل بالذهب . وقف الزائر الجديد ساكناً تماماً مثلما فعل الاطفال عندما دخلوها وكان لونها رمادياً . وأخذ ينظر وينظر حوله ، ثم قال :

« ظننت أنها ماتت » .

قال كولن « ماري أيضا ظنت ذلك بادىء الامر ، ولكنها عادت للحياة ثم جلسوا تحت شجرتهم ، كلهم عدا كولن ، الذي كان يرغب بالوقوف وهو يروي قصتــه .

وكان أرشيبالد كريفن يفكر ، وهو يستمع للقصة تروى بطريقـة الفتى الطائشة ، انها اغرب قصة سمعها . الغموض والسحر والحيوانات البرية ، واجتماع منتصف الليل العجيـب — قـدوم الربيع — آم الكبرياء المجروح الذي أجبر المهراجا الصغير على الوقوف على قدميـه ليتحدى بن ويذرستاف في وجهه ، والصداقة الغريبة ، وتمثيل المسرحية والحفاظ على السر الكبير . ضحك السيد كريفن حتى نزلت الدمـوع من عينيه ، وحتى عندما لم يكن يضحك كانت الدموع في عينيه . فقـد كان الرياضي والمحاضر والمكتشف شابا ذا صحة جيدة ومحبوبا ومبتسما وفي نهاية قصته قال :

والان لاداعي لان تكون سرا بعد اليوم . وأستطيع القـول بانهـم سيصابون بنوبة عندما سيرونني — ولكنني لن اعود أبدا الى الكرسـي ثانية ، وسأعود معك الى البيت ماشيا يا أبي .

أما بن ويذرستاف فنادرا ما كانت واجباته تبعده عــن الحدائق ، ولكن وفي هذه المناسبة اعتذر بانه يريد ان يأخذ بعض الخضار الى المطبخ وان السيدة ميدلوك قد دعته لتناول قدح من البيرة ، لقد كان في الموقع ـ كما كان يأمل ـ عندما حدثت أكثر الحوادث اثارة في ميسثلويت مانور لهــذا الجيل .

سألته السيدة ميدلوك : « هل رايت احدا منهم يا ويذرستاف ؟ »

أبعد بن كأسه عن فمه ومسح شفتيه بظهر يده ثم أجابها بطريقــة فيها دهاء « نعم رأيتهم » .

« كلاهما ؟ »

رد بن ويذرستاف « كلاهما ، شكرا لك سيدتي ، بامكاني أن أشرب قدحاً اخر ، قالت السيدة ميدلوك وهي تملأ له الكأس بسرعة حتى فاض « كلاهما ؟ »

« كلاهما سيدتي » وشرب بن نصف كأسه دفعة واحدة .

« أين كان السيد كولن ؟ وكيف كان مظهره ؟ وماذا كانــا يقولان لبعضهما ؟ »

قال بن « لم اسمع ذلك ، لانني كنت على السلم انظر اليهم من فوق الجدار . ولكنني سأخبرك شيئا ، فهناك أشياء كانت تحدث في الخارج لا تعرفين عنها شيئاً لا انت ولا سكان البيت ، وستكتشفين ذلك قريبا .

وخلال دقيقتين وقبل أن يشرب اخر شفة من كأسه أخذ يلوح بكأسه وبهدوء باتجاه النافذة التي تطل على الجزء من المرج المزروع بالشجيرات وقال لهــا :

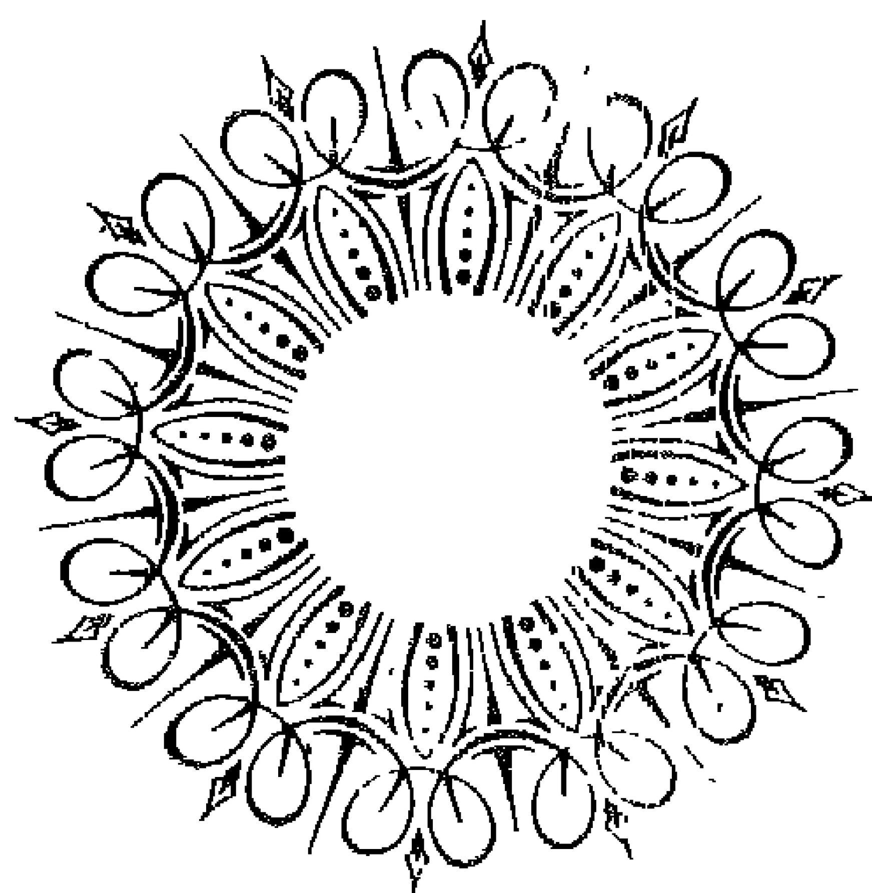
انظري هناك ، اذا كنت تحبين الفضول ، انظري من القادم فــوق العشــب » .

وعندما نظرت السيدة ميدلوك رفعت يديها وصرخت قليلا ، فاندفع كل الخدم والخادمات الذين سمعوها عبر غرفة الخدم ووقفوا ينظرون من النافذة وكأن عيونهم ستخرج من رؤوسهم .

كان سيد ميسلثويت قادما عبر المرج ، وكان منظره يختلف عمــا اعتادوا عليه . والى جانبه السيد كولن مرفوع الرأس وعيناه مليئتان بالابتسامة وهو يمشي قويا وثابتا مثل أي فتى في يوركشاير .

# الفهرس

٢٠٠٠ ط ١/٤/١٩٩٩



الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر

١٥٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل

٣٠٠ ل.س